

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِيقَاتُ الْحَجَّ

العدد: ٥٣

شهر رجب ١٤٤١ هـ

السنة: ٢٧

Issn : 2538 - 1733

مجلة علمية تخصصية نصف سنوية تعنى بالشؤون
الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

هَيْئَةُ التَّحْرِيرِ:

الشيخ محمد جواد الفاضل اللنكراني

الشيخ محمد القايني

الشيخ محمدهادي اليوسفي الغروي

الشيخ رضا المختاري

المُدِيرُ المَسْئُولُ:

السيد عبدالفتاح نواب

مُدِيرُ التَّحْرِيرِ:

محمد علي المقدادي

الفهرس:

- ٥ مسألتان في الحجّ
- ٧ (١) شمّ الرياحين للمُحرم.. حرّمته وعدمها
- ١٧ (٢) الجدال المحرم على المحرم.. حقيقته وما يعتبر فيه
بقلم: عليّ فاضل الصديّ
- ٢٧ شروط الذّبح في المذاهب الإسلامية
محمد حسين واثقي راد.
- ٦٩ مختصر الشمائل النبوية صلى الله عليه وآله (٢)
تأليف: الحسن بن صادق الحسيني آل المجدّد الشيرازي
- ١١١ الموخّدون العابدون القاصدون (أمّ القرى) من كلّ الأمصار
محسن الأسدي.
- ١٥٧ شخصيات من الحرمین الشريفین (٤٤) العباس بن عبد المطلب عمّ النبي صلى الله عليه وآله (١)
محمد سليمان.
- ٢٢٩ الدور الثقافي للحجّ زمن سلاطين المماليك ٦٤٨هـ / ٩٢٣م
د. سليمان عبد الغني مالكي
- ٢٥٨ مناجاة الراجين
- ٢٥٩ ملخصات انجليزيه

ملاحظات :

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون في التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم، النقاط التالية:

١. أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيل.
٢. أن تكون المقالة مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أو أن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.
٣. أن تكون المادّة المرسلة للنشر في المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.
٤. تقوم المجلة بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إليها، ولها الحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.
٥. يعتمد ترتيب البحوث والمقالات في المجلة على أسس فنيّة وليس لأسباب أخرى.
٦. تعتذر المجلة عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.
٧. المقالات والبحوث التي تنشر على صفحات المجلة تمثّل وجهات نظر وآراء كتّابها.
٨. ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة.
٩. ترحب إدارة التحرير في مجلة «ميقات الحج» بملاحظات القراء الكرام ومقترحاتهم.

مسألتان في الحجّ

بقلم: عليّ فاضل الصدديّ

ملخصّ البحث:

يتعرّض البحث إلى مسألتين من مسائل محرّمات الإحرام، هما: حرمة شمّ الرياحين، أي: النبات ذي الرائحة الطيّبة، وحرمة الجّدال، وذلك عبر عرض الأقوال المختلفة سعةً وضيّقاً في حدود هذين المحرّمين مع بيان أدلّتها، ومناقشتها. وقد خلّص البحث في المسألة الأولى إلى ثبوت الحرمة في شمّها وكذا استعمالها؛ وذلك بعد تامة دليله، وهو صحيحة عبد الله بن سنان ومعتبرة حريز الدالتان بصراحة على الحرمة، وعدم تامة الموانع من الأخذ بالحرمة والحمل على الكراهة، كما خلّص إلى تنقيح مسألتين كبرويتين، هما: صحّة الأخذ بروايات حريز عن الإمام الصادق عليه السلام حتى مع تردّها بين الإرسال والإسناد، وعرفيّة حمل ما ظاهره الحرمة على الكراهة لو تمت أدلّة صريحة على الجواز؛ عملاً بتقديم النصّ على الظاهر.

وأما المسألة الثانية فقد تعرّض البحث إلى جهتين من المسألة، وهما: بيان أنّ حرمة التلفّظ بـ (لا والله، وبلى والله) مختصةٌ بمورد الجّدال والمنازعة أم أنّها أعمّ من

ذلك، والثانية: بيان أنّ موضوع الحرمة هو كلُّ واحدةٍ من الكلمتين أم مجموعهما، وقد توصل إلى أنّ الحرمة مختصةٌ بصورة المنازعة، وأنّه يكفي في تحقّقها التلفّظ بواحدةٍ منهما في صورة المنازعة.

وقد تضمّن البحث الإشارة إلى قاعدتين مهمّتين في باب معالجة النصوص والاستظهار منها، أو لاهما: عدم صحّة المباينة بين المفسّر والمفسّر به، وثانيتها: كفيّة الاستفادة من دعاوى الإجماع في الوقوف على مفاد النصوص وتحديد جهة النظر فيها.

(١)

شمّ الرياحين للمُحرم.. حرمة و عدمها

مقدّمة:

لا خلاف ولا شبهة في حرمة الطيب للمُحرم ولو في الجملة، فإنّه وإن دلت طائفة من الأخبار على حرمة مطلقة،^١ إلا أنّ طائفة أخرى حدّدت المحرّم منه في أفراد بعينها،^٢ فمقتضى صناعة الإطلاق والتقييد تقيّد الأولى بالثانية سيما بعد دلالة بعض أخبار الطائفة الثانية على كراهة ما عدا المحدّد.^٣

[مسألتنا والأقوال فيها:]

وقد وقع الكلام في حكم شمّ الرياحين، فذهب إلى كراهته الشيخ في النهاية،^٤

١. وسائل الشيعة ١٢: ٤٤٢-٤٤٦ ب ١٨ من أبواب تروك الإحرام ح ٢، ٥، ٦، ٧، ٩، ١١، ١٨، على تأمل في ٥، ٩؛ فإنّهما عين الـ ٨، ١٤ المشتملين على التحديد في الأفراد الأربعة.
٢. وسائل الشيعة ١٢: ٤٤٤-٤٤٦ ب ١٨ من أبواب تروك الإحرام ح ٨، ١٤، ١٥، ١٦، ١٩.
٣. وسائل الشيعة ١٢: ٤٤٤ ب ١٨ من أبواب تروك الإحرام ح ٨.
٤. النهاية: ٢١٩.

والإسكافي،^١ وابن حمزة،^٢ والمحقق في الشرائع،^٣ والنافع،^٤ والعلامة في القواعد والإرشاد والتحرير والتبصرة،^٥ والشهيد في الدروس،^٦ وذهب إلى حرمة المفيد في المقنعة،^٧ والعلامة في المنتهى والتذكرة والمختلف،^٨ وفي موضع من التحرير،^٩ والشهيد في موضع من الدروس،^{١٠} والمحقق الثاني،^{١١} والشهيد الثاني في المسالك والروضة،^{١٢} والسيدان في المدارك،^{١٣} والرياض،^{١٤}.

[حجة المنع:] وقد استدلل للحرمة بروايتين:

أولاهما: صحيحة عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تمس ريحاناً (الريحان) وأنت محرم، ولا (تمس) شيئاً فيه زعفران، ولا تطعم (تأكل) طعاماً فيه زعفران.^{١٥}

١. حكاه عنه في المختلف ٤: ٧١، ٧٢.
٢. الوسيلة: ١٦٤.
٣. شرائع الإسلام: ١: ٢٨٦.
٤. المختصر النافع: ١٠٩.
٥. قواعد الأحكام: ١: ٤٢٠، إرشاد الأذهان: ١: ٣١٨، تحرير الأحكام: ٢: ٣٧، تبصرة المتعلمين: ٩١.
٦. الدروس الشرعية: ١: ٣٨٨.
٧. المقنعة: ٤٣٢.
٨. منتهى المطلب: ١٢: ٢٥-٢٨، تذكرة الفقهاء: ٧: ٣٠٤، ٣٠٦.
٩. تحرير الأحكام: ٢: ٢٧.
١٠. الدروس الشرعية: ١: ٣٧٣.
١١. جامع المقاصد: ٣: ١٧١.
١٢. مسالك الأفهام: ٢: ٢٦٩، الروضة البهية: ١: ٤٩٣.
١٣. مدارك الأحكام: ٧: ٣٨٠، ٨: ٤٣٣.
١٤. رياض المسائل: ٦: ٣٤٨، ٣٤٩.
١٥. وسائل الشيعة: ١٢: ٤٤٥ ب ١٨ من أبواب ترك الإحرام ح ١١.

والثانية: معتبرة حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يمَسَّ المحرم شيئاً من الطيب ولا الريحان ولا يتلذّذ به، فمن ابتلي بشيء من ذلك فليصدّق بقدر ما صنع بقدر شعبه - يعني من الطعام -^١. كذا عن التهذيب والاستبصار.

وعن الكافي بسندٍ معتبرٍ إلى حريز عمّن أخبره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يمَسَّ المحرم شيئاً من الطيب ولا الريحان ولا يتلذّذ به ولا بريح طيبة، فمن ابتلي بذلك (بشيء من ذلك) فليصدّق بقدر ما صنع قدر سعته^٢. والمعجّب وصفه في الجواهر بالحسن^٣، والحال أنّه مرسل.

وعن المحاسن عن بعض أصحابنا (رفعه) عن حريز قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المحرم يشمّ الريحان، قال: لا.^٤

سند روايات حريز:

وحيث لا نَحْتَمِلُ أنّ حريزاً قد تلقّاها عن أبي عبد الله عليه السلام مرّةً بالمباشرة، وأخرى بالواسطة، ونقلها إلى حماد كذلك سيّما مع تكثّر رواياته كذلك فلا يجرز كونها مسندةً، فتسقط عن الاعتبار.

ومع الكثرة المزبورة يسري الإشكال إلى رواياته عنه عليه السلام بلا واسطة وإن لم تنقل ثانيةً بالواسطة، فيحتمل فيها الإرسال بحدّ معتدّ به، وأنّه مرسل في الواقع وإن كان مسنداً بحسب الصورة، وبما أنّه قد روى عن عشرةٍ بين ضعيف ومجهول، فيحتمل فيمن أرسل عنه واقعاً أنّه أحد العشرة، ومع هذا الاحتمال تسقط رواياته عن

١. وسائل الشيعة ١٢: ٤٤٣ ب ١٨ من أبواب تروك الإحرام ح ٦.
٢. وسائل الشيعة ١٢: ٤٤٣ ب ١٨ من أبواب تروك الإحرام ح ٦.
٣. جواهر الكلام ١٨: ٤٣٤.
٤. وسائل الشيعة ١٢: ٤٥٤ ب ٢٥ من أبواب تروك الإحرام ح ٤.

الاعتبار بقطع النظر عما قاله يونس من أن حريزاً لم يسمع من أبي عبد الله عليه السلام إلا حديثاً أو حديثين^١.

ولكن يمكن التغلب على هذه المشكل بذكر علاج يتوقف على مقدمات:

ألف: أن حريزاً وإن روى عن عشرة بين ضعيف ومجهول إلا أنه إنما روى عن كل واحدٍ بحسب روايات الوسائل روايةً أو روايتين، بحيث لا تتجاوز جملة ما رواه عنهم عن الخمس عشرة رواية من أصل (١٣٢٠) روايةً في الكتب الأربعة.

باء: أن رواياته عن زرارة وحده تبلغ (٤٤٨) روايةً، وعن محمد بن مسلم كذلك تبلغ (٣٣٢) رواية، وعن أبي بصير تبلغ (٤٩) رواية، وعن الفضيل تبلغ (٣٩) رواية بحسب تعداد (معجم رجال الحديث) (٢)، وهو ما مجموعه (٨٦٨) روايةً فضلاً عن بقية مسنده من ثلاثين من الثقات غير أولئك.

جيم: أن مجموع رواياته عن الصادق عليه السلام بلا واسطة لا يتجاوز عن (١٩٠) رواية.

وفي ظل ما تقدم فاحتمال أن تكون كل واحدة من رواياته عنه عليه السلام قد رواها عنه بواسطة أحد العشرة الضعفاء في مقابل احتمال روايته عن زرارة وابن مسلم وأبي بصير والفضيل خاصة هو احتمال ضئيل لا يعتد به بحيث يطمئن على الأقل بكون الواسطة بين حريز وبين الصادق عليه السلام من الثقات، فكيف فيما لو كان الاحتمال في مقابل احتمال روايته عن أحد هؤلاء الأربعة وعن الثلاثين الثقات أيضاً؟!

وهذا كما هو علاجٌ لمثل محل كلامنا، ولذا عبرنا عن روايته بالمعتبرة هو علاج للإشكال الساري إلى رواياته عن الصادق عليه السلام بالمباشرة المحتمل كونها رسالة، وهو علاج أيضاً عن مقولة يونس، يضاف إلى علاجاتٍ أخرج عنها^٣.

١. اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي رحمته الله): ٢: ٦٨٠ (٧١٦).

٢. معجم رجال الحديث ٥: ٢٣٥ (٢٦٤٥).

٣. انظر: مجموع الرسائل الفقهية، للكاتب (كان الله له): ٢٤١، ٢٤٢.

[دلالة المعبرتين على الحرمة:]

ثم إن ظاهر المعبرتين هو حرمة شمّ الريحان، والريحان لغةً اسم لكل نبات طيب الريح، ويجمع على رياحين،^١ ولا يراد به ريحاناً بعينه في مقابل النعناع ونحوه، وهو ما يسميه الفرس ريحاناً، فيطلقون عليه الريحان دون غيره من أفراد الريحان، ويقال عنه في الكلمات: الريحان الفارسي،^٢ إلا أنه قد أشكل على ذلك بأمر ثلاثة:

الأول: ما أفاده سيّد الأعظم رحمته من أنه بعد البناء على اختصاص الممنوع من الطيب بالخمسة - وهي المسك والعنبر والزعفران والورس والعود - لا يحتمل أن يكون الريحان أشدّ حالاً من غير الخمسة من سائر أنواع الطيب، فلا بدّ من حمل النهي على الكراهة، كما صنعه الشيخ رحمته.^٣

ويلاحظ عليه أولاً: أنّ الريحان ليس طيباً عرفاً، كي لا يحتمل أن يكون أشدّ حالاً من غير الخمسة من سائر أنواع الطيب، على أن المنع عنه بعنوانه لا بعنوان الطيب. ثانياً: لو سلّمنا كونه طيباً عرفاً إلا أن عهدة دعوى عدم احتمال أشدّية الريحان من غير الخمسة إنما هي على مدّعيتها وحده، كيف وأنا لا نحيط خبراً بملاكات الواقع؟! واحتمال التعبّد المحض لا دافع له، سيما بعد الالتفات إلى أن بعض أنواع الطيب لو لم تكن من جهة المصدقية للطيب أوضح من بعض الخمسة فلا أقلّ من المساواة معها.

الأمر الثاني: ما أفيد من المعارضة بين ما دلّ على المنع وبين صححة معاوية بن عمّار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا بأس أن تشمّ الإذخر والقيصوم والخزامى والشيخ

١. المصباح المنير: ١: ٢٤٣، لسان العرب: ٢: ٤٥٨، مجمع البحرين: ٢: ٣٦٣.

٢. انظر: المسوط: ١: ٣٥٢، الخلاف: ٢: ٣٠٣، تحرير الأحكام: ٢: ٢٧، تذكرة الفقهاء: ٧: ٣٠٥.

٣. مستند الناسك في شرح المناسك، تقرير بحث الإمام الخوئي رحمته، بقلم الشهيد الشيخ مرتضى البروجرديّ رحمته: ١: ١٤٠.

وأشباهه وأنت محرم»^١. فإن المذكورات وأشباهها من مصاديق الرياحين، فيجمع بينهما بالحمل على الكراهة^٢.

ويلاحظ عليه أولاً: لا نسلم كون المذكورات من مصاديق الريحان عرفاً وإن كانت منها لغة؛ لتكون النسبة بين موضوعي الحرمة والجواز هي التساوي، وأن التعارض كلياً، فيجمع بينهما جمعاً حكماً.

ثانياً: لو كانت المذكورات من الريحان إلا أنها أخص من الريحان، ولو دخلت معها أشباهها؛ لاحتمال كون المشابهة في كونها من نبت البراري مثلما يحتمل أن تكون المشابهة في إطلاق الريحان عليها، بل في المدارك: «الظاهر أن المراد به مطلق نبات الصحراء، فيكون المراد بالرياحين المحرمة ما يستنبته الأدميون من ذلك، ويحتمل أن يراد به ما هو أخص من ذلك»^٣. ويؤكد ذلك ما أفاده أحد الأعلام^٤ من أنه لو كان المراد من (أشباهه) مطلق الرياحين لكان التعرض لما ينبت الأدمي مما هو محل الابتلاء نوعاً أولى، ولا ملاءمة بينه وبين التعرض للعناوين الخاصة من النباتات البرية وإفادة إطلاق الحكم وعمومه بمجرد قوله: (وأشباهه)^٥.

وثالثاً: لو سلمنا كون التعارض كلياً إلا أن النهي في روايات المنع لا يمكن حمله على الكراهة؛ فإن النهي عن مسّ الريحان هو بنفس النهي عن الطيب، وهو في الطيب للتحريم قطعاً، فلا يمكن حمله بالإضافة إلى الريحان على الكراهة؛^٥ فإن اللفظ الواحد

١. وسائل الشريعة ١٢: ٤٥٣ ب ٢٥ من أبواب ترك الإحرام ح ١.

٢. انظر: دليل الناسك للإمام الحكيم^٦: ٩٥، مستند الناسك ١: ١٤١، تنقيح مباني الأحكام (ك. الحج) للميرزا التبريزي^٧: ٢٩٦: ٢٩٦، تعاليق مبسوطه للمرجع الفيض ١٠: ١٩٦.

٣. مدارك الأحكام ٧: ٣٨٠.

٤. تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة (ك. الحج ٤) للفاضل اللنكراني^٨: ٤١: ٤١.

٥. انظر: جواهر الكلام ١٨: ٤٣٥، وإن علل المنع بامتناع استعمال اللفظ الواحد في الاستعمال الواحد في الحقيقة والمجاز.

وإن جاز استعماله في الاستعمال الواحد في معنيين إلا أنه خلاف الظاهر عرفاً، فلا يصار إليه إلا مع القرينة، بل السياق مانع من الحمل على الكراهة بناءً على استفادة الحرمة من النهي من غير توسط حكم العقل وإن كان النهي عن الطيب غير النهي عن الريحان كما في نقل التهذيب لصحيحة ابن سنان.

ويمنع من حمل النهي على الكراهة أيضاً الإلزام بالكفارة عن مسّ الريحان في روايتي حريز، حيث قال عنه: «فمن ابتلي بشيء من ذلك فليتصدق بقدر ما صنع بقدر (سعته) شبعه يعني من الطعام»؛ فإن المناسبة العرفية بين كراهة فعل الشيء وإيجاب الكفارة على فعله خفية.

ثم ما في بعض الكلمات من أن قوله: (فمن ابتلي) ظاهر في عدم التعمد، ولا يحتاج إلى الحمل والتحمل (كذا).^١ ممنوع؛ إذ هو أعمّ لو لم نقل بظهور اختصاصه بالعامد نظراً لإيجاب الكفارة في حقه.

[عرفية حمل ما ظاهره الحرمة على الكراهة بنصية ما دلّ على الجواز:]

وهنا مطلب كبروي سيّال ذكر في بعض الكلمات، وهو أن حمل ما ظاهره الحرمة على الكراهة عند صراحة ما دلّ على الجواز ليس عرفياً؛ فإنّ العرف يرى التعارض، وأنّ الظهور المخالف للنصّ لم يُحرز استقرار بناء العقلاء على العمل به، فلا يكون حجّة كي يصلح للمعارضة.^٢ ومعه فلا تثبت الكراهة.

أقول: حيث يكون الظهور بنحو يأبى عن التصرف فيه، - كما في المقام - حيث نسلم كون التعارض كلياً وأنّ النسبة بينهما هي التساوي فالأمر كما أفاده من

١. تقرير الشريعة في شرح تحرير الوسيلة (ك. الحجّ) للسيد عليّ المحقّق الداماد: ٢: ٤٦٦.

٢. انظر: منهاج الناسك إلى أدلّة المناسك، تقرير بحث الأستاذ الشيخ عليّ المروّجّي، بقلم السيد

جعفر الحسيني: ٣: ٣٣٤.

التعارض المستقر، ولكن لا يُقدّم أحدهما على الآخر ولا يُجكّم عليه، والنتيجة هي التساقط للمعارضة لو لم يوجد مرجع ولا مرجح، وأما حيث لا يكون الظاهر بتلك المثابة، فالنصّ مقدّم عليه، ولكنّ سقوط ما دلّ على الحرمة حتى في دلالة النصّية على أصل المرجوحية محلّ تأمل، والأمر سهل.

الأمر الثالث: ما أفيد من المعارضة بين ما دلّ على المنع وبين موثقة عمّار بن موسى عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سألته عن المحرم يأكل الأترج، قال: نعم، قلت: له رائحة طيبة، قال: الأترج طعام، ليس هو من الطيب»؛^١ فإنّها تدلّ على ضابط كليّ، وهو أنّ كلّ ما كان من الطعام جاز للمحرم استعماله وإن كان ذا رائحة طيبة.^٢

ويلاحظ عليه بأنّ أقصى ما تدلّ عليه أنّ المدار في الحرمة على صدق عنوان الطيب، لأنّ كونه طعاماً مانعٌ منها، نعم قد يظهر التمانع وأنّ ما كان طعاماً ليس طيباً وما كان طيباً ليس طعاماً.

ثمّ إنّ الريحان وإن لم يكن طيباً عرفاً إلا أنّ حرمة المدّعة إنّها هي بنفس عنوانه، ولا تنافي بين نفي حرمة من جهة عدم كونه طيباً، وإثباتها من جهة اسمه. ثمّ أقصاه إطلاق عدم حرمة ما لم يكن طيباً وإن كانت له رائحة طيبة، فيخصّصه ما دلّ على المنع من الريحان.

[زبدة المخضّ:]

فتحصّل مما تقدّم حرمة الريحان على المحرم وفقاً للمفيد عليه السلام من القدماء، وللعلامة عليه السلام من متأخري المتأخرين، وللمحقّق والشهيد الثانيين عليهما السلام، وللسيّدین صاحبی المدارک والریاض عليهما السلام.

١. وسائل الشيعة ١٢: ٤٥٥ ب ٢٦ من أبواب ترك الإحرام ح ٢.

٢. انظر: دليل الناسك: ٩٥، تعاليق مبسوطة ١٠: ١٩٥.

[متعلق الحكم:]

بقي الكلام في متعلق الحرمة، فإنّ الوارد في الروايات هو المنع من مسّ الريحان، وظاهره هو معناه الكنائّي المساوق لإيجاب الاجتناب عنه وترك استعماله، فلا فرق في المنع من مسّه بين شمّه وأكله وغيرهما، ويؤكد ذلك عطف مسّ الريحان الممنوع على مسّ الطيب.

ومنه تعرف ما في بعض الكلمات من أنّ الأثر الشائع للريحان هو الشمّ، وهو المراد من المسّ هنا، فالقدر المتيقّن منه هو حرمة شمّه^١.

على أنّ الأثر الشائع لبعض الريحان كما في النعناع والريحان الفارسيّ هو الأكل أيضاً، فليس القدر المتيقّن من مسّه هو الشمّ. ولذا تجد أنّ الشيخ عليه السلام في المبسوط^٢، والمحقق عليه السلام في الشرائع ومختصره^٣ والعلامة عليه السلام في التحرير والتذكرة والإرشاد والتبصرة^٤ قد جعلوا متعلق الحكم هو الاستعمال، وإن كان الحكم عندهم هو الكراهة.

١. تقرير الشريعة ٢: ٤٦٦.

٢. المبسوط ١: ٣١٩.

٣. شرائع الإسلام ١: ٢٨٦، المختصر النافع: ٨٥.

٤. تحرير الأحكام ٢: ٣٧، تذكرة الفقهاء ٧: ٣٩٦، إرشاد الأذهان ١: ٢٩٧، تبصرة المتعلّمين: ٩١.

(٢)

الجدال المحرم على المحرم.. حقيقته وما يعتبر فيه

مقدمة:

لا خلاف ولا إشكال في حرمة الجدال على المحرم، والأصل فيه قبل الإجماع هو الكتاب العزيز في قول الله سبحانه: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ...﴾^١ وفي قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحُجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾^٢ بعد تفسير الإتمام اللازم بظهور صيغة الأمر فيه باجتناب الرفث والفسوق والجدال، ففي صحيحة عبد الله بن سنان في قول الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحُجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: إتمامهما أن لا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج^٣.

١. سورة البقرة: ١٩٧.

٢. سورة البقرة: ١٩٦.

٣. وسائل الشريعة ١٢: ٤٦٦ ب ٣٢ من أبواب ترك الإحرام ح ٦ (صحيح السند، مقطوع، ولكن التقى المجلسي قد استظهر أن القائل هو أبو عبد الله عليه السلام، انظر: روضة المتقين ٤: ٣٧٦)، وانظر: وسائل الشريعة ١١: ٢٣٣، ٢٣٤ ب ٢ من أبواب أقسام الحج ح ٢٩ (ضعيف).

وتستفاد حرمة من روايات إيجاب الكفارة على فعله؛^١ للملازمة العاديّة بين لزوم الكفارة والحرمة، فتأمل.

تفسير الجدال:

وقد استفاض عن أئمتنا عليهم السلام أن الجدال في الآية هو قول الرجل: (لا والله)، و(بلى والله)،^٢ ومن ذلك صحيحة معاوية بن عمّار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في حديث إن تمام الحجّ والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلا من خير، كما قال الله عزّ وجلّ؛ فإن الله يقول: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

فالرفث: الجماع، والفسوق: الكذب والسباب، والجدال: قول الرجل: (لا والله) و(بلى والله)،^٣ ومنه صحيحة عليّ بن جعفر قال: سألت أخي موسى عليه السلام عن الرفث والفسوق والجدال، ما هو؟ وما على من فعله؟ فقال: الرفث: جماع النساء، والفسوق: الكذب والمفاخرة، والجدال: قول الرجل: (لا والله) و(بلى والله).^٤

بل دلّ بعض المستفيض على حصر الجدال في ذلك،^٥ نعم هو حصر إضافي، وفي مقابل الحلف بغيره سبحانه، مثل (لا لعمرى) و(بلى لعمرى).

وفي معاني الأخبار بإسناده عن زيد الشحام قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرفث

١. انظر: وسائل الشيعة ١٣: ١٤٥-١٤٨ ب ١ من أبواب بقیة کفّارات الإحرام. وأمّاروايات الباب الثاني والثلاثين من أبواب تروك الإحرام فلا دلالة في شيء منها على حرمة؛ إذ قد وردت بأجمعها لتحديد الجدال.

٢. وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٧ ب ٣٢ من أبواب تروك الإحرام ح ١، ٣، ٥، ٨، ٩، الوسائل ١٣: ١١٥ ب ٣ من أبواب کفّارات الاستمتاع ح ١٦، ١٤٧، ١٤٨ ب ١ من أبواب بقیة کفّارات الإحرام ح ٨، ١٠.

٣. وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٣ ب ٣٢ من أبواب تروك الإحرام ح ١.

٤. وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٥ ب ٣٢ من أبواب تروك الإحرام ح ٤.

٥. وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٥ ب ٣٢ من أبواب تروك الإحرام ح ٣، ٥.

والفسوق والجدال، قال: أما الرفث فالجماع، وأما الفسوق فهو الكذب، ألا تسمع لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾، والجدال هو قول الرجل: (لا والله)، و(بلى والله)، وسباب الرجل الرجل^١. فقد زاد السباب. ولكنّه ليس فرداً للجدال، بل هو كالكذب من أفراد الفسوق، واتفق التقديم والتأخير، ويؤكد ذلك تفسير الفسوق في بعض الروايات بالكذب والسباب، كما في صحيحة معاوية بن عمّار المتقدّمة، وغيرها^٢، على أنّ في سند الرواية ضعفاً بالفضل بن صالح.

وأما صحيحة معاوية قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في حديث: والجدال قول الرجل: (لا والله) و(بلى والله)، واعلم أنّ الرجل إذا حلف بثلاثة أيمان ولأء في مقام واحد وهو محرم فقد جادل فعليه دم يهريقه، ويتصدّق به، وإذا حلف يميناً واحدة كاذبة فقد جادل، وعليه دم يهريقه، ويتصدّق به...^٣ فلا يدلّ قوله: (واعلم أنّ الرجل إذا حلف بثلاثة أيمان ولأء في مقام واحد وهو محرم فقد جادل فعليه دم يهريقه) على عدم تحقّق الجدال مع الصدق إلاّ بثلاثة أيمان، بل الظاهر منها أنّ الجدال مع الصدق الموجب للكفّارة لا يتحقّق إلاّ بالثلاثة، ويشهد له تفرّيع الكفّارة على الجدال، إذ قال: (فقد جادل فعليه دم يهريقه).

[إشارة:]

ولما استقلّ غيرنا في تفسير كتاب الله عن صنوه وعدله أخذوا في تفسير الجدال في الآية بمعناه الظاهر - لغةً وعرفاً - وهو مطلق النزاع والمخاصمة^٤، وأتى لمن سلك

١. وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٧ ب ٣٢ من أبواب تروك الإحرام ح ٨.

٢. وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٧ ب ٣٢ من أبواب تروك الإحرام ح ٩.

٣. وسائل الشيعة ١٣: ١٤٦ ب ١ من أبواب بقیة كفّارات الإحرام ح ٣.

٤. المغني لابن قدامة ٣: ٢٦٥، الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري ١ (٣٥٧ ط. المكتبة العصرية) ١٩

مسلك من قال: (حسبنا كتاب الله) أن يصل ولو جدّ جدّه إلى أن المراد من الجدل ما دلّنا عليه هُداتنا ورثة كتاب الله المصطَفون،^١ المخاطَبون به؟^٢ وليس لمن ابتغى علم الكتاب من غيرهم إلا الهلاك.^٣

جهات البحث:

وقد وقع البحث في ضوء تفسير الجدل بـ (لا والله، وبلى والله) في جهات خمس عالِجها سيّد الأعاظم عليه السلام، وساقَصر على التعرّض لجهتين منها:

الأولى: في متعلّق الحرمة:

فبعد الفراغ من أن الجدل المحرّم ليس مطلق النزاع والمخاصمة كما عليه العامّة، هل المحرّم مجرد قول: (لا والله، وبلى والله) وإن لم يتفق نزاع ومخاصمة، كما هو المشهور، أو أن المحرّم هذا القول في مورد النزاع والمخاصمة. كما ذهب إليه الفاضل الهندي عليه السلام،^٤

قائلاً: وتحرّم المخاصمة مع الرفقاء والخدم وغيرهم؛ لقوله تعالى: «الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ»، والرَفَث: الجماع ودواعيه، والكلام الفاحش، والجدال: المخاصمة.
١. «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...». سورة فاطر: ٣٢، «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...». سورة العنكبوت: ٤٩، انظر للتذكرة: وسائل الشيعة ٢٧: ١٨٨، ١٨٠ ب ١٣ من أبواب صفات القاضي ح ٣٤، ١١.

٢. عن أبي جعفر عليه السلام قال: ويحك يا قتادة، إن كنت إنّما فسّرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك، وإن كنت قد فسّرتَه من الرجال فقد هلكت وأهلك، ويحك يا قتادة، إنّما يعرف القرآن من خوطب به. وسائل الشيعة ٢٧: ١٨٥ ب ١٣ من أبواب صفات القاضي ح ٢٤.

٣. في أمالي الصدوق عليه السلام بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله - في حديث - إن الله أنزل عليّ القرآن، وهو الذي من خالفه ضلّ، ومن ابتغى علمه عند غير عليّ هلك. وسائل الشيعة ٢٧: ١٨٦ ب ١٣ من أبواب صفات القاضي ح ٢٩.

٤. انظر: كشف اللثام ٥: ٣٦٩، رياض المسائل

والسيد الخوانساري رحمته الله،^١ والسيد الكلبي رحمته الله،^٢ واحتمله السيد رحمته الله في الرياض.^٣

اختار سيد الأعلام رحمته الله الأول، واستدل له بوجوه ثلاثة:

الأول: إطلاق الروايات المفسرة للجدال بنفس (لا والله، وبلى والله) بحيث يظهر منها أن هذا القول هو بنفسه مصداق للجدال، لا أنه شيء آخر مشتمل على هذا القول، فنفس هذا القول جدال وإن لم تكن خصومة ولا نزاع، كما لو سئل شخص هل سافرت يوم كذا؟ فأجاب: لا والله، أو هل صليت صلاة الليل؟ فقال: بلى والله، أو أن شخصاً مدح آخر عند المحرم، فقال المحرم في مقام التصديق: بلى والله، فهذه الاستعمالات وغيرها الخالي عن النزاع والمخاصمة داخلة تحت الإطلاق، فيكون ذلك من باب الاستعمال الشرعي أو الحقيقة الشرعية، ولا ضير في الالتزام به بعد مساعدة الدليل، وهو إطلاق الروايات.^٤

ويلاحظ عليه أولاً: أن استعمال (لا والله) و(بلى والله) في غير مورد الخصومة والنزاع وإن تكثر،^٥ إلا أنه لما فسّر به الجدال، وأن هذا ذلك، لا أنه فردٌ ل(الجدال) ولو بالحكومة،

١. انظر: جامع المدارك ٢: ٤٠٥.

٢. انظر: تقرير الحج، تقرير بحث السيد الكلبي رحمته الله، بقلم الشيخ محمد هادي المقدس النجفي ١:

١٩٦، كتاب الحج، تقرير بحث السيد الكلبي رحمته الله، بقلم الشيخ أحمد صابري الهمداني ٢: ١٤١.

٣. انظر: رياض المسائل ٦: ٣١٣.

٤. انظر: مستند الناسك في شرح المناسك، تقرير بحث الإمام الخوئي رحمته الله بقلم الشهيد الشيخ مرتضى البروجردي رحمته الله ١: ١٧٦، الواضح في شرح العروة الوثقى، تقرير بحث الإمام الخوئي رحمته الله بقلم الشيخ محمد الجواهري (سلمه الله) ٣: ٣٣٥، المعتمد في شرح المناسك ١ = موسوعة الإمام الخوئي رحمته الله ٢٨: ٤٣٤.

٥. انظر: وسائل الشريعة ٣: ٣٣١ ك. الطهارة ب ١٨ من أبواب الأغمسال المسنونة ح ١، الوسائل ١٢:

٢٩٦ ك. الحج ب ١٥٧ من أبواب أحكام العشرة ح ٧، الوسائل ١٥: ٤٦، ٥١ ك. الجهاد

ب ١٢، ١٣ من أبواب جهاد العدو ح ٢، ٤، ٣٥١ ب ٥٠ من أبواب جهاد النفس ح ٩، الكافي

(الروضة) ٨: ٢٦٨ / ٣٩٥.

ولا يكاد يصحّ إطلاق لفظ الجدال عرفاً على (لا والله) و(بلى والله) في غير مورد الخصومة والنزاع، ويكون استعمال الجدال فيه غلطاً؛ إذ لا مناسبة عرفية ليكون الاستعمال مجازياً،^١ فلا بدّ لدى استعمال أحدهما من المحافظة على حيثية الخصومة في لفظ (الجدال) ولو بحسب المورد بأن يكون مورد نزاع وخصومة؛ ليكون فرداً لـ (الجدال)، فالشارع إنّما تصرف في لفظ (الجدال) الموضوع لمطلق المنازعة والخصومة فاستعمله في حصّة منها، وهي المنازعة حيث تؤكد بـ (لا والله) أو (بلى والله)، أو نقله إليها من باب الحقيقة الشرعية، لا أنّه أستعمل لفظ (الجدال) في غير ما وضع له فضلاً عن نقله إليه.

وهذا على وزن ما ذكرناه في الروايات التي فسّرت (الزور) في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾^٢ بالغناء،^٣ وكذا (قول الزور) في قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^٤،^٥ و(اللغو) في قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^٦،^٧ و(هو الحديث) في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾^٨،^٩ فإنّ التغيّي بالقرآن مثلاً

١. ومنه تعرف الجواب عما ذكره ابن زهرة رحمته الله حيث قال: «وقول المخالف: ليس في لغة العرب أنّ الجدال هو اليمين ليس بشيء؛ لأنّه غير ممتنع أن يقتضي العرف الشرعيّ ما ليس في الوضع اللغويّ، كما يقوله في لفظة (غائط)» - غنية النزوع: ١٦٠ -؛ فإنّ استعمال لفظة (الغائط) - الموضوعه للمنخفض من الأرض الذي يقصده مريد التخليّ - وإرادة الفضلة التي يتخلّى منها، استعمال مجازيّ تصحّحه المناسبة، وهو تسمية الحال باسم المحلّ، بخلاف مقامنا.

٢. سورة الفرقان: ٧٢.

٣. وسائل الشيعة ١٧: ٣٠٤ ك. التجارة ب ٩٩ من أبواب ما يكتسب به ح ٣، ٥.

٤. سورة الحجّ: ٣٠.

٥. وسائل الشيعة ١٧: ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٠ ب ٩٩ من أبواب ما يكتسب به ح ٢، ٨، ٩، ٢٠، ٢٦.

٦. سورة الفرقان: ٧٢.

٧. وسائل الشيعة ١٧: ٣٠٨ ب ٩٩ من أبواب ما يكتسب به ح ١٩.

٨. سورة لقمان: ٦.

٩. وسائل الشيعة ١٧: ٣٠٤ ك. التجارة ب ٩٩ من أبواب ما يكتسب به ح ٦، ١١، ١٦.

وإن صحَّ أن يقال عليه: (لغو) أو (هو)، ولكن لا يقال عليه: (قول الزور) أو (هو) الحديث) عرفاً، فلا يسعنا والحال هذه أن نستشهد لحرمة الغناء وإن كانت مادته وكلماته حقاً بهذه الآيات، فإنّه لا يستفاد منها بعد تفسيرها بالغناء في الروايات إلا إرادة ما اشتمل منه على مادة باطلة.

وبالجمله فلا يصحّ إغفال المفسّر وتعطيل ما يحمله من دلالة وهو الجدل والغناء مثلاً، والانصراف إلى التفسير وحسب.

وثانياً: ما لفت إليه أحد الأعاظم رحمته من أن احتفاف الروايات بما يصلح للقريّة - وهو كونها تفسيراً للآية - مانع من انعقاد إطلاق للحلف فيها، ولو لم يكن مؤكداً لخصومة ونزاع؛ فإنّه يشترط عدم وجود ما يصلح للقريّة في الأخذ بالإطلاق في كلّ مقام، ومع وجوده لا يصحّ التمسك بالإطلاق؛ لعدم تمامية مقدمات الحكمة^١.

ومّا تقدّم يعرف الجواب عن الوجه الثاني الذي استدللّ به سيّد الأعاظم رحمته لكون المحرّم مجرد قول: (لا والله) و(بلى والله) - وهو صحيحة معاوية بن عمّار المتقدمة^٢، وصحيحة أبي بصير (عن أبي عبد الله عليه السلام) قال: إذا حلف الرجل ثلاثة أيّمان وهو صادق وهو محرم فعليه دم يهريقه، وإذا حلف يميناً واحدة كاذباً فقد جادل فعليه دم يهريقه^٣، فقد استفاد منها أن موضوع الحكم إنّما هو نفس الحلف لا المخاصمة المشتملة على الحلف، فلا خصوصية لها بوجه^٤.

الوجه الثالث: صحيحة أبي بصير يعني ليث بن البختريّ قال: سألته (سألت أبا عبد الله عليه السلام) عن المحرم يريد أن يعمل العمل فيقول له صاحبه: والله لا تعمله،

١. انظر: كتاب الحجّ ٢: ١٤٢.

٢. وسائل الشيعة ١٣: ١٤٦ ب ١ من أبواب بقیة كفّارات الإحرام ح ٣.

٣. وسائل الشيعة ١٣: ١٤٧ ب ١ من أبواب بقیة كفّارات الإحرام ح ٧.

٤. انظر: مستند الناسك ١: ١٧٦، الواضح ٣: ٣٣٥، المعتمد في شرح المناسك ١ = الموسوعة ٢٨: ٤٣٥.

فيقول: والله لأعملنّه، فيخالفه (فيخالفه) مراراً، يلزمه ما يلزم (صاحب) الجدل؟ قال: لا؛ إنّما أراد بهذا إكرام أخيه، إنّما كان ذلك ما كان (إنّما ذلك ما كان الله) فيه معصية،^١ بدعوى وضوح دلالتها على أنّ الحكم مترتب على الحلف نفسه من غير دخل للمخاصمة، ولو كانت معتبرة لكان الأنسب أن يعلّل عدم ثبوت الكفّارة مثلاً بانتفاء الموضوع؛ إذ لا خصومة في مفروض السؤال بوجه، لا أن يعلّل الجواب بانتفاء المعصية في حلفه.^٢

ويلاحظ عليه: بأنّه عليه السلام وإن علّل عدم وجوب الكفّارة بانتفاء المعصية في حلفه، لكنّه ابتدأ تعليل عدم وجوبها بـ (إنّما أراد بهذا إكرام أخيه)، وهو تعبير آخر عن انتفاء موضوع الوجوب، وهو الخصومة والنزاع، وأنّ التحالف المتبادل ليس نزاعاً واقعاً ولبّياً، وإن كان كذلك بحسب الصورة.

فتحصّل: أنّ المحرّم هو قول (لا والله) و(بلى والله) في خصوص مورد النزاع والمخاصمة، وأنّ الجدل المحرّم هو المنازعة والمخاصمة المؤكّدة بـ (لا والله) أو (بلى والله)، هذا.

وقال في كشف اللثام: والجدال في العرف: الخصومة، وهذه خصومة متأكّدة باليمين، والأصل البراءة من غيرها، وكأنّه لا خلاف عندنا في اختصاص الحرمة بها، وحكى السيّدان الإجماع عليه.^٣

وقد اتخذ في الرياض من الإجماع المحكي عن المرتضى عليه السلام قرينةً على حمل الروايات المفسّرة للجدال بـ (لا والله) و(بلى والله) على الرّد على العامّة في جعلهم الجدل مطلق الخصومة، لا أنّها في رّد على جعله الخصومة المؤكّدة باليمين، وهي التفاتة ذكيّة، ونكتة

١. وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٦ ب ٣٢ من أبواب تروك الإحرام ح ٧.

٢. انظر: مستند الناسك ١: ١٧٦، الواضح ٣: ٣٣٥، المعتمد في شرح المناسك ١ = الموسوعة ٢٨: ٤٣٥.

٣. كشف اللثام ٥: ٣٦٩.

سيّالة،^١ قال السيّد عليه السلام في الرياض: ونُقل عن المرتضى الإجماع عليه أيضاً [أي على أنّ الجدل هو الخصومة المؤكّدة باليمين]، وبمثل ذلك يمكن الجواب عن الصحاح المستفيضة وغيرها المفسّرة للجدال بهما بإرادة الردّ بذلك على من جعل الجدل مطلق الخصومة، لا الخصومة المؤكّدة باليمين ولو مطلقها.^٢

ولكنّ الشآن كلّه إثبات الصغرى، ولكنّها ممنوعة؛ فإنّ واضح الانتصار وظاهر الغنية دعواهما الإجماع على أنّ الجدل هو نفس قول: (لا والله) و(بلى والله)، فراجع متدبراً.^٣

الجهة الثانية: في اعتبار اجتماع: (لا والله) و(بلى والله) وعدمه:

مقتضى الجمود على قولهم عليه السلام: (الجدال: قول: لا والله، وبلى والله) اعتبار اجتماع الجملتين.

ولكن لا ينبغي التأمّل فضلاً عن الخلاف في عدم اعتبار اجتماعهما، ويشهد لذلك ما هو ضروريّ من أنّ إحداهما تستعمل في مقام النفي، والأخرى في مقام الإثبات، ومن البيّن عدم اجتماعهما في مورد واحد، فيتحقّق الجدل لا محالة بأحدهما؛ واجتماعهما في مورد واحد، بأن ينفي بـ (لا والله) كلام خصمه، ويثبت بـ (بلى والله)

١ . قال السيّد ابن زهرة - المتوفّى سنة ٥٨٥ هـ - في غنية النزوع: ١٦٠ <يحرم عليه (=المحرّم) الفسوق، وهو عندنا الكذب على الله تعالى، أو على رسوله، أو على أحد الأئمة من آل محمّد (عليهم السلام)>، فلو كان مدّعي الإجماع من القدماء لجعلنا من دعواه الإجماع قرينةً على حمل الروايات - المفسّرة للفسوق بمطلق الكذب - على إرادة الكذب على الله أو على رسوله؛ أو على أحد الأئمة عليهم السلام.

٢ . رياض المسائل: ٦: ٣١٣.

٣ . الانتصار: ٢٤٢، غنية النزوع: ١٦٠.

٤ . انظر: الحقائق الناضرة: ١٥: ٤٦٣، مستند الناسك: ١: ١٧٩، الواضح: ٣: ٣٣٩، المعتمد في شرح

المناسك ١ = الموسوعة: ٢٨: ٤٣٨.

نفس كلامه،^١ وإن كان محتمل الإرادة، ولكنّه بعيد غاية البعد بعد وجود مصبّ واحد للإثبات مشفوعاً بـ (بلى والله) أو النفي مشفوعاً بـ (لا والله).

ويؤيد ذلك لو لم يكن شاهداً تعارف ومعهودية عطف إحداهما على الأخرى بالواو في الاستعمالات مع عدم إرادة خصوصيّة اجتماعهما، فعن أبي قتادة عن الرضاء رضي الله عنه قال: تجديد الوضوء لصلاة العشاء يمحو (لا والله) و (بلى والله)،^٢ وقال محمد بن عليّ بن الحسين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ويل لتجار أمتي من (لا والله) و (بلى الله)». ^٣

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ والصلاة على من لم يرسل ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ محمد الأمين وآله الأطيبين.

١. انظر: تقرير الحج ١: ١٩٦.

٢. وسائل الشيعة ١: ٣٧٧ ب ٨ من أبواب الوضوء ح ٦.

٣. وسائل الشيعة ١٧: ٤٢٠ ب ٢٥ من أبواب عقد البيع ٥.

شروط الذّبح في المذاهب الإسلامية

محمد حسين واثقي راد.^١

ملخص البحث :

الذّبح (أو النحر) هو أحد الأعمال العبادية في الحجّ، ولهذا الذّبح شروطه الخاصّة به، منها ما أجمع عليه المسلمون كافّة. ولا بدّ للذّبح من أن يكون من الأنعام الثلاث المعروفة: الإبل والبقر والغنم (أو الماعز) وأن يُنحر في (منى) في عيد الأضحى وثلاثة أيام بعد العيد. ويُشترط أن يكون الحيوان صحيحاً وسالماً، وهذا موضع اتفاق العلماء، لكن، فيما يتعلّق بماهية العيب وما هو الحدّ المقبول من العيب وما إذا بالإمكان النحر حتى أواخر ذى الحجّة؛ وفي غير (منى). وهل يجوز الاشتراك في الذبيحة أم لا، فثمّة العديد من الاختلافات حول ذلك بين المذاهب الإسلامية. والسبب في ظهور تلك الاختلافات هو الروايات، والاستنباط من آيات القرآن والروايات والاجتهاد والقياس.

الكلمات المفتاحية: الذّبح، الأنعام الثلاثة، الشروط، المذاهب، الحجّ، منى.

١. أستاذ مساعد، جامعة (هنر)، قم.

الكليات :

معنى (الهدي) بفتح الهاء: جاء ذكر (الهدي) في القرآن الكريم وفي الكتب الفقهية، و(الهدي) في اللغة بمعنى الهدية والعطية، وهي كلمة قرآنية في الأصل تُطلق على الهدية التي يأتي بها الحجاج إلى الكعبة أو الحرم المكي في موسم الحج في (منى)، أو تُطلق على القرابين التي تُقدّم في حجّ التمتع. ووردت أحكام الحجّ والقرابين في ثلاث آيات رئيسة في القرآن الكريم: سورة (البقرة)، الآية (١٩٦)، سورة (المائدة)، الآيتين (٢) و(٩٥)، وفي كتب اللغة والفقه وردت تفاصيل كثيرة بشأن القران الذي يُقدّم في أيام الحجّ وعُرّف بالشكل التالي: «كلّ ما يُتقرب به إلى الله، ثم صار عُرفاً اسماً للنسيكة التي هي الذبيحة»^١.

والفرق بين (الهدي) و(البدنة) أنّ الأول بمعنى ما يهدى وفي الشرع يُطلق على الأنعام الثلاثة التي تُهدى للحرم؛ أمّا البدنة فهي ما يُسمن من الإبل لكن مع مرور الزمان أُطلق هذا الاصطلاح على كلّ بعير يُنحر كقران وإن كان غير بدين.^٢ ورغم أنّ (الهدي) بمعنى أيّ قران، إلا أنّ المراد به هنا هو القران الذي يُقدّم في الحجّ.

شروط القران في المذاهب:

يُعدّ تقرب القران أحد أعمال في الحجّ الواجب، وهو واجب في نوعين من أنواع الحجّ الثلاثة إلا إذا كان الشخص غير قادر من الناحية المالية على تقديم القران وعندئذ ينبغي له أن يصوم عشرة أيام بشرطها الخاصة. والمعلوم أنّ القران له شروطه الخاصة

١. المناوي محمد عبدالرؤوف ١٤١٠هـ - ١٤٤٠: ٧٤٠؛ الأزهري المهروي محمد بن أحمد ٢٠٠١م - ١٤٠٢: ١٠٢؛ الزبيدي محمد بن محمد (بدون تاريخ) ٢٩٠: ٤٠؛ ابن منظور محمد ١٤١٤هـ - ٨: ٤٣.

٢. أبو هلال العسكري، بيتا ١: ٣٠٣.

فليس للحاج أن يقدم أي حيوان كقربان وإن غلا ثمنه، فالقربان يجب أن يكون من الإبل أو البقر أو الغنم، وهذه حيوانات يتغذى عليها جميع أفراد البشر وينقلون عليها متاعهم وهي متوفرة في كل مكان. فما من حيوان يمكنه أن يأخذ مكان هذه القرابين وإن كان ثمنه غالياً.

وبصرف النظر عن كون هذه الأنعام الثلاثة تتصف ببعض المحاسن كمنع المنافسة غير الصحيحة أو التنزل إلى حد الحيوانات الرخيصة وكذلك وفرتها جميعاً وقدرة الجميع على شرائها وما إلى ذلك، فقد تكون لهذه الأنعام الثلاثة ميزة لا نعلمها نحن.

وكما ذكرنا فإن لتقريب هذه الأنعام شروط خاصة، فللحاج في بعض ظروف تقديم القربان أن يختار، فيما لا يحق له الاختيار تحت ظروف أخرى ولا بد له من مراعاة الشروط الشرعية.

وقد بيّن الفقهاء الشروط المذكورة تحت ستة عناوين هي: النوع والجنس والسن والجسم والزمان والمكان.

شروط النوع:

أجمع علماء المسلمين على أن يكون القربان واحداً من الأنعام الثلاثة المذكورة، أي الإبل والبقر (بما في ذلك الجاموس) والغنم (بما فيها الماعز) واتفقت جميع المذاهب على أنه ما من شيء مقبول غير هذه ويُعد ذلك من الضروريات ولم يقل أحد بخلاف ذلك.^١

١. الشيخ الطوسي، ١٥١٤٠٧: ٣٨٧ العلامة الحلي ١٤٢٠هـ: ١٦٢٤ و١٤١٣هـ: ٤٤١؛ فاضل

الهندي الأصفهاني ١٤١٦هـ: ٦؛ البحراني، ١٤٠٥هـ: ١٧؛ السيزواري، ١٤٢٣هـ: ١

٣٤٧؛ الفيض الكاشاني، (بدون تاريخ) ١: ٣٥٣ الحائري الطباطبائي ١٤١٨هـ: ٦؛ النزاعي

١٤١٥هـ: ١٢: ٢٩٥.

كراهة الجاموس:

رغم أن الإجماع قائم على أن يكون قربان من الأنعام الثلاثة إلا أن هناك اختلاف طفيف في الرأي بشأن الجاموس وذكر البقر وذكر الإبل، فمن العلماء من اعتبرها غير جائزة ومنهم من قال بكراهتها، ومن الذين لم يجوزوا ذكر البقر وذكر الإبل الشيخ الطوسي وابن حمزة ونجم الدين الحلبي^١.

وقد نُسخَتْ هذه الفتوى بعد الشيخ الطوسي ولم يُفْتِ أحدٌ بها بعده، وقد يكون ما قصده الشيخ الطوسي كذلك هو هذه الكراهة لأن الآخرين قالوا بذلك من بعده^٢. وقال العلامة المجلسي بأنه لم يعثر على حديث يدل على كراهة الجاموس^٣، وأما الفتوى التي تقول بعدم جواز أي حيوان آخر ما عدا هذه الأنعام الثلاثة فتستند إلى الآيتين الشريفتين (١٤٣ و ١٤٤) من سورة (الأنعام)، وجميع الروايات الواردة في باب القربان ومنها رواية معاوية بن عمّار^٤. وقد ذكر الكليني هذه الرواية بأسناد ثلاثة، حيث يتضمّن السند الأوّل إبراهيم بن هاشم الذي لم يُوثّق صراحة^٥، ويتضمّن السند الثاني محمد بن إسماعيل الذي يروي عن الفضل بن شاذان ولم يُوثّق كذلك^٦ وفي السند الثالث يوجد اسم صفوان ومعاوية بن عمّار وقد وثّقا. وروى الشيخ الطوسي

١. الشيخ الطوسي ١٥١٤٠٧: ٣٨٩؛ و١٤٠٠هـ: ٢٥٧. وابن حمزة ١٤٠٨هـ: ١٨٥ والحلي، نجم الدين: ١٥١٤١٢: ٥٢٧.

٢. الحلي، نجم الدين ١٤٠٨هـ: ٢٣٦؛ و١٤١٨هـ: ٩١؛ العلامة الحلي ١٤١٠هـ: ٣٣٣. الشهيد الأول ١٤١٤هـ: ٤٤٢؛ الحلي، جمال الدين ١٤٠٧: ٢٥١٤٠٧؛ الشهيد الثاني ١٤١٤هـ: ٤٤٢؛ الأردبيلي ١٤٠٣هـ: ٧: ٢٩٠.

٣. ١٤٠٦هـ: ٨: ١٥.

٤. الكليني، ١٤٠٧هـ: ٤٩١؛ الشيخ الطوسي، ١٤٠٧هـ: ٥: ٢٠٤.

٥. الأردبيلي، محمد بن علي: ١: ٣٨.

٦. الأردبيلي، ٢: ٦٧.

كذلك في (التهذيب) عن موسى بن قاسم ووثقه،^١ ومعاوية بن عمّار وهي صحيحة ومؤيدة.^٢

ومع أنّ الرواية المذكورة عن معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام تتضمن الأنواع الثلاثة من الأنعام وجاء فيها قوله: «فإن لم تجد فما تيسر عليك!».^٣ إلا أنّ الفقهاء لم يُفسّروا هذه العبارة بغير الأنعام الثلاثة. ويُضاف إلى هذه الرواية أنّ جميع الروايات الواردة بشأن شروط قربان تدلّ على هذا الأمر كما لم يرد فيها أيّ نوع آخر غير تلك الأنواع الثلاثة.

وأفتى مذاهب أهل السنّة أيضاً بذلك وإن لم يصرّح بعضهم بهذا، لكن عند بيان الشروط فإنهم لم يذكروا اسم حيوان غير الأنعام الثلاثة ولم يميزوا تقريب غيرها؛^٤ وهكذا فإنّ أيّ قربان غير هذه الأنعام الثلاثة غير جائز، ويُعدّ ذلك من ضروريّات الحجّ.

الذكورة والأنوثة :

لم يشترط الشّرع شيئاً حول جنسية الأنعام في أن يكون ذكراً أو أنثى وبإمكان الحاجّ اختيار أيّ جنس شاء وإن كان بعضها مُفضّلاً. ومن الطبيعي أن يكون البعير

١. الأردبيلي، ٢: ٢٨٠.

٢. الأردبيلي، ٢: ٢٣٩.

٣. فرض الرواية هو فرض عدم التيسير، وعدم وجدان الوظيفة الاختيارية، (القايني).

٤. المالكي، ابن عسكر (بدون تأريخ) ١: ١٢١ ابن عبد البر (مجمع عليه) ١٩٩٤، ٤: ١٤٢ الحنفي:

الشيخاني (بدون تأريخ) ٢: ٤٩٣؛ قدوري ١٤١٨ هـ ١: ٧٦؛ الجصاص، ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠ م.

٧: ٣٢٣؛ ابن عابدين (بدون تأريخ) ٢: ٦١٤؛ الشافعي: أبو إسحاق الشيرازي: (بدون تأريخ)

١: ٤٣٣؛ زكريا الأنصاري ١٤٢٢ هـ ١: ٥٣٥؛ الشربيني ١٤١٥، ٢: ٥٨٨ ننوى (بدون تأريخ) ١:

٤٦١؛ الماوردي (بدون تأريخ) ١٥: ٨٠؛ الحنبلي الشيباني ١٤٠٥، ٣: ٢٦٢؛ وابن قدامة عبدالله بن

أحمد ١٤١٤ هـ ١: ٥٤٣؛ ابن قدامة المقدسي شمس الدين (بدون تأريخ) ٦: ١٦٥.

هو الأفضل ثم يأتي بعده البقر ثم الغنم ثم الماعز آخرها، والأثنى منها أفضل من الذَّكر.^١

شرط السن:

ينبغي للقربان أن يكون بالغاً من حيث السن فقد ورد في الروايات وكلام الفقهاء كلمة (الثني)،^٢ و(الجدع)،^٣ في هذا الخصوص وأن تكون الإبل والبقر ثنياً ولا يهَم في أن يكون الغنم جذعاً. وقيل أن (الثني) ما كان عمره من الإبل خمس سنوات ودخل في السن السادسة، والبقر والماعز أتما سنة كاملة ودخلا في السنة الثانية ولا مانع في أن يكون الغنم جذعاً. وتختلف الآراء حول من من الغنم يسمّى جذعاً، فقال بعضهم هو من أتم ستة أشهر.^٤ وقيل بل الذي أكمل سبعة أشهر،^٥

ومن الفقهاء من شكك في ذلك وقال: أكمل سبعة أشهر أو ثمانية أو تسعة،^٦ وقال غيرهم بل يكون قد أكمل سنة ومعنى ذلك أنه لا يلزم دخوله في السنة الثانية ويكفي أن يكون في أي سن كانت،^٧ وقال آخرون بشكل مطلق أنه يكفي أن يكون

١. الشيخ الطوسي ١٤٠٠هـ: ٢٥٧.

٢. أي: ما أتم من الإبل خمسة أعوام، ومن البقر ما أتم حولين، ومن الغنم ما أتم حولاً.

٣. وهو من الغنم ما كان عمره أكثر من ستة أشهر.

٤. العلامة الحلي ١٤٢٠هـ: ٦٢٤.

٥. الحلي، نجم الدين ١٤١٨هـ: ٩٠؛ العامل، الشهيد الأول.

٦. العلامة المجلسي ١٤٠٦هـ: ٢٠.

٧. الصدوق، علي بن بابويه (بدون تأريخ): ٩٧ الصدوق محمد بن علي ١٤١٨هـ: ٢٤٣؛

والشيخ المفيد ١٤١٣هـ: ٤١٨؛ والسيد مرتضى ١٣٨٧هـ: ١١٠ وسالار ١٤٠٤هـ: ١١٤؛ الشيخ

الطوسي ١٤٠٧هـ: ٥؛ ٢٠٤؛ القاضي ابن البراج ١٤٠٦هـ: ١؛ ٢٥٧؛ ابن زهرة ١٤١٧هـ: ١٨٩؛

والعلامة الحلي ١٤١٠هـ: ١؛ ٣٣٣؛ الشهيد الأول ١٤١٤هـ: ١؛ ٤٣٨؛ الشهيد الثاني ١٤١٩هـ

٣٩٣؛ الأردبيلي ٧: ٢٧٢.

جذعاً،^١ ويتفق الجميع على أن يكون الغنم جذعاً وقال بعضهم بل ذلك إجماع الأمة.^٢
ولم يذكر الشيخ الطوسي (الجذع) في كتابه (الاقتصاد الهادي، ص ٣٠٧) وقال:
«من الضأن يمشي في سواد وينظر في سواد ويبرك في سواد».

وبالنظر إلى الاختلاف الوارد حول سنّ الجذع فإنّ الدليل يشير إلى أنّ الجذع لا يكون في سنّ مُعيّنة أو خاصّة فلا نقول عنه أنّه بلغ ستّة أشهر أو سبعة أو ثمانية أو تسعة، بل يحصل بالنموّ الكافي.^٣ ولهذا قال بعضهم إنّ الجذع لا يُقاس بالسنّ، أي، أنّه يُراد بالجذع النموّ الكافي الذي يتحقّق بالشروط الممكنة في سنّ ستة أشهر أو سبعة أو أكثر. وقال الشيخ في (المبسوط): إذا كان الخروف مولوداً لأبوين شابين فيكفي أن يكون عمره ستة أشهر أو سبعة، وإذا وُلد من أبوين مُسنّين فلا بدّ أن يكون عمره ثمانية أشهر.^٤
وبالاستناد إلى المطالب المذكورة يمكن الجمع بين الاختلاف في الرأي والقول: أن يكون نموّه كافياً بحيث لا يمكن تمييزه من الخروف الكامل.

ومُستند هذه الفتوى هو الروايات الصحيحة التي صرّحت بذلك ومنها: صحيحة عيص بن قاسم،^٥ وعبد الله بن سنان،^٦ وحامد بن عثمان،^٧ ومحمد بن مسلم،^٨ وأفتى

١. الشهيد الأول (بدون تأريخ): ٢٣٥؛ ابن شجاع القطن ١٤٢٤هـ - ١: ٢٥٢، النجفي، ١٣١٨هـ - ١٥٠.

٢. الطباطبائي الحائري ١٤١٨هـ - ٦: ٤١٢، النراقي ١٤١٥هـ - ١٢: ٣١٠؛ النجفي، ١٤٠٤هـ - ١٩: ١٣٩، كاشف الغطاء ١٤٢٢هـ - ١٦٩.

٣. يمكن تقوم عنوان الجذع بالسنّ لا اشتراطه فلا بد من الفحص اللغوي المناسب، (القائني).

٤. ١٣٨٧ هـ - ١: ٣٨٨ والفاضل الهندي ١٤١٦ هـ - ٦: ١٥٦؛ والبحراني ١٤٠٥ هـ - ١٢: ٦٧؛ النراقي ١٤١٥ هـ - ١٢: ٣١٠؛ النجفي ١٤٠٤ هـ - ١٩: ١٣٩؛ وورد في كتب المعاجم كذلك: ابن منظور ١٤١٤ هـ - ٨: ٤٤.

٥. الشيخ الطوسي، ٢٠٦: ٥، ٦٨٨-٢٧؛ العاملي ١٤٠٩ هـ - ١٤: ٩٨، ١٨٦٨٥-٢.

٦. الشيخ الطوسي، ٢٠٦: ٥، ٦٨٩-٢٨.

٧. الشيخ الطوسي، ٢٠٦: ٥، ٦٩٠-٢٩.

٨. الشيخ الطوسي، ٢٠٥: ٥، ٦٨٦-٢٥.

مذاهب أهل السنة بذلك أيضاً واتفقت آراؤهم حوله.

وأما البقر والغنم والإبل فلا بدّ أن تكون (ثنياً) أي، أن يكون عُمر الخروف سنة كاملة والبقر سنتين والإبل خمس سنوات كاملة؛ ويكفي (الجدع) من الغنم. وحول ماهية الخروف الجدع فهناك اختلاف في الرأي فمنهم من قال بأن يكون بديناً ومنهم من قال بأن يكون عُمره ستة أشهر أو ثمانية أو عشرة. فقال مالك: لا بدّ أن يكون ثنياً ويكفي أن يكون بديناً إذا كان جذعاً،^١ وقال أبو زيد القيرواني: الجدع أن يكون عُمره سنة واحدة أو عشرة أشهر أو ثمانية أشهر،^٢ وقال القرافي: لا بدّ أن يكون ثنياً إلا إذا كان من الغنم فيكفي أن يكون عُمره ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو سنة واحدة،^٣ وقال الشيباني: أن يكون ثنياً إلا إذا كان من الغنم (وهو الجدع) فإذا كان بديناً كان ذلك كافياً،^٤ وقال السرخسي: إلا الجدع من الضأن إذا كان عظيماً،^٥ وقال بدر الدين العيني: والجدع من الضأن ما طعن في الشهر السابع.^٦

والحاصل من آراء الشيعة وأهل السنة هو أن الضأن إذا بلغ الحد الكافي من النمو بحيث لم يمكن تشخيصه عن الخروف الكامل يكون كافياً وإن لم يبلغ سنة.

١. ١٤١٣هـ - ٢١٤.

٢. بدون تأريخ ١: ٧٨.

٣. ١٩٩٤، ٤: ١٤٤.

٤. بدون تأريخ ٢: ٤٩٣؛ قدوري ١٤١٨هـ - ٧٦؛ الجصاص، ١٤٣١هـ - ٧: ٣٢٣.

٥. ١٤١٤هـ - ٤: ١٤٢.

٦. ١٤٢٠هـ - ٤: ٤٨٣. ابن نجيم زين الدين (بدون تأريخ) ٣: ٧٥؛ ابن نجيم سراج الدين ١٤٢٢هـ -

١٥٨: ٢؛ ابن عابدين، ١٤١٢هـ - ٢: ٦١٤؛ الشافعي ١٤١٠هـ - ٢: ٢٤٥؛ أبو إسحاق الشيرازي:

بدون تأريخ ١: ٤٣٣؛ زكريا الأنصاري ١٤٢٦هـ - ١: ٥٣٥؛ الشربيني ١٤١٥ - ٢: ٥٨٨؛

المواردي ١٤١٩هـ - ١٥: ٨٠؛ الحنبلي: ابن قدامة أحمد ٤١٠هـ - ٣: ١٤٠٥ - ٥٧٤ - ٥٩٥؛ ابن مفلح ١٤١٨هـ -

٣: ٢٥٠؛ حجاوي المقدسي، بدون تأريخ ١: ٤٠١ - ٤٠٩.

سلامة الجسم وتام الخلقة:

ومن شروط القربان الأخرى أن يكون سليم الجسم لكي تكون له قيمة مالية كافية وأن لا يقرب أحدهم قرباناً مما لا يحتاجه أو لا قيمة تُذكر له. يُضاف إلى ذلك فإن تقريب قربان مُعاب يُعدّ إهانة للحجّ كلّه وقد قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^١. وفي المجامع الفقهية الشيعية فإنّ هناك أمرين مهمّين لا بدّ من الاهتمام بهما:

١- أن لا يكون القربان مشوّهاً أو ناقص الخلقة، وأن يكون تامّ الجسم والأعضاء منذ ولادته، وأن لا يكون مُصاباً بأيّ عيب أو تشوّه.

وقال بعض الفقهاء فيما يخصّ القربان: أن لا يكون مشوّهاً منذ الولادة،^٢ بينما أورد آخرون القيد مع الاختيار،^٣ ووفق هذا الرأي، إذا لم يكن القربان تامّ الجسم أو تعذّر شراؤه، فإنّ القربان المشوّه يكفي. وأمّا كون هذه الفتوى مطلقة، أي أنّها تشمل جميع العيوب أو أنّ هناك استثناءات مُعيّنة، فليس واضحاً، لكنّ ظاهرها يوحي إلى أنّه في حال الاضطرار فإنّه يمكن تجاوز أيّ عيب في القربان، إلّا أنّ الاضطرار لا يكون إلّا إذا كان القربان التام الخلقة شحيحاً أو تعذّر شراؤه.

وهذا الشرط يشمل جميع العيوب منذ الولادة، وهو شرط علمي ولا يشمل سوى العيوب الظاهرة.

ووضع بعض الفقهاء هذا الشرط تحت عنوان (أن يكون تامّاً) والمقصود به (تامّ

١. سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

٢. الشيخ الطوسي، ١٤١١هـ - ٧٠٢: القاضي ابن البراج، ١٤٠٦هـ - ٢٥٨: ابن حمزة، ١٤٠٨هـ - ١٨١: ابن إدريس، ١٤١٠هـ - ٥٩٨: ويجي بن سعيد، الحلي، ١٤٠٥هـ - ٢١١: الشهيد الأول، ١٤١٠هـ - ٧٤: بدون تأريخ، ٢٣٥: الكركي، ١٤٠٩هـ - ١٦٠: الشهيد الثاني، ١٤٢٢هـ - ٢٦٠.

٣. ابن زهرة: ١٨٩، الكيدري: ١٦٣ السبزواري: ٢١٧.

الخلقة) فقد بحثوا في هذا الموضوع بشكل مستقل عن العيوب الطارئة،^١ وبالتالي فإن هناك إجماع حول ضرورة أن يكون القربان كاملاً منذ الولادة.

٢- سلامة الجسم وخلوّه من العيوب: وأمّا الشرط الآخر فهو عدم وجود أيّ عيب في القربان، وبالطّبع فإنّ المقصود بذلك هو العيوب التي طرأت عليه فيما بعد كالعمى والعرج والضعف الظاهري أو يكون مُبْتَك الأذن أو مكسور القَرْن أو خصياً أو مقطوع الذّيل أو مسنّاً أو مريضاً وما شابه ذلك، وهناك إجماع بين الفقهاء في هذا الخصوص، وإن كان بعضهم ذكر مصاديق لذلك ومنهم مَنْ لم يذكر أيّ مصاديق له، وثمّة اختلاف طفيف حول المصاديق وشدّتها وضعفها؛ فقد ذكر الشيخ الطوسي الموارد التالية: أن لا يكون مثقوب الأذن أو مكسور القَرْن أو مريضاً أو أعرجاً أو أعمى، وذكر آخرون هذه العيوب أيضاً، والشاهد على هذه الشروط رواية عن النبي الأعظم ﷺ وإن كان هناك اختلاف طفيف في النّقل.^٢

وأما أن لا يكون هناك أيّ عيب في القربان فمحلّ إجماع، فوفق البحوث والتحقيقات التي أجريت حتى الآن فإنّ جميع الفقهاء أفتوا بذلك ولا خلاف بينهم عليه.^٣ ورغم أنّه لا خلاف حول الكلّيات لكن ثمّة خلاف في الجزئيات حول كون العيب قابلاً للتشكيك، فقد قيّدوا الأعور والأعرج، أي، لا بدّ أن يكون ظاهراً، ولا إشكال فيما إذا كان بشكل جزئيّ وغير قابل للمشاهدة.

١. الحليّ نجم الدين، ١: ٢٣٦؛ العلامة الحليّ ١: ٣٣٣ وكتبها الأخرى؛ الشهيد الأول ١: ٤٣٧؛ الحليّ جمال الدين، ٢: ١٩٦؛ الشهيد الثاني ٢: ٢٩٩، ٣٩٤؛ الأردبيلي ٧: ٢٧٥؛ العاملي الموسوي ٨: ٣٠؛ البحراني ١٧: ٩١؛ النجفي ١٩: ١٣٩.

٢. الشيخ الطوسي ١٣٨٧ هـ ١: ٣٨٧؛ الصدوق ١٤١٥ هـ ٢: ٤؛ الكليني ١٤٠٧ هـ ٤: ٤٩١ و٤: ٦٩٦.

٣. الشيخ الطوسي ١٤١١ هـ ٢: ٧٠١؛ القاضي ابن البراج ١٤٠٦ هـ ١: ٢٥٧؛ وسائر الفقهاء حتى النجفي ١٤٠٤ هـ ١٩: ١٤٠.

ولا خلاف كذلك بين مذاهب أهل السنة حول هذه الكليات وأن لا يكون في القربان أي عيب واعتبروا معيار العيب النقص في الوزن، أي، لا ينقص شيء من لحم الحيوان، أو كان سبباً في ضعفه. وأمّا الفرق بين نظرة الشيعة وأهل السنة فإنّ الشيعة لا يرون أنّ عدم وجود العيب يعني مجرد وجود النقص في وزن الحيوان بل معناه اكتمال الموضوعية فيما يرى أهل السنة أنّه لا ضرورة لاكتمال الموضوعية وأنّ المعيار هو النقص في الوزن.

وقال مالك والشيبياني: أن لا يكون الحيوان ناقص الحلقة،^١ وقال ابن عساكر: أن لا تكون فيه عيوباً فاحشة،^٢ وقال القرافي مثلما قال مالك والشيبياني.^٣ ورغم الإجماع على الكليات إلا أنّ هناك بعض الاختلافات في المصاديق والموارد الجزئية، وسوف نتناول ذلك فيما يأتي.

الضعف :

لا خلاف حول ضرورة أن لا يكون الغنم ضعيفاً، لكن، أيّ الأغنام يُعتبر ضعيفاً، ففي ذلك بعض الخلاف في النظر. فمن الفقهاء مَنْ عرّف (الضعف) قائلاً: أن لا تحتوي كليته أيّ دهن (إلية)،^٤ ولمّا كان الضعف قابلاً للتشكيك ويصعب تشخيصه لذا فقد ذكر الشيخ الطوسي وغيره المعيار لذلك وهو الضعف الشديد، وقال آخرون

١. ١٤١٣هـ - ١: ٢١٤ ابن أبي زيد، بدون تأريخ ١: ٧٨.

٢. ١٢١: ١.

٣. ١٩٩٤: ٤؛ ٢٤٤؛ الحنفي: بدر الدين العيني ١٤٢٠هـ - ٤: ٤٨٣؛ الشافعي ١٤١٠هـ - ٢: ٢٤٥؛ زكريا الأنصاري ١٤٢٢هـ - ١: ٥٣٥؛ الشريبي ١٤١٥هـ - ٢: ٥٨٨؛ النووي ١٤٢٥هـ - ٤: ٤٦١؛ الماوردي

١٤١٩: ١٥؛ ٨٠؛ الحنبلي: ابن قدامة عبدالرحمن أبو الفرج (بدون تأريخ) ١: ٣٤؛ ابن مفلح محمد بن مفلح (بدون تأريخ) ٦: ١٦٢ إلى ١٧٠.

٤. الشيخ الطوسي، ١٣٨٧هـ - ١: ٣٧٣، ٣٨٩، والفقهاء من بعده حتى النجفي ١٤٠٤هـ - ١٩: ١٤٨.

عجز الحروف عن الرعي مع سائر الأغنام.^١

الشرط الواقعي (أو العلمي):

تُعتبر بعض الشروط شرطاً واقعية، والشرط الواقعي هو ذلك الشرط الذي إذا كُشف خلافه لم يكن كافياً، كأن يُقدّم حيواناً آخر بدل الأنعام الثلاثة بسبب الاشتباه والخطأ، وعندئذ لا بدّ من تقديم قربان آخر. وهناك شروط تُعتبر شرطاً علمية، أي، التأكد أولاً من وجود الشروط المطلوبة ثم اكتشاف خلاف ذلك، وفي هذه الحالة يكون القربان كافياً وإن كان الوقت الذي تمّ فيه كشف الخلاف موضع بحث وتأمل. فالسمنة هي شرط علمي، ولا يشترط أن يكون الحيوان بديناً بالفعل، ولهذا، فإذا اشترى أحدهم القربان وكان متأكداً من أنه بدين ثم تبين له بعد ذلك أنه ضعيف، كان ذلك كافياً، وإذا كان قد اشتراه بنية الضعف وكان ضعيفاً بالفعل فلا يكون كافياً، وإذا اشتراه بنية الضعف فتبين أنه بدين كان ذلك كافياً.

وأما ما يتعلّق بالعيوب الأخرى فقال بعض الفقهاء: إذا اشترى أحدهم الحيوان ثم تبين أن فيه عيب ما، لم يكن ذلك كافياً، ولم يختلف الفقهاء في أصل هذه الفتوى على ما نعلم.^٢

ورغم أن العديد من الفقهاء لم يبحثوا في الخلاف حول ما قبل الذبح أو بعده لكنّ الظاهر هو أنه إذا تبين (العيب) قبل الذبح فلا يكون كافياً إلا إذا تعذّر تبديله أو كان في ذلك ما يكفي من العسر والحرّج، أمّا إذا كُشف (العيب) بعد الذبح كان ذلك كافياً،

١. ابن حمزة الطوسي ١٤٠٨ هـ: ١٨٥؛ والكركي ١٤١٤ هـ: ٣؛ ٢٤٤ و ١٤٠٩ هـ: ٢؛ ١٦٠ والشهيد الثاني، ١٤١٣ هـ: ٢؛ ٢٩٨؛ الطباطبائي الحائري، ١٤١٨ هـ: ٦؛ ٤١١.

٢. الشيخ الطوسي ١٤٠٠ هـ ق: /٢٥٧؛ ابن أبي عقيل (بدون تأريخ): /١٠٣؛... الشهيد الثاني ١٤٢٢ هـ ق: /٧٦ وقد أورد في (شرح اللمعة) صور هذه المسألة وهي ثمانية أقسام ١٤١٠ هـ ق: /٢؛ ٢٩٠؛ ٩؛ العامل الموسوي (يختلف ما إذا كان قبل الذبح أو بعده) ١٤١١ هـ ق: /٨؛ ٣٥؛ النجفي ١٤٠٤ هـ ق: /١٩؛ ١٤٩.

كما قالوا: أجزأت! فيما قال آخرون - ومنهم الشهيد الثاني: «أما قبله فلا، أما المعيبة فلا تجزئ مطلقاً»^١. ويتضح من كلام الشهيد الثاني أن العيب شرط واقعي.

الضعف والاضطرار: قال بعض الفقهاء: إذا لم يكن بمقدور الشخص شراء قربان بهذه الأوصاف يكفي الضعيف منه،^٢ وأما مُستند هذه الفتوى فهو الروايات التالية: عيص بن قاسم عن الإمام الصادق عليه السلام،^٣ ومنصور عن الإمام الصادق عليه السلام،^٤ ومعاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام،^٥ والحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام،^٦ ورواية أخرى عن الإمام علي عليه السلام،^٧ ومحمد بن مسلم عن أحدهما،^٨ وسيف بن منصور عن الإمام الصادق عليه السلام.^٩

ولم تجوز مذاهب أهل السنة كذلك الضعيف من الحيوان لكنهم يعرفون الحيوان الضعيف تعريفاً آخر، فمن المالكية من قال: أن يكون الحيوان عاجزاً عن الرعي مع سائر الأغنام، وقال آخرون: أن يكون ذلك ظاهراً. وقال الشيباني: إذا كان الحيوان عاجزاً عن الرعي فلا يجوز نحره،^{١٠} وقال القرافي: أن لا يكون

١. ١٤٢٢ هـ ق: / ٧٦؛ و١٤١٤ هـ ق: / ١ / ٤٣٩.

٢. الشيخ الطوسي ١٤٠٠ هـ ق: ٢٥٧؛ ابن أبي عقيل (بدون تأريخ): / ١٠٣؛ القاضي ابن البراج ١٤٠٦ هـ: / ١ / ٢٥٨؛ الشهيد الأول ١٤١٧: / ١ / ٤٣٨.

٣. الكليني، ١٤٠٧ هـ ق: / ٤ / ٤٩٢؛ فضيل؛ الكليني، ١٤٠٧ هـ ق: / ٤ / ٤٩٢؛ ياسين الضرير؛ الحرّ العاملي ١٤٠٩ هـ ق: / ١٤ / ١١٣.

٤. الشيخ الطوسي، ١٤٠٧ هـ ق: / ٥ / ٢١١.

٥. الشيخ الطوسي ١٤٠٧ هـ ق: / ٥ / ٢١٢.

٦. الكليني ١٤٠٧ هـ: ٤٨٩.

٧. الصدوق ١٤١٣ هـ: ٤٩٨.

٨. الحرّ العاملي ١٤٠٩ هـ: ١٤ / ١١٣.

٩. المصدر السابق.

١٠. ١٤١٣ هـ: ١٤ / ٢١٤؛ ابن أبي زيد، بدون تأريخ: ١ / ٧٨؛ ابن عسكر عبدالرحمن (بدون تأريخ): ١ / ١٢١.

الحيوان ضعيفاً في الظاهر^١.

وقال أصحاب المذهب الحنفي: أن يكون واضحاً وبديناً^٢، وقال ابن مودود: «ولا العجفاء التي لا تنقى»^٣، وفسر آخرون الضعيف بقولهم: «لا مُخَّ فيها»^٤.
لا بدّ من القول هنا إنّ هذا التفسير غير قابل للرؤية، وبالتالي فإنّ الحجّاج سيقعون في العديد من المشاكل وقد لا يكون الخير بذلك موجوداً في (منى)، فيكون هذا المعيار في الفتوى غير قابل للتطبيق.
ويبدو أنّ الضعف هو أمرٌ عرقيٌّ بحيث يمكن لأيّ شخص تحديده ومن آثاره أن لا يكون الخروف نشيطاً وقد يكون السبب هو المرض أو غيره، وإن كان الفقهاء قد خاضوا في مسألة المرض بشكل مستقلّ.

المكسور القرن:

فيما يتعلّق بموضوع القرن فنّمّة حالات ثلاث: أنّ الحيوان الذي كان ينبغي أن يكون له قرن لا يملك قرناً في أصل خلقته؛ أن يكون قرنه الداخلي والأصلي مكسورين؛ أن يكون الغلاف الخارجي للقرن مكسوراً. فأما ما لم يكن له قرن أو كان غلاف قرنه مكسوراً في أصل خلقته، فالجميع متفقون على ما نعلم بأنّه لا إشكال في ذلك،^٥

١. ١٩٩٤م ٤: ١٤٤.

٢. الميداني (بدون تاريخ): ١: ٢٢٢.

٣. ١٤٢٦هـ - ١: ١٨٦؛ زكريا الأنصاري ١٤٢٢هـ - ١: ٥٤٩-٥٣٢؛ الشربيني ١٤١٥هـ - ٢: ٥٨٨؛

النووي ١٤٢٥هـ - ١: ٤٦١؛ الشافعي: البغوي ١٤١٨، ٨: ٤٢؛ الحنبلي: ابن مفلح الراميني، ١٤٢٤هـ

٦: ١٦٢ إلى ١٧٠.

٤. حجاوى المقدسي، الإقناع، ١: ٤٠٩-٤٠١؛ ١: ٩٥؛ العمدة (بدون تاريخ): ١: ٢٠٦.

العثيمين، ١٤٢٢-١٤٢٨هـ - ٧: ٤٣٩؛ ابن مفلح إبراهيم بن محمد، المقنع ١٤١٨، ٣: ٢٥٠.

٥. الشيخ الطوسي ١٣٨٧هـ - ١: ٣٨٨؛ وسائر فقهاء الشيعة حتى النجفي ١٤٠٤هـ - ١٩: ١٤١.

وَمُسْتَنْدَ هَذِهِ الْفَتْوَى رِوَايَةُ جَمِيلِ بْنِ دِرَاجٍ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام،^١
 وَثَمَّةٌ خِلَافَ بَيْنِ مَذَاهِبِ أَوْلَادِ الْعَامَّةِ حَوْلَ هَذَا، فَالْمَالِكِيَّةُ تَقُولُ: إِذَا كَانَ قَرْنُهُ
 مَكْسُورًا وَيَنْزِفُ دَمًا فَفِي ذَلِكَ إِشْكَالٌ، أَمَّا إِذَا كَانَ قَدْ شُفِيَ مِنْ ذَلِكَ فَلَا إِشْكَالَ
 فِيهِ. ٢.

وَأَمَّا الْحَنْفِيَّةُ فَقَالُوا بِشَكْلِ مُطْلَقٍ أَنَّهُ لَا إِشْكَالَ فِي ذَلِكَ لِأَنَّ الْقَرْنَ لَا يُوَكَّلُ،^٣ وَقَالَ
 الشَّافِعِيُّ أَنَّهُ لَا إِشْكَالَ إِذَا كَانَ الْحَيَوَانَ مَكْسُورَ الْقَرْنِ سِوَاءَ أَكَانَ يَنْزِفُ أَوْ لَا يَنْزِفُ،
 وَسِوَاءَ أَكَانَ شُفِيَ أَمْ لَمْ يُشْفَ،^٤ وَأَمَّا فَهَاءُ الْخَنَابِلَةِ فَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:
 إِذَا كَانَ مُعْظَمُ الْقَرْنِ مَكْسُورًا فَفِي ذَلِكَ إِشْكَالٌ، وَقَالَ ابْنُ قَدَامَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ
 إِنَّهُ لَا إِشْكَالَ فِيهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قَرْنٌ،^٥ وَقَالَ ابْنُ مَفْلَحٍ إِبْرَاهِيمَ: إِذَا كَانَ مُعْظَمُ الْقَرْنِ
 مَكْسُورًا حَتَّى الْغُلَافُ الْخَارِجِيُّ فِيهِ إِشْكَالٌ.^٦

العَرَجُ:

قَيَّدَ الْفُقَهَاءُ (العَرَجُ) مَا بَيْنَ (البَيِّنِ) وَ(الوَاضِحِ)، وَهَذَا مَا وَرَدَ فِي الرِّوَايَاتِ أَيْضًا،
 وَقَيَّدَ جَمِيعُ الْفُقَهَاءِ أَنْ يَكُونَ البَيِّنُ وَالوَاضِحُ قَدْ بَلَغَ حَدًّا لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِ الْحَيَوَانَ الرَّعِي

١. الصدوق، ١٤١٣هـ: ٢: ٤٩٧؛ الشيخ الطوسي، ١٤٠٧هـ: ٥: ٢١٣؛ الكليني، ١٤٠٧هـ: ٤: ٤٩١.

٢. مالك: المدونة ١٤١٥هـ: ١: ٥٤٦؛ ابن أبي زيد (بدون تأريخ) ١: ٧٨؛ ابن عبد البر ١٤٠٠هـ: ١: ٤٢٠.
 ابن عسكرو عبد الرحمن (بدون تأريخ) ١: ١٢١ القرافي ١٩٩٤م: ٤: ١٤٤.

٣. الحنفي: الشيباني (بدون تأريخ) ٢: ٤٩٣؛ السرخسي ١٤٢١هـ: ٤: ١٤٢.

٤. الشافعي ١٤١٠هـ: ٢: ٢٤٥؛ أبو إسحاق الشيرازي (مكروه) بدون تأريخ: ١: ٤٣٣؛ زكريا
 الأنصاري ١: ٥٣٢-٥٤٩؛ الشربيني ١٤١٥هـ: ٢: ٥٨٨ النووي ١٤٢٥هـ: ١: ٤٦١؛ البلقيني: (إذا
 كان القرن المكسور يؤثر في اللحم وقتلته ففيه إشكال) ٤: ٢٦٥؛ الماوردي ١٥: ٨٠.

٥. ٣: ٥٧٤-٥٩٥؛ ابن قدامة عبد الرحمن (بدون تأريخ) ١: ٣٤.

٦. ٣: ٢٥٠؛ والحجاوي المقدسي (بدون تأريخ) ١: ٤٠٩-٤٠١ و (بدون تأريخ) ١: ٩٥.

مع سائر الأغنام.^١ وقال المالكية: إنَّ معيار العرج هو أن لا يكون الحيوان قادراً على المشي على رجلَيْه، وقال غيرهم أن يكون بالغاً وفاحشاً وظاهراً،^٢ وقال الشافعية أيضاً أن لا يكون قادراً على الرعي مع سائر الأغنام.^٣

العمى :

يُعتبر العمى من العيوب التشكيكية التي تبلغ نسبتها من واحد إلى مئة في المئة، ولهذا قيّدوا ذلك بالوضوح، أي، المشاهدة، بحيث يُلاحَظ ذلك بالعين أو أن تُرى علائمه وآثاره من خلال المشي والرعي؛ وقد أجمع الفقهاء على ذلك على ما نعلم،^٤ ومستند هذه الفتوى هو إحدى الروايات.^٥

واتَّفَق علماء أهل السنة كذلك على أصل العمى أو ضعف البصر، لكنهم اختلفوا في شدة البصر وضعفه وملاك ذلك، فمن المالكية مَنْ عبّر عن ذلك بالنصف وقال آخرون: بل إذا كان ضعيفاً، ومنهم مَنْ قال: لا إشكال إذا لم يكن ذلك بيناً. وقالوا: إذا

١. الشيخ الطوسي ١٤١١هـ: ٧٠١؛ القاضي ابن البراج: ٢٥٧؛ ابن حمزة: ١٨٣؛ ابن زهرة ١٤١٧هـ: ١٩١؛ ابن إدريس ١٤١٠هـ: ١؛ ٥٩٦؛ الكيدري ١٤١٦هـ: ١٦٢؛ الحلبي نجم الدين ١٤٠٨هـ: ١؛ ٢٣٥؛ الحلبي يحيى بن سعيد ١٤٠٥هـ: ٢١١؛ فاضل أبي ١٤١٧هـ: ١؛ ٣٦٧؛ العلامة الحلبي ١٤١٠هـ: ١؛ ٣٣٢؛ وكتبها الأخرى إلى النجفي ١٤٠٤هـ: ١٩؛ ١٤٠.

٢. مالك: ١٤١٣هـ: ١؛ ٢١٤؛ ١٤١٥هـ: ١؛ ٢١٤؛ ابن عبد البر: ٤٢١؛ ابن أبي زيد (بدون تأريخ): ١؛ ٧٨؛ ابن عسكر بدون تأريخ: ١؛ ١٢١؛ القرافي (أن يكون ظاهراً): ٤؛ ١٤٤؛ قال الحنفية: لا يمكنه الرعي من الغنم: قدوري ١٤١٨هـ: ١؛ ٧٦؛ السرخسي: لا يمكنه السير إلى محلّ الذبح ١٤١٤هـ: ٤؛ ١٤٢؛ الميداني (بدون تأريخ): ١؛ ٢٢٢؛ ابن مودود الموصل ١٤٢٦هـ: ١؛ ١٨٦.

٣. أبو إسحاق الشيرازي (بدون تأريخ): ١؛ ٤٣٣؛ الماوردي ١٤١٩، ١٥؛ ٨٠؛ ابن قدامة أحمد: ٣؛ ٥٧٤-٥٩٥، وسائر فقهاء الشافعية.

٤. الشيخ الطوسي ١٤١١هـ: ٢؛ ٧٠١؛ القاضي ابن البراج ١٤٠٦هـ: ١؛ ٢٥٧؛ وسائر فقهاء الشيعة إلى النجفي ١٤٠٤هـ: ١٩؛ ١٤١.

٥. الصدوق، ١٤١٣هـ: ٢؛ ٤٩٦.

كان نصف بصره قد ذهب فلا إشكال فيه^١، وقال غيرهم: إذا كان العمى بسيطاً فلا إشكال في ذلك^٢.

وأما الحنفية فالملاك عندهم أن يكون العمى أكثر من الثلث، وقال الشيباني: إذا كان قد ذهب أكثر من ثلث بصر الحيوان فلا يكفي، بينما اعتبر أبو يوسف وذفر أن الملاك هو النصف^٣، وقال السرخسي: إذا كان ضعف بصره أكثر من الثلث ففيه إشكال، وأما ابن شجاع فقد روى عن أبي حنيفة قوله: على أن لا يكون أكثر من الربع^٤. وعرف الشافعية ملاك العمى بالظاهر وقال غيرهم: إذا كانت الحدقة قد تضررت أو ابيضت معظمها ففي ذلك إشكال، ولا إشكال إذا كان ذلك قليلاً^٥.

وقال الحنابلة: إذا كانت عين الحيوان تالفة ففي ذلك إشكال ولكن لا إشكال إذا كان بصره ضعيفاً لأن لحمه لم يتلف، والمعيار هو أن لا تكون الأعضاء القابلة للأكل ناقصة^٦.

فيه ملاحظة، لأنه الفرق بين العمى وضعف البصر.

الخصي:

يُطلق اصطلاح (الخصي) على الحيوان الذكر الذي قُطعت بيضته؛ واتفق الفقهاء

١. مالك: الشيباني، ١٤١٣هـ: ٢١٤.

٢. مالك: سحنون، ١٤١٥هـ، ١: ٥٤٨ ابن أبي زيد (أن يكون بيناً) بدون تأريخ ١: ٧٨؛ ابن عبد البر (لا إشكال فيها إذا كان قليلاً) ١: ٤٢٠ القرافي ٤: ١٤٤.

٣. بدون تأريخ ٢: ٤٩٣؛ قدوري ١٤١٨هـ ١: ٧٦.

٤. ١٤١٤هـ ٤: ١٤٢؛ الميداني (بدون تأريخ) ١: ٢٢٢ ابن مودود الموصل ١٤٢٦، ١: ١٨٦.

٥. أبو إسحاق الشيرازي (بدون تأريخ) ١: ٤٣٣ زكريا الأنصاري ١: ٥٤٩-٥٣٢؛ والشربيني ١٤١٥هـ ٢: ٥٨٨؛ الماوردي ١٥: ٨٠.

٦. ابن قدامة أحمد ٣: ٥٧٤-٥٩٥؛ ابن قدامة المقدسي ٣: ٢٥٠؛ ابن مفلح شمس الدين المقدسي ٦:

١٦٢ إلى ١٧٠.

جميعهم على أنه لا يجوز أن يُقَرَّب مثل هذا الحيوان (ما عدا ابن عقيل الذي اعتبر ذلك مكروهاً)،^١ إلا إذا لم يملك الحاجّ غيره؛ وأمّا الحيوان الذي دُقَّت بيضته فقد اعتُبر مكروهاً وإذا ذُبِح الخصي فإنّه لا يكفي ويجب تقريب قربان آخر غيره إلا إذا لم يملك الحاجّ غيره.^٢

الروايات :

وأما مستند تلك الفتوى فهو الروايات التالية: مُحَمَّد بن مسلم عن أحدهما،^٣ وعبد الرحمن بن الحجاج عن الإمام الكاظم والإمام الصادق عليه السلام،^٤ وأبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام،^٥ وعلاء عن أحدهما،^٦ ومحمد بن نصر.^٧ وثمة اختلاف بين الشيعة وأبناء العامة حول هذا الشرط، فأبناء العامة يُجيزون الخصي والذي دُقَّت بيضته لعدم تأثير ذلك على لحمه بل ربّما زاد ذلك في بدائته.^٨

١. مجموعة الفتاوى، بيتا: ١٠٢ .

٢. الشيخ الطوسي ١٣٨٧هـ: ١؛ ٣٨٨؛ أبي عقيل: ١٠٢؛ القاضي ابن البراج، ١٤٠٦هـ: ١؛ ٢٥٧؛ ابن حمزة: ١٨٥؛ ابن زهرة،: ١٩١؛ ابن إدريس ١٤١٠هـ: ١؛ ٥٩٦؛ وسائر الفقهاء إلى النجفي: ١٩: ١٤٥ .

٣. الشيخ الطوسي، ١٤٠٧هـ: ٥؛ ٢١١ .

٤. المصدر السابق .

٥. الكليني، ١٤٠٧هـ: ٤؛ ٤٨٩ .

٦. الحرّ العاملي، ١٤٠٩هـ ق: ١٤/١٠٦ .

٧. المصدر السابق .

٨. مالك: ١: ٢١٤؛ ابن عبد البر (بدون تأريخ) ١: ٤٢٢؛ والقرافي ٤: ١٤٧؛ الحنفي: الشيباني (بدون تأريخ) ٢: ٤٩٣؛ السرخسي ٤: ١٤٢؛ ابن مودود الموصلي ١٤٢٦هـ: ١؛ ١٨٦؛ الشافعي: زكريا الأنصاري ١٤٢٢هـ: ١؛ ٥٤٩-٥٣٢؛ الشربيني ٢: ٥٨٨؛ ننوي ١: ٤٦١؛ الحنبلي: ابن قدامة عبد الله بن أحمد ٣: ٥٧٤-٥٩٥؛ ابن قدامة شمس الدين (بدون تأريخ) ١: ٣٤؛ ابن مفلح إبراهيم بن محمد ٣: ٢٥٠ .

المقطوع الأذن :

أجمع الفقهاء على عدم جواز الحيوان الذي قطع قسم من أذنيه أو شقت أو قُطعت كلها، ولا فرق في ذلك في مكان الشق أو القطع، وأمّا إذا كانت أذناه مشقوقة لكنّها مُعلّقة أو كانت مثقوبة فلا إشكال في ذلك،^١ وأمّا مستند هذه الفتوى فهو الروايات التالية:

الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام،^٢ وأحمد بن محمد بن أبي نصر،^٣ وأبو حفص عن الإمام الصادق عليه السلام؛^٤ ولا خلاف بين الشيعة وأهل السنة حول أصل هذا الشرط بل في مقداره، فأهل السنة يقولون: إذا لم يكن للحيوان أذن في أصل خلخته ففي ذلك إشكال، وإذا كان مقدار القطع أو الشق قليلاً فلا إشكال في ذلك، وإذا كانت مُعظم الأذن مقطوعة ففيه إشكال.^٥

ونفس هذا الكلام قالته الحنفية لكنهم اختلفوا في تفسير (مُعظم)، فالشيباني ينقل عن أبي حنيفة قوله: الثلث؛ أمّا أبو يوسف وذفر فقالا: النصف؛ وقال ابن شجاع نقلاً عن أبي حنيفة: المعيار هو الربع؛ وقال بعضهم بشكل مطلق: إذا كان القطع أو الشق قليلاً فلا إشكال في ذلك، وقال آخرون: على أن لا يكون جزء من أذنية مقطوعاً. وفيما يتعلق بالشق ففيه اختلاف في الرأي، فمنهم من جوز ذلك.

الحنفية: قال الشيباني: إذا كان القطع أكثر من الثلث ففيه إشكال؛ وقال أبو يوسف وذفر: النصف هو المعيار.^٦

١. الشيخ الطوسي ١٤١١ هـ ق ٢: ٧٠١؛ ابن أبي عقيل ١٤١٠ هـ ق ١٠٢ وسائر الفقهاء .

٢. الكليني ١٤٠٧ هـ ق ٤: ٤٩٠ .

٣. الشيخ الطوسي ١٤٠٧ هـ ق ٥: ٢١٣ .

٤. الكليني، ١٤٠٧ هـ ق ٤: ٤٩٠ .

٥. مالك، المدونة ١: ٥٤٨؛ ابن أبي زيد (بدون تاريخ) ١: ٧٨؛ ابن عبد البر ١: ٤٢٢ القرافي ٤: ١٤٤ .

٦. بدون تاريخ ٢: ٤٩٣ .

وقال قدوري: إذا كان كل الأذن أو معظمها مقطوعاً^١، وقال السرخسي: إذا كان معظم الأذن مقطوعاً ففيه إشكال، و(معظم) عند أبي حنيفة هو أكثر من الثلث، لكن ابن شجاع نقل عن أبي حنيفة قوله: إذا كان القطع أكثر من الربع^٢.

وقال الشافعية: إذا كانت الأذن مشقوقة ففي ذلك إشكال أما إذا لم يكن للحيوان أذن في أصل خلقته أو كانت قد قُطعت وسقطت ففي ذلك إشكال وإن كان القطع بسيطاً^٣.

وقال الحنابلة: إذا لم يكن للحيوان أذن في أصل خلقته أو كانت صغيرة أو مشقوقة أو قُطع منها شيء بسيط وسقط فلا إشكال في ذلك، وإن كان ذلك مكروهاً؛ لكن، إذا كان قد سقط من الأذن أكثر من النصف ففيه إشكال^٤.

مقطوع الذئب :

لم يُفتِ بعضهم بشكل قاطع بشأن الحيوان الذي قُطع ذيله بل قالوا: يكفي الأقرب، وهذا الشرط لا يشمل سوى الماعز والبقر والإبل^٥.

ولم تبحث المصادر الشيعية في موضوع (الذئب) لكن بالاستناد إلى ما قيل في هذا الشأن من أن القربان لا ينبغي أن يكون معيباً، لا بد من القول: إذا كان ذيل الخروف

١. ١٤١٨ هـ : ١ : ٧٦ .

٢. ١٤١٤ هـ : ٤ : ١٤٢ ؛ الميداني (بدون تاريخ) ١ : ٢٢٢ ابن مودود الموصلية ١٤٢٦ هـ : ١ : ١٨٦ .

٣. الشافعي (بدون تاريخ) ١ : ٤٣٣ ؛ زكريا الأنصاري ١ : ٥٤٩-٥٣٢ ؛ الشريبي ١ : ٣٠٧ ؛ النووي (بدون تاريخ) ١ : ٤٦١ . ٨ : ٤٢ ؛ البلقيني ٤ : ٢٦٥ ؛ الماوردي ١٥ : ٨٠ .

٤. ابن قدامة عبد الله بن أحمد ٣ : ٥٧٤-٥٩٥ ابن بن قدامة، شمس الدين (بدون تاريخ) ١ : ٣٤ ؛ ابن مفلح إبراهيم بن محمد ٣ : ٢٥٠ .

٥. العلامة الحلي (والأقرب أجزاء البتراء)، ١٤٢٠ هـ : ١ : ٦٢٥ ؛ الشهيد الأول ١ : ٤٣٧ ؛ العاملي الموسوي ٨ : ٣٣ ؛ السبزواري ٢ : ٦٦٧ و ١ : ٣٥٠ ؛ فاضل الهندي ٦ : ١٦٤ ؛ البحراني ١٧ : ٩٩ ؛ الطباطبائي ٦ : ٤١٦ ؛ النراقي ١٢ : ٣١٥ ؛ النجفي ١٩ : ١٤٣ (ولم يجوزهم بعضهم)؛ الشهيد الثاني (فلا يجزئ... والأبتر) ٢ : ٢٨٩ .

مقطوعاً وساقطاً ففيه إشكال. وقالت مذاهب أبناء العامة: إذا كان مُعظم الذَّنْبِ مقطوعاً فلا يجوز؛ لكنَّهم اختلفوا في مقدار المقطوع، فقال بعضهم الثلث وقال آخرون النِّصْف هو المعيار الأقرب، كما بحثوا الذَّنْبِ والذَّيْل كذلك. فمن المالكية، قال ابن عبد البر: إذا كان الذَّنْبِ مقطوعاً من أساسه ففيه إشكال، وإذا كان جزء منه قُطِع فقط فلا إشكال فيه.^١

الحنفية: اختلف فقهاء الحنفية حول ذلك، فقال بعضهم بشكل مطلق: لا إشكال في ذلك إذا لم يكن له ذَّنْب في أصل خلقته أو كان مقطوعاً، وقال آخرون: إذا كان مقطوعاً ففي ذلك إشكال؛ وقال غيرهم: إذا كان جزء منه قد قُطِع فلا إشكال في ذلك.

وقال الشيباني: إذا كان أكثر من ثلثه مقطوعاً ففيه إشكال؛ وأمّا أبو يوسف وذفر فاعتبروا النِّصْف هو المعيار،^٢ وقال قدوري بشكل مطلق: أن لا يكون مقطوعاً،^٣ وقال السرخسي: الحدّ الفاصل بين القليل والكثير عند أبي حنيفة هو أن يكون أكثر من الثلث؛ أمّا أبو شجاع فنقل عن أبي حنيفة قوله: هو الرِّبْع،^٤ وقال ابن مودود الموصلي: إذا كان القطع أقلّ من الثلث فلا إشكال في ذلك.^٥

وقال زكريا الأنصاري: إذا كان مقطوع الذَّيْل منذ ولادته فلا إشكال في ذلك،^٦ وقال الشريبي: إذا كان القطع أكثر من ذلك ففيه إشكال،^٧ وقال ابن حجر الهيتمي:

١. ٤٢٢: ١.

٢. بدون تاريخ: ٢: ٤٩٣.

٣. ١٤١٨هـ: ١: ٧٦.

٤. ١٤١٤هـ: ٤: ١٤٢.

٥. ١٤٢٦هـ: ١: ١٨٦.

٦. ٥٤٩-٥٣٢: ١.

٧. ١٤١٥هـ: ٢: ٥٨٨.

يُشترط أن لا يكون القطع في اللسان والضرع واللحم وإن كان ضئيلاً^١، وقال البغوي: إذا لم يكن للخروف أُذن أو ذيل في أصل خلقته، أو للإبل ذنب في أصل الخلقه ففيه إشكال،^٢ وقال الماوردي: إذا لم يكن للحيوان ذنب في أصل خلقته أو كان مقطوعاً ففي ذلك إشكال وإذا لم يكن له ذنب في أصل خلقته فلا إشكال فيه، وإذا كان مقطوعاً ففي ذلك إشكال،^٣ وقال ابن قدامة عبد الله بن أحمد: لا إشكال في الذنب المقطوع، أما إذا كان عضواً من الأعضاء التي تُؤكل كالذنب مقطوعاً ففيه إشكال،^٤ وقال ابن قدامة شمس الدين: إذا لم يكن للحيوان ذنب سواء في أصل خلقته أو كان مقطوعاً فلا إشكال في ذلك؛ وإذا كان الذنب وعضو آخر يؤكل قد قُطع ففيه إشكال.^٥

وقال ابن قدامة المقدسي: قال ابن حنبل: إذا كان مقطوع الذنب ففيه إشكال،^٦ وقال ابن مفلح شمس الدين المقدسي: هنالك قولان حول الذنب المقطوع، والصحيح أنه يكفي، لكن روي عن ابن حنبل أنه لا يكفي.^٧ وقال حجاوي المقدسي: إذا لم يكن الحيوان يملك ذنباً في أصل خلقته فليس كافياً؛^٨ وقال عثيمين: الصحيح هو أنه إذا لم يكن يملك ذنباً في أصل خلقته أو كان مقطوعاً فلا إشكال في ذلك، أما إذا كان الذنب قد قُطع فلا يكفي.^٩

١. ١٤٢٠هـ: ١-٣٠٧.

٢. ٨: ٤٢.

٣. ١٥: ٨٠.

٤. ٣: ٥٧٤-٥٩٥.

٥. بدون تاريخ: ١: ٣٤.

٦. ٣: ٢٥٠.

٧. ٦، ٧: ١٦٢ إلى ١٧٠.

٨. بدون تاريخ: ١: ٩٥.

٩. ٧: ٤٣٥.

وأما الشافعية فقالوا: قال زكريا الأنصاري: إذا لم يكن للحيوان لبناً أو ذنباً أو ذيلًا في أصل خلقته ففيه إشكال،^١ وقال الشرييني: إذا كان جزء من الذنب قد قُطِع فلا إشكال فيه أمّا إذا كان معظم الذنب مقطوع ففي ذلك إشكال.^٢
وقال الميداني: إذا كان مقطوع الذنب ففي ذلك إشكال.^٣

النقص في اللبن :

لم يبحث جميع الفقهاء موضوع النقص في اللبن، وقال بعضهم إنه لا يجوز. وقال ابن أبي عقيل: «ولا يضحّي بالجداء وهي التي ليس لها إلاّ ضرعاً واحداً»،^٤ وقال العلامة الحلي: قال ابن أبي عقيل: كذلك.^٥ وربما يندرج أحياناً في العيب العام.
وقال فقهاء أهل السنة: إذا كان لبها قد جفّ أو انقطع فلا يكفي ذلك؛ وقال ابن قدامة شمس الدين: «ولا تُجزئ ما قُطِع منها عضو كالآلية والأطباء»،^٦ وقال حجاوي المقدسي: «ولا تُجزئ الجداء».^٧
وقال عثيمين: «قوله: والجداء، أي: لا تجزئ أيضاً، والجداء هي التي نشف ضرعها»،^٨ وقال البغوي: «... وإن لم يكن لها ضرع أو كانت يابسة الضرع - يجوز؛ لأنّ العجل يجوز، ولا ضرع له، وفي مقطوعة الضرع وجهان».^٩

١. ١: ٥٤٩-٥٣٢.

٢. ٥٨٨: ٢.

٣. بدون تاريخ: ١: ٢٢٢.

٤. بدون تاريخ: ١٠٣.

٥. ٢٨٨: ٤.

٦. بدون تاريخ: ١: ٣٤.

٧. بدون تاريخ: ١: ٤٠٩-٤٠١.

٨. ٤٣٥: ٧-١٤٢٨-١٤٢٨هـ.

٩. ٤٢: ٨.

المهرم :

لم يرَ الفقهاء مانعاً إذا كانت أسنان الحيوان ساقطة بسبب الهرم وتقدم السن وإن لم يبحثوا في تلك الموارد أصلاً، وهذا دليل على عدم وجود أيّ إشكال في ذلك.

قال الشهيد الثاني: «... مجزية، وكذا الهرم»^١، ومستند ذلك رواية منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام.^٢

ولم يعتبر فقهاء أهل السنة أيضاً الهرم مانعاً، فقال ابن عبد البر: إذا كان الحيوان هرمًا لكنّه كان بدينًا فلا إشكال في ذلك وإن سقطت أسنانه.^٣

وقال الحنابلة: لا إشكال في ذلك؛^٤ وقال عثيمين: إذا كانت أسنان الحيوان ساقطة في الأصل ففي ذلك إشكال، أمّا إذا كانت صغيرة فلا إشكال في ذلك،^٥ وقال ابن مفلح إبراهيم بن محمد: «سقط بعض أسنانها تجزئ في أصحّ الوجهين».^٦

المرض :

قال معظم الفقهاء: إن وجود أيّ نوع من المرض وإن كان بسيطاً ففيه إشكال، وقال ابن حمزة الطوسي: «والمريضة البيّنة»^٧، لكنّ الأفضل الاستشهاد بالقيد المشهود.^٨

١. ٢٠١: ٢٩٩، النراقي ١٢: ٣١٧.

٢. الصدوق ١٤١٣هـ ٢: ٤٩٦.

٣. ١: ٤٢٢.

٤. ابن مفلح شمس الدين المقدسي ٦: ١٦٢ إلى ١٧٠؛ الحجاوي المقدسي (بدون تأريخ): ٤٠١-٤٠٩.

٥. ٤٢٢-١٤٢٨هـ ٧: ٤٣٩.

٦. ٣: ٢٥٠.

٧. ١٨٦: ابن إدريس ١: ٥٩٧ العلامة الحلي ٨: ٢٦٠ و ١١: ١٨٧ الشهيد الثاني ٢٥٨: ١٤١٣هـ ٢: ٢٩٩ الأردبيلي ١٤٠٣هـ ٧: ٢٧٥؛ النجفي ١٩: ١٤٠.

٨. ربما يندرج المرض في العيب، (القائني).

الروايات :

ومن الروايات التي بيّنت شروط القربان رواية الحلبي^١، وأبي بصير^٢، ومعاوية بن عمّار عن الإمام الصادق^{عليه السلام}،^٣ والنوفلي^٤، وداود الرقي^٥، عن الإمام الصادق^{عليه السلام}.^٦ وقال أهل السنة أيضاً إنّ المرض الذي يتسبب في الهلاك وفساد اللحم فيه إشكال سواء قلّ أو كثر، ومن ذلك (الجرب). وقال المالكية: إذا كان المرض بيّناً وظاهراً وسبباً لفساد اللحم ففيه إشكال سواء قلّ أو كثر.

وقال مالك: لا تجوز المريضة التي فسدت بسبب مرضها،^٧ وقال سحنون: المريضة التي بان مرضها،^٨ وقال ابن عبد البر: الجرباء،^٩ وقال القرافي: الجرب،^{١٠} والمريض البيّن.^{١١}

وقال الشافعية مثل ذلك وأوردوا شرط البيّن: «والجرب قليله وكثيره مرض بيّن».^{١٢}

١. الكليني، ١٤٠٧ هـ ق ٤ : ٤٨٩ .

٢. المصدر السابق .

٣. الكليني ١٤٠٧ هـ ق ٤ : ٤٩٠ .

٤. الكليني، ١٤٠٧ هـ ق ٤ : ٤٩١-٤٩٠ .

٥. الكليني، ١٤٠٧ هـ ق ٤ : ٤٩٢ .

٦. الكليني، ١٤٠٧ هـ ق ٤ : ٤٩٠-٤٩١ .

٧. ١٤١٣ هـ ١ : ٢١٤ .

٨. ١٤١٥ هـ ١ : ٥٤٧ .

٩. ٤٢٢ : ١ .

١٠. ١٤٤ : ٤ .

١١. ١٤٧ : ٤ .

١٢. ٢ : ٢٤٥ ؛ أبو إسحاق الشيرازي (بدون تاريخ) ١ : ٤٣٣ ؛ زكريا الأنصاري ١ : ٥٣٢-٥٤٩ .

وقال الحنابلة: إذا كان المرض موجباً لفساد اللحم ففيه إشكال ومن ذلك الجرب وإن قل^١.

محل الذبح في منى :

اتفق فقهاء الشيعة على أن يكون الذبح في (منى)،^٢ ومستند هذه الفتوى الرواية التي نقلها إبراهيم الكرخي عن الإمام الصادق عليه السلام.^٣

مكة مكان النحر :

ورد في بعض الروايات أن مكة كلها مكان لذبح القرابين بحسب رواية معاوية بن عمارة^٤، وقد حمل الشيخ الطوسي هذه الرواية على القران المستحب والعمره كما ورد في رواية إبراهيم الكرخي^٥.

وفيما يخص موضوع ذبح القران في (منى) يمكننا البحث فيه من جهات:

أولاً: أن يكون هناك تعيين وموضوعية فمعظم أعمال الحج كالطواف في المسجد الحرام حول البيت وشروع الطواف من الحجر والوقوفين وغيرها تمتاز بالموضوعية وهي غير قابلة للتغيير. وكذلك أصل تقرب القران وأن يكون من الأنعام الثلاثة فهو يمتاز بالموضوعية؛ وعليه، فإذا ثبت أن الذبح في (منى) يتصف بالموضوعية وأنه

١. ابن حجر الهيتمي ١: ٣٠٧ النووي (بدون تأريخ) ١: ٤٦١ البلقيني، ٤: ٢٦٥؛ ابن قدامة بن أحمد ٣: ٥٧٤-٥٩٥؛ الحجواي المقدسي (بدون تأريخ) ١: ٤٠١-٤٠٩؛ العثيمين ١٤٢٢-١٤٢٨ هـ ٤٣٩: ٧.

٢. الشيخ الطوسي ٢: ٧٠١ القاضي ابن البراج ١٤٠٦ هـ ١: وسائر الفقهاء.

٣. الكليني ٥١٤٠٧ هـ ٤: ٤٨٨؛ الشيخ الطوسي ٢: ٢٦٣؛ الحر العاملي ١٤: ٨٨.

٤. الشيخ الطوسي ٢: ٢٦٤ و ٥: ٢٠٢.

٥. الشيخ الطوسي ٥: ٢٠٢ وأبان بن عبد الأعلى عن الإمام صادق عليه السلام ٧ الطوسي ٥: ٢١٤؛ الحر العاملي، ١٤: ٨٩.

لا بدّ من ذبح قربان هناك فلا شكّ في أنّ الخروج عن ذلك غير جائز؛ ويمكن الاستنباط من قيام الرسول الأعظم ﷺ بالذّبح (في الحديبية خلال العمرة) أنّه لا موضوعية في الذّبح في مكّة أو (منى).

ثانياً: لا موضوعية في الذّبح في (منى) إلاّ أنّ ظروف ذلك اليوم حيث كان عدد الحجّاج قليلاً وكان المكان في (منى) خالياً وكان الناس المستهلكون والمقربون للقرابين وجميع الحيوانات متوفّرة في ذلك المكان ممّا أوجب الذّبح هناك،^١ وهذا هو السبب الذي ذكّر لأجله (منى)؛ لكن، في الوقت الحاضر حيث لم يُعدّ المكان في (منى) يسع كلّ تلك الجموع من الحجّيج أو الاحتفاظ بالحيوانات هناك وصعوبة حضور المستهلكين في ذلك المكان، يجوز الذّبح خارج (منى) وإن كان لا بدّ من مُراعاة القريب فالأقرب من باب الاحتياط.

ثالثاً: إذا افترضنا أنّ المكان في (منى) يمتاز بالموضوعية، يمكن القول بأنّ الذّبح خارج (منى) جائز من باب العسر والجرّ، لأنّ في الظروف الحاضرة لا يمكن الذبح في منى إلاّ أن يصنع مكان متوفر في طبقات.^٢

رابعاً: قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾،^٣ وفي ذلك تصريح بأنّ القربان له محلّه الخاصّ به، وقال سبحانه: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾.^٤ يعني أنّ المحلّ الخاصّ بالقربان هو الكعبة، ولما كان الذّبح يتمّ في (منى) فإنّ في ذلك دليل على أنّ المقصود ليس الكعبة بل المقصود هو الحجّ، وفي هذه الحالة فإنّ (منى) لا يمتاز بأيّ موضوعية.^٥

ولا يرى أهل السنة أيضاً أيّ موضوعية في (منى) بل يشترطون في ذلك الحرم.

١. مجرد احتمال لا يساعد عليه دليل، بل الدليل على خلافه، (القائني).

٢. ادلة الحرج لا تنفي بالمدعى، (القائني).

٣. سورة البقرة، الآية ١٩٦.

٤. سورة المائدة، الآية ٩٥.

٥. لا بدّ من معالجة النصّ الدال على تعيين المحلّ، (القائني).

وعلى هذا يكفي الذبح خارج منى وهذا يساعد توفر الشرايط.

يوم الذّبح:

فيما يخصّ يوم الذّبح فإنّ ثمة أربعة مواقف متّفق عليها وموقف واحد مُختلف عليه :

(أ) لا يجوز الذّبح قبل يوم العيد.

(ب) أنّ أيام الذّبح أربعة تبدأ من يوم العيد.

(ج) يجوز الذّبح طيلة أيام ذي الحجة.

(د) لا يجوز الذّبح بعد ذي الحجة^١.

وأما الموقف المُختلف عليه فهو: إذا لم يذبح الحاج القربان في (منى) خلال أربعة أيام وتأخّر في ذلك فهل يعني أنّه آثم أم لا؟ ويكمن الاختلاف في أنّه هل يُعتبر جواز التأخير إلى آخر ذي الحجة اختيارياً أم تكليفاً؟ أي، إذا لم يتمّ تقديم القربان خلال الأيام الأربعة المذكورة فهل معنى ذلك أنّ الحاجّ لم يعمل بالحكم التكليفيّ فيكون قد قضى عن ذلك ويكون مُذنّباً؟

نقل الأردبيليّ عن العلامة الحليّ قوله في (المنتهى) أنّه يكون مذنباً،^٢ وقال البحراني في (المنتهى): «ولو ذبح في بقية ذي الحجة أجزأ وأثم». ^٣ لكنّ هذه العبارة لم ترد في (المنتهى) بل أورد العلامة عبارة العلامة الحليّ في (الشرائع) بالشكل التالي: «إذا عرفت

١. الشيخ الطوسي: ١: ٣٧١؛ ابن أبي عقيل (بدون تأريخ): ١٠٢؛ القاضي ابن البراج: ١: ٢٥٩؛ ابن حمزة الطوسي: ١٨١، ابن زهرة: ١٩١؛ ابن إدريس: ١: ٥٩٥؛ وسائر الفقهاء إلى النجفي ١٩: ١٣٣.

٢. ٢٥٦: ٧. ٢

٣. ٧٦: ١٧. ٣

هذا فإنه يجب تقديم الذبح على الحلق بمنى، ولو أخره أثم وأجزأ، وكذا لو ذبحه في بقية ذي الحجة جازاً.^١ وعبرة الحليّ هذه في (الشرائع) التي أوردها العلامة كما هي تدلّ صراحة على أنّ تقديم الحلق على الذبح إثم لكنّ تأخير قربان إلى آخر ذي الحجة ليس إثماً لذكره كلمة (جاز) ولم يُقل (أثم) وقوله: (وكذا) بمعنى الجواز، أي، أنّ حكم تأخير قربان حتى آخر ذي الحجة يتساوى مع حكم تأخير قربان عن الحلق في الجواز فقط، لكنهما ليسا متشابهين من حيث الإثم، وإن كان بعضهم قد استنبط أنّهما متشابهان من كلّ جهة وأنّ عبارة الحليّ تدلّ على ذلك.

ويبدو أنّ أوّل مَنْ نقل هذه العبارة هو نجم الدين الحليّ في (الشرائع): «ويجب ذبحه يوم النحر...»،^٢ ثمّ أورد آخرون العبارة بعينها، مثل العلامة الحليّ والشهيد الثاني.^٣

والعامل الموسويّ هو أوّل مَنْ ذكر عبارة الحليّ من (الشرائع): «وقوله: ويجب...» وقال إنّ وجوب الذبح في يوم العيد هو رأي علمائنا وأغلب علماء أبناء العامّة، ثمّ ذكر العبارة الثانية وقال: إنّ وجوب تقديم الذبح على الحلق هو أحد الآراء في هذا الموضوع؛ ثمّ ذكر العبارة الثالثة: «وكذا لو ذبحه في بقية ذي الحجة جازاً» وقال في شرح ذلك: هذه العبارة تقتضي كونه يستطيع الذبح بشكل اختياريّ في سائر أيام ذي الحجة وهو ما صرّح به الشيخ أيضاً في (المصباح).^٤

والظاهر أنّه لم تُراعى الدقّة في عبارة الحليّ في (الشرائع) لأنّ كلمة (وكذا) لا تعني الكفاية والإثم: «أجزأ وأثم» بل تعني مجرد الجواز كما قال في آخر ذلك: «جازاً؛ وأمّا

١. ١٤١٢ هـ - ١١: ١٨١.

٢. ١٤٠٨ هـ - ١: ٢٣٥.

٣. ١٤١٣ هـ - ٢: ٢٩٧.

٤. ١٤١١ هـ - ٨: ٢٧.

إذا كان المقصود (أثم) كذلك لقال في آخر كلامه: «أجزأ وأثم». والحقيقة أن كلمة (جاز) لا تتناسب مع (أثم) بحيث تعني: (يجوز له وأثم) في الوقت نفسه. والصحيح أن يُؤتى بكلمة (أثم) و(أجزأ) معاً ويعني ذلك أنه كافٍ لكنه أثم في نفس الوقت، لأن ذلك يتضمّن بحثين: أولاً: إذا تأخّر فهل يكفي ذلك أم لا؟ فقال في ذلك: يكفي، ويكون هذا باستعمال كلمة (أجزأ). ثانياً: هل يجوز له ذلك أم لا؟ وهذا لا يُقال باستعمال كلمة (جاز).

وظاهر العبارة كما استنبط العامل الموسوي أنه إذا قدّم الحلق ثم أتى بالقربان بعده فقد أثم، وليس معناه إذا أّخر القربان حتى آخر ذي الحجة فقد أثم، لأن ههنا موضوعان: أحدهما ترتيب تقديم القربان على الحلق وثانيهما تأخير القربان حتى آخر ذي الحجة. ففي الموضوع الأول فإنّ الحاج قد أثم لكنه لم يَأثم في الموضوع الثاني. لكن، إذا كان تأخير القربان حتى آخر ذي الحجة إثماً كذلك فلا بدّ من القول إنه إذا أّخر القربان بعد الحلق حتى آخر ذي الحجة فقد ارتكب إثمين معاً، أحدهما تأخيره عن الحلق وثانيهما تأخير القربان حتى آخر ذي الحجة.

الروايات :

لم يرد من الموارد الأربعة المذكورة في الروايات سوى واحد منها، وهو أنّ أيام الذبح في (منى) هي ثلاثة (كليب الأسديّ عن الإمام الصادق عليه السلام)^١ ومحمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام)^٢ ومحمّد بن غياث عن الإمام الصادق عليه السلام)^٣ ومنصور بن حازم عن الإمام الصادق عليه السلام)^٤ إلا أنّ بعض الروايات ذكرت أربعة أيام (علي بن جعفر عن

١. الكليني، ١٤٠٧ هـ: ٤٨٧ و ١٤٠٧ هـ: ٥٠٣.

٢. الكليني، ١٤٠٧ هـ: ٤٨٧، الشيخ الطوسي ٢: ٢٦٤ و ٥: ٢٠٣.

٣. المصدر السابق.

٤. الشيخ الطوسي، ٥: ٢٠٤.

الإمام الكاظم عليه السلام،^١ وعمّار الساباطي عن الإمام الصادق عليه السلام.^٢
والظاهر في هذه المجموعتين من الروايات أن ثمة تعارض بينهما،^٣ لكنّ الفقهاء
أفتوا بكلّتيهما، وأمّا سائر الموارد فلم يأت ذكرها في الروايات.

أهل السنة :

قال المالكية: يمكن للحاج أن يقرب خلال ثلاثة أيام فإن لم يستطع ذلك أمكنه
الذبح بعدها، وقال الحنفية: ثلاثة أيام في الحرم نهاراً، وقال المالكية: أربعة أيام ويجوز
الذبح ليلاً في الحرم، وقال الحنابلة: ثلاثة أيام في الحرم نهاراً.
ويرى المالكية أن وقت الذبح هو ثلاثة أيام والمشهور عندهم عدم جوازه في الليل
كذلك، أمّا مكان الذبح فمكّة.^٤

وقال الحنفية: لا بدّ من ذبح قربان في الحرم في الأيام الثلاثة ويجوز الذبح ليلاً
وإن كان مكروهاً.^٥

وقال الشافعية: يجوز ذلك في يوم العيد وأيام التشريق الثلاثة، كما يجوز
(عندهم) الذبح ليلاً ونهاراً، وإن كان الذبح ليلاً مكروهاً وذلك لإمكانية وقوع
الخطأ وقد لا يكون الفقراء حاضرين عندها، ولا يكفي قربان إذا كان قبل تلك

١. الشيخ الطوسي ٢: ٢٦٤ و ٢٠٢: ٥.

٢. الشيخ الطوسي ٢: ٢٦٤ و ٥: ٢٠٣.

٣. لاتعارض، فإنّ ثلاثة أيام بعد العيد من أيام الذبح، لأنّ أيام الذبح ثلاثة أيام، (القائني).

٤. مالك، المدونة، ١: ٥٥٠؛ (يذبح في مكّة) ٢: ١٤٠؛ أشرف المسالك ١: ١٢١؛ ابن عبد البر ١: ٤٢٢ و
٥: ٢٣٧؛ القيرواني، ١: ٥٦٠؛ القرافي (قال: نقل الإكمال عن مالك أنّه يكفي في الليل)،
٤: ١٥٠.

٥. قدوري ١: ٧٦. ابن مودود الموصلي ١: ١٧٣. بدر الدي العيني ٤: ٤٨٧؛ ابن عابدين ١٤١٢ هـ: ٢.

٦١٦؛ السرخسي محمد بن أحمد ١٢: ١٩؛ الطحاوي أحمد بن محمد ١: ٥٣٧.

الأيام الثلاثة أو بعدها.^١

وأما الحنابلة فقالوا: الأغلب ثلاثة أيام، يُقدّم القربان يوم العيد ويومين آخرين بعده؛ وأما عثميين فقال إن أيام القربان أربعة وإنه لا بدّ من ذبح القربان داخل الحرم، ولم يجوز ذلك في الليل.^٢ وقال المرداوي: يوم العيد فقط؛^٣ وقال عثميين محمّد بن صالح: «نقول: إن وقت الذبح يستمرّ من بعد صلاة العيد يوم النحر إلى آخر أيام التشريق».^٤

الاشتراك في القربان :

فيما يتعلّق بموضوع الاشتراك في القربان في حال الاختيار، فنقول: أن المراد من جواز الاشتراك وعدمه هو القربان في حج التمتع في منى، لكنّ الأضحية المستحبة لا مانع فيها من الاشتراك. أجمع الشيعة على أنّه غير جائز، لكن، ومنذ عهد الشيخ الطوسي إلى الآن قال معظم فقهاءهم أنّ ذلك جائز في موارد ضرورة الاشتراك وأنّ ذلك الاشتراك يجزئ عن خمسة أنفار وسبعة أنفار وسبعين نفراً، وهم يحملون الرواية التي تتضمّن الكفاية بشكل مطلق على القربان المستحبّ.^٥

الروايات: قال علي بن أحمد: إذا كان الأشخاص الخمسة من بيت واحد فيكفي ذبح بقرة واحدة، وقال إن هنالك رواية لا تميز ذلك سوى لشخص واحد. وإذا كان

١. الشافعي ٢: ٢٤٨؛ النووي: ٤٦١، ابن عبد البر ١: ٤٢٣؛ زكريا الأنصاري (بدون تأريخ) ١:

٤٩٣؛ الماوردي ٤: ٣٧٨؛ أبو إسحاق الشيرازي (بدون تأريخ) ١: ٤٣٢؛ الشرييني ٢: ٣١١.

٢. أحمد بن حنبل ٢: ٣٦٧ و ٥٧٥؛ المقدسي عبد الرحمان ١: ٢٣٤.

٣. ٤: ٦٨؛ ابن قدامة ٣ ظ ٣٨٤؛ ابن قدامة المقدسي عبد الرحمن (بدون تأريخ) ٣: ٥٥٥.

٤. ٧: ٤٦١.

٥. الشيخ الطوسي ٥: ٢٠٦؛ القاضي ابن البراج ١: ٢٥٧؛ ابن حمزة ١: ١٨١؛ ابن زهرة: ١٩١؛ ابن

إدريس ١: ٥٩٥؛ وسائر الفقهاء إلى النجفي ١٩: ١٢٣.

القربان غالي الثمن فإنَّ خروفاً واحداً يجزئ عن سبعين نفراً^١.
وفي حال الضرورة عندما لا تكون النفقة كافية وكان القربان غالي الثمن فإنَّ البعير
والبقرة والخروف يجزؤون عن سبعة أنفار إلى سبعين نفراً^٢.
وهنالكَ روايات تصرّح بأنَّ ذلك لا يجزئ سوى عن شخص واحد،^٣ ومنها ما
ذكر بشكل مطلق أنَّ القربان الواحد يجزئ عن سبعة أنفار.^٤
وثمة روايات أخرى اشترطت أن تكون نفقة الأفراد واحدة، مثل رواية معاوية
بن عمّار،^٥ ويونس بن يعقوب عن الإمام الصادق عليه السلام،^٦ ووهيب ابن حفص عن أبي
بصير عن الإمام الصادق عليه السلام،^٧ وأنَّ البقرة الجذع تجزئ عن ثلاثة أنفار من أهل بيت
واحد، والمسنة عن سبعة أنفار متفرّقين، والبعير عن عشرة أنفار.^٨
وحمل الفقهاء الاختلاف في الروايات على الضرورة وأن يكون ذلك بدل القربان
الغالي الثمن إن لم يكن بمقدور الحاجِّ شراؤه.

أهل السنة :

اختلف فقهاء أهل السنة حول موضوع الاشتراك في القربان، فالمالكية لم يجوّزوا

١. ابن بابويه؛ الصدوق: ٢٤٣ و: ٢٧٤ يحيى بن سعيد الحلبي: ٢١٢ .
٢. الكليني، ١٤٠٧ هـ ق ٤: ٤٩٦-٤٩٧ هـ حران عن الإمام الصادق عليه السلام؛ الشيخ الطوسي ٢: ٢٦٧ و ٥:
٢٠٩؛ زيد بن جهم عن الإمام الصادق عليه السلام .
٣. الحلبي، عن الإمام الصادق عليه السلام، الشيخ الطوسي ٢: ٢٦٦-٢٦٨ و ٥: ٢٠٨-٢٠٩ و ٥: ٧٠٥ .
٤. يونس بن يعقوب عن الإمام الصادق عليه السلام الصدوق، ٢: ٤٩١، ووهيب بن حفص عن الإمام
الصادق عليه السلام الصدوق، ٢: ٤٩١ .
٥. الشيخ الطوسي ١٤٠٧ هـ ٥: ٢٠٨ .
٦. المصدر السابق .
٧. المصدر السابق .
٨. المصدر السابق .

ذلك، وأجاز الحنفية البقرة أو البعير للإجزاء عن سبعة أنفار بهذا الشرط وأن يكون جميعهم يقصدون تقريب قربان وأن يذبح الحيوان المقرب كقربان فقط. وأما الشافعية والحنابلة فأجازوا أيضاً البقرة والبعير للإجزاء عن سبعة أنفار سواء أكان جميعهم يقصدون تقريب الحيوان كقربان أم قصد بعضهم ذلك بينما قصد الآخرون اللحم.

وأما المالكية فلم يجوزوا الاشتراك،^١ فيما قال الحنفية بكفاية البقرة أو البعير للإجزاء عن سبعة أنفار بشرط أن يكون جميعهم قاصدين تقريب الحيوان كقربان،^٢ وقال الشافعية بكفاية البقرة أو البعير للإجزاء عن سبعة أنفار سواء أكانوا جميعهم يقصدون بالحيوان القربان أم لم يكونوا كذلك.^٣ وأما الحنابلة فقالوا بكفاية البقرة أو البعير للإجزاء عن سبعة أنفار سواء أكانوا جميعهم قاصدون به القربان أم كان بعضهم كذلك وبعضهم غير ذلك.^٤

الذبح في الليل :

لم يُفت أحد من الشيعة بالذبح في الليل، وورد في الروايات جواز ذلك لمن كان خائفاً بحسب رواية عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق (عليه السلام) ولا سيما بالنسبة لمن نوى الرمي في الليل،^٥ ورواية محمد بن مسلم عن الإمام الصادق (عليه السلام).^٦

١. ابن عبد البر ١ : ٤٢٠ و ٥ : ٢٣٧ القرافي ٣ : ٣٥٤ .

٢. الحنفي: قدوري ١ : ٧٦؛ الميداني بيتا ١ : ١٧٤ .

٣. الشافعي (بدون تأريخ) ٢ : ٢٤٤؛ أبو إسحاق الشيرازي (بدون تأريخ) ١ : ٨١ زكريا الأنصاري ١ : ٥٤٩-٥٣٢؛ الشربيني ٢ : ٥٨٨ .

٤. حجاوي المقدسي (بدون تأريخ) ١ : ٩٥؛ العملة (بدون تأريخ) (بدون مطبعة) ١ : ٢٠٦؛ ابن مفلح ٣ : ٢٥٠؛ ابن قدامة عبد الرحمن (بدون تأريخ) ١ : ٣٤؛ العثيمين ٧ : ٤٢١ .

٥. الحرّ العاملي ١٤٠٩ هـ : ١٤ : ٩٤ .

٦. المصدر السابق .

المصادر...

١. ابن أبي زيد القيرواني، متن الرسالة، دارالفكر، بدون تأريخ.
٢. ابن أبي عقيل، الحسن بن علي، مجموعة الفتاوى، قم، الطبعة الأولى، بدون تأريخ.
٣. ابن الأثير الجزري، مبارك بن محمد، النهاية، مطبعة (إسماعيليان)، قم، الطبعة الأولى، بدون تأريخ.
٤. ابن إدريس الحلّي، محمد بن منصور، السرائر، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، قم، ١٤١٠ هـ ق.
٥. ابن بابويه، الصدوق الأوّل، علي بن بابويه، مجموعة الفتاوى، الطبعة الأولى، قم، بدون تأريخ.
٦. ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد، المنهاج القويم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
٧. ابن حمزة الطوسي، محمد بن علي، الوسيلة، منشورات مكتبة آية الله النجفي، ١٤٠٨ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٨. ابن زهرة الحلبي، حمزة بن علي، غنية النزوع، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، ١٤١٧ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٩. ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ.
١٠. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، الاستذكار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تأريخ.
١١. ابن عسكراً: أشرف المسالك، بدون تأريخ، بدون مطبعة.
١٢. ابن قدامة المقدسي، أبو محمد، الكافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.

١٣. ابن قدامة المقدسي، أبو الفرج، شمس الدين، الشرح الكبير، مصر، بدون تأريخ.
١٤. ابن قدامة، أبو محمد... المغني، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨ هـ.
١٥. ابن قدامة المقدسي، عبد الرحمن، العدة في شرح العمدة، دارالكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ.
١٦. ابن مفلح، إبراهيم بن محمد، المبدع في شرح المقنع، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
١٧. ابن مفلح الراميني، محمد بن مفلح، الفروع، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ.
١٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر - بيروت الطبعة، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ.
١٩. ابن مودود الموصل، عبد الله بن محمود، الاختيار لتعليق المختار، دارالكتب العلمية - بيروت، ١٤٢٦ هـ، الطبعة الثالثة.
٢٠. أبو إسحاق الشيرازي، إبراهيم بن علي، المهذب، دارالكتب العلمية، بدون تأريخ.
٢١. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية، دار العلم القاهرة - مصر، بدون تأريخ.
٢٢. أحمد بن حنبل، مسائل أحمد، دار الهجرة، ١٤٢٥ هـ، الرياض، بدون تأريخ.
٢٣. الأردبيلي، أحمد بن محمد، مجمع الفائدة، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، ١٤٠٣ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٢٤. الأزهرى الهروي، أبو منصور محمد، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

٢٥. البحراني، آل عصفور، يوسف بن أحمد، الحدائق الناضرة، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ ق.
٢٦. بدر الدين العيني، أبو محمد محمود، البناية في شرح الهداية، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
٢٧. الحائري، السيد علي بن محمد الطباطبائي، رياض المسائل، منشورات (مؤسسة آل البيت)، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ ق.
٢٨. حجاوى المقدسي، موسى بن أحمد، الإقناع، منشورات دار المعرفة، بيروت، بدون تأريخ.
٢٩. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، منشورات مؤسسة آل البيت، ١٤٠٩ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٣٠. الحلبي، ابن زهرة، حمزة بن علي، غنية النزوع، منشورات مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ ق.
٣١. الحلبي، محمد بن الحسن بن يوسف، إيضاح الفوائد، منشورات (إسماعيليان)، ١٣٨٧ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٣٢. الحلبي، جمال الدين أحمد بن محمد، المهذب البارع، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، ١٤٠٧ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٣٣. الحلبي، نجم الدين، جعفر بن الحسن، شرائع الإسلام، منشورات (إسماعيليان)، ١٤٠٨ هـ ق، الطبعة الثانية، قم.
٣٤. الراوندي، قطب الدين سعيد بن عبد الله، فقه القرآن، منشورات مكتبة آية الله النجفي، ١٤٠٥ هـ ق، الطبعة الثانية، قم.
٣٥. الرشداني المرغياني، أبو الحسن علي، الهداية في شرح بداية المبتدي، المكتبة

الإسلامية، بدون تاريخ.

٣٦. الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ ق.

٣٧. زكريا الأنصاري، أسنى المطالب، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٢ هـ، الطبعة الأولى.

٣٨. السبزواري، محمد باقر بن محمد مؤمن، كفاية الأحكام، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ ق.

٣٩. السرخسي، محمد بن أحمد، المبسوط، منشورات دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤ هـ.

٤٠. سلالر الديلمي، حمزة بن عبد العزيز، المراسم، منشورات الحرمين، ١٤٠٤ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.

٤١. السيد مرتضى، علي بن الحسين، جمل العلم والعمل، مطبعة الآداب، ١٣٨٧ هـ ق، النجف.

٤٢. السيوري الحلبي، مقداد بن عبد الله، التنقيح الرائع، منشورات مكتبة آية الله النجفي، ١٤٠٤ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.

٤٣. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، الأم، دار المعرفة - بيروت ١٤١٠ هـ.

٤٤. الشربيني، شمس الدين، محمد، مغني المحتاج، دار الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥/١ هـ.

٤٥. الشربيني، الإقناع، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥/٢ هـ ق.

٤٦. الشهيد الأول، الدروس الشرعية، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ ق. وكتبه الأخرى.

٤٧. الشهيد الثاني العاملي، زين الدين، حاشية شرائع الإسلام، منشورات (دفتر

- تبليغات اسلامي)، قم ١٤٢٢ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٤٨. الشيباني، محمد بن الحسن، المبسوط، إدارة القرآن، كراتشي، بدون تاريخ.
٤٩. الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧ هـ ق، الطبعة الرابعة، طهران.
٥٠. الشيخ الطوسي، المبسوط، المكتبة المرتضوية، ١٣٨٧ هـ ق، الطبعة الثالثة، طهران.
٥١. الصدوق، محمد، مَنْ لا يحضره الفقيه، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، ١٤١٣ هـ ق، الطبعة الثانية، قم.
٥٢. الصدوق، علي بن بابويه القمي، الصدوق الأول، مجموعة فتاوى ابن بابويه، قم، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
٥٣. الطباطبائي الحائري، السيد علي، رياض المسائل، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام)، ١٤١٨ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٥٤. الطحطاوي، أحمد بن محمد، حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح، دار الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
٥٥. العاملي، محمد بن علي الموسوي، مدارك الأحكام، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام)، ١٤١١ هـ ق، الطبعة الأولى، بيروت.
٥٦. عثيمين، محمد بن صالح، الشرح الممتع، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ - ١٤٢٨ هـ.
٥٧. العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، قواعد الأحكام، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، ١٤١٣ هـ ق ١، الطبعة الأولى، قم، وكتبه الأخرى.
٥٨. العلامة المجلسي، محمد باقر، ملاذ الأخيار، منشورات مكتبة آية الله النجفي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ ق.

٥٩. فاضل آبي، الحسن بن أبي طالب، كشف الرموز، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، ١٤١٧ هـ ق.
٦٠. فاضل الهندي، الأصفهاني، محمد بن الحسن، كشف اللثام، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ ق.
٦١. الفيض الكاشاني، محمد محسن، مفاتيح الشرائع، منشورات مكتبة آية الله النجفي، قم، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
٦٢. القاضي ابن البراج، المهذب، منشورات (دفتر انتشارات اسلامي)، ١٤٠٦ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٦٣. قدوري، أحمد بن محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
٦٤. القرافي، أبو العباس شهاب الدين، الذخيرة، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.
٦٥. القيرواني، خلف بن أبي القاسم محمد، التهذيب، إحياء التراث، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
٦٦. الكركي العاملي، المحقق الثاني، علي بن الحسين، جامع المقاصد، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام)، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ ق.
٦٧. الكليني، أبو جعفر، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧ هـ ق، الطبعة الرابعة، طهران.
٦٨. الكيدري، قطب الدين، إصباح الشيعة، مؤسسة الإمام الصادق، ١٤١٦ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٦٩. مالك بن أنس، الموطأ، رواية محمد بن الحسن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ.

٧٠. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، الحاوي الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت،
الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ.
٧١. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، المقنعة، منشورات (كنغره جهاني هزاره شيخ
مفيد)، ١٤١٣ هـ ق، الطبعة الأولى، قم.
٧٢. المناوي، محمد عبد الرؤوف، التعاريف، دار الفكر بيروت، دمشق، الطبعة الأولى،
١٤١٠.
٧٣. النجفي، محمد حسن، جواهر الكلام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة
السابعة، ١٤٠٤ هـ ق.
٧٤. النووي، أبوزكريا يحيى بن شرف، المجموع في شرح المهذب، دار الفكر، بدون
تأريخ.

مختصر الشرائع النبوية (٢)

تأليف: الحسن بن صادق الحسيني آل المجدد الشيرازي

أما بعد: فهذا مقالٌ أودعت فيه طرفاً من الشرائع النبوية الشريفة، وضمّنته تُنفأً من الحلية المحمّدية المنيفة، اقتضبت من كتابي المسمّى «منهاج الحنفا في شرائع المصطفى ﷺ».

... (٢٠) باب ما جاء في جلسة رسول الله ﷺ ومجلسه

[١/٧١] عن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يجلس تجاه القبلة. رواه الكليني^١.

[٢/٧٢] وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يأكل أكل العبد، ويجلس جلوس العبد، ويعلم أنه عبد.

رواه البرقي، ورواه الكليني عن هارون بن خارجة عن أبي عبد الله عليه السلام^٢.

[٣/٧٣] وعن عبد العظيم بن عبد الله بن الحسن العلوي رفعه، قال: «كان النبي ﷺ يجلس ثلاثاً: القُرْفُصَاك وهو أن يقيم ساقيه، ويستقبلها بيده، ويشدّ يده

١. الكافي ٢: ٦٦١، ح ٤.

٢. المحاسن: ٤٥٦ ح ٣٨٦؛ الكافي ٦: ٢٧١، ح ٣.

في ذراعه وكان يجثو على ركبتيه، وكان يُثنى رجلاً واحدة ويسط عليها الأخرى، ولم يُرَ صلى الله عليه وآله متربعاً قط^١. رواه الكليني.

[٤/٧٤] وعن عبدالله بن المغيرة، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل». رواه الكليني^٢.
[٥/٧٥] وعن جميل بن درّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية، قال: ولم يبسط رسول الله صلى الله عليه وآله رجليه بين أصحابه قط، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه وآله يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه قال بيده فترعها من يده». رواه الكليني^٣.

[٦/٧٦] وعن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يقوم من مجلس - وإن خف - حتى يستغفر الله عزّ وجلّ خمساً وعشرين مرّة». رواه الكليني^٤.
[٧/٧٧] وعن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: قال: حدّثني علي بن موسى الرضا، عن آبائه، عن علي بن الحسين، عن الحسن بن علي، عن الحسين بن علي عليه السلام أنّه سأله عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام: «كان صلى الله عليه وآله لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر، ولا يوطّن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كلّ جلسائه نصيبه، ولا يحسب من جلسائه أنّ أحداً أكرم عليه منه، من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، من سأله حاجة لم يرجع إلّا بها أو بميسور من القول،

١. الكافي ٢: ٦٦١، ح ١.

٢. الكافي ٢: ٦٦٢، ح ٦.

٣. الكافي ٢: ٦٧١ ح ١ و ٨: ٢٦٨ ح ٣٩٣.

٤. الكافي ٢: ٥٠٤، ح ٤.

قد وسع الناس منه خلقه وصار لهم أباً رحيماً، وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، لا ترتفع فيها الأصوات، ولا تُؤَبَّن فيه الحُرْم،^١ ولا تنشى فلتاته،^٢ متعادلين متواصلين فيه بالتقوى، متواضعين، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب».

قال الإمام الحسين عليه السلام: «فقلت: كيف كان سيرته في جلسائه؟ فقال: كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظظ، ولا غليظ، ولا صحَّاب،^٣ ولا فحَّاش ولا عيَّاب، ولا مدَّاح، يتغافل عما لا يشتهي فلا يُؤَيِّس منه، ولا يخيب فيه مؤمَّله، قد ترك نفسه من ثلاث: المرء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذمَّ أحداً ولا يعيرُه، ولا يطلب عثراته ولا عورته، ولا يتكلَّم إلا فيما رجا ثوابه، إذا تكلم أطارق جلساؤه كأنها على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك ممَّا يضحكون منه، ويتعجب ممَّا يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأزفدوه،^٤ ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحدٍ كلامه حتى يجوز، فيقطعه بنهي أو قيام». رواه ابن بابويه في (العيون) و (معاني الأخبار).^٥

(٢١) باب ما جاء في صفة أكل رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه

[١/٧٨] عن أبي خديجة، قال: سأل بشير الدهان أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر

١. أي: لا يُعاب الناس في مجلسه، ولا تنتهك الحُرْمات فيه.

٢. أي: لا يحدث بها وقع في مجلسه من الهفوات والزلات، ولا تذاع بين الناس.

٣. الصحَّاب: الشديد الصباح.

٤. الرُفْد: الإعانة.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١، ٣١٩٣١٨، ح ١؛ معاني الأخبار: ٨٢، ٨٣، ح ١.

فقال: هل كان رسول الله ﷺ يأكل متكئاً على يمينه أو على يساره؟ فقال: «ما كان رسول الله ﷺ يأكل متكئاً على يمينه ولا على يساره، ولكن كان يجلس جلسة العبد». رواه البرقي والكليني.^١

[٢ / ٧٩] وعن عمرو بن جميع، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ يأكل بالأرض». رواه البرقي.^٢

[٣ / ٨٠] وعن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خرج رسول الله ﷺ قبل الغداة ومعه كسرة قد غمسها في اللبن، وهو يأكل ويمشي، وبلال يقيم الصلاة، فصلّى بالناس». رواه البرقي والكليني.^٣

[٤ / ٨١] وعن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أكل مع قوم طعاماً كان أول من يضع يده، وآخر من يرفعها؛ ليأكل القوم». رواه البرقي والكليني.^٤

[٥ / ٨٢] وعن ابن القدّاح أيضاً، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه في فمه فمصّها». رواه البرقي.^٥

(٢٢) باب ما جاء في صفة خبز رسول الله ﷺ

[١ / ٨٣] عن أبي أسامة زيد الشحام، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: بلغنا أنّ رسول الله ﷺ لم يشبع من خبز بُرِّ ثلاثة أيام قطّ، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ما أكله

١. المحاسن: ٤٥٧ ح ٣٨٩؛ الكافي: ٦، ٢٧١، ٢٧٢ ح ٧.

٢. المحاسن: ٤٤١ ح ٣٠٥.

٣. المحاسن: ٤٥٨، ٤٥٩ ح ٣٩٨؛ الكافي: ٦، ٢٧٣ ح ١.

٤. المحاسن: ٤٤٨ ح ٣٤٩ و ٤٤٩ ح ٣٥٤، الكافي: ٦، ٢٨٥ ح ٢ و ٢٨٥ ح ١.

٥. المحاسن: ٤٤٣ ح ٣١٤.

قطّ، قلت: فأَيُّ شيء كان يأكل؟ قال: كان طعام رسول الله ﷺ الشعير إذا وجدته، وحلواه التمر، ووقوده السعف». رواه الطوسي في (الأمالي).^١

[٢ / ٨٤] وعن العيص بن القاسم، قال: قلت للصادق جعفر بن محمد عليه السلام: حديث يروى عن أبيك عليه السلام أنه قال: «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز بُرّ قطّ، أهو صحيح؟ فقال: لا، ما أكل رسول الله ﷺ خبز بُرّ قطّ، ولا شبع من خبز شعير قطّ». رواه ابن بابويه في (الأمالي).^٢

(٢٣) باب ما جاء في صفة إدام رسول الله ﷺ

[١ / ٨٥] عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان أحبّ الأصباغ،^٣ إلى رسول الله ﷺ الخلّ والزيت، وقال: هو طعام الأنبياء عليهم السلام». رواه البرقي والكليني.^٤

[٢ / ٨٦] وعن الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ لحمًا،^٥ يحبّ اللحم.

رواه البرقي والكليني.^٦

[٣ / ٨٧] وعن سُكَيْنِ النخعي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ يأكل اللحم والعسل».

١. أمالي الطوسي: ٦٦٣ ح ١٣٨٣.

٢. أمالي الصدوق: ٢٦٣ ح ٦.

٣. الصبغ: ما يصبغ به من الإدام، أي: يُغمر فيه الخبز ويؤكل، ويختصّ بكلّ إدام مائع كالخلّ ونحوه.

٤. المحاسن: ٤٨٣ ح ٥٢٠؛ الكافي ٦: ٣٢٨ ح ٦، وانظر المحاسن: ٤٨٢ ح، الكافي ٦: ٣٢٩ ح ٥١٦، ٦.

٥. اللحم: هو الذي يُكثر أكل اللحم.

٦. المحاسن: ٤٦١ ح ٤١٠ و ٤١١ ح ٤١٥؛ الكافي ٦: ٣٠٩ ح ٧.

رواه البرقي والكليني^١.

[٤ / ٨٨] وعن عبدالله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمّت اليهوديّة النبي صلى الله عليه وآله في ذراع، وكان النبي صلى الله عليه وآله يحبّ الذراع والكُتف، ويكره الورك لقربها من المبال». رواه البرقي والصفار والكليني^٢.

[٥ / ٨٩] وعن ابن القدّاح أيضاً، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله يعجبه الدُّبَاء^٣ ويلتقطه من الصَّحْفَة^٤».

رواه البرقي والكليني، والطوسي في (الأمالي)^٥.

[٦ / ٩٠] وعن حمّاد بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان حلواء رسول الله صلى الله عليه وآله التمر». رواه البرقي^٦.

(٢٤) باب ما جاء في صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله عند الطعام

[١ / ٩١] عن عمّار الساباطي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي من غير أن يغسل يده، وإن كان لبناً لم يصلّ حتى يغسل يده ويتمضمض». رواه الطوسي^٧.

[٢ / ٩٢] وعن هشام بن سالم، عن جعفر بن محمّد، عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سرّه أن يكثر خير بيته فليتوضّأ عند حضور طعامه، ومن توضّأ قبل الطعام وبعده عاش في سعة من رزقه، وعوفي من البلاء في جسده». رواه

١. المحاسن: ٤٦٠ ح ٤٠٤؛ الكافي ٥: ٣٢٠ ح ٤.

٢. المحاسن: ٤٧٠ ح ٤٥٨، بصائر الدرر: ٥٠٣ ح ٦، الكافي ٦: ٣١٥ ح ٣.

٣. الدُّبَاء: القُرْع، وهو ضرب من البقطين.

٤. الصَّحْفَة: إناء كالفَصْعَة، وقيل: هي قصعة مستطيلة.

٥. المحاسن: ٥٢١ ح ٧٣٤، الكافي ٦: ٣٧٠؛ أمالي الطوسي: ٣٦٢ ح ٧٥٥.

٦. المحاسن: ٥٣١ ح ٧٨١.

٧. تهذيب الأحكام ١: ٣٧٢ ح ١٠٣٣.

الطوسي في (الأمالي).^١

(٢٥) باب ما جاء في قول رسول الله ﷺ إذا فرغ من الطعام والشراب

[١/٩٣] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ كان إذا رُفعت المائدة من بين يديه قال: اللهم اجعلها نعمة محضورة، مشكورة، موصولة بالجنة».

رواه ابن الأشعث. ٢.

[٢/٩٤] وبالإسناد عن علي عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رُفعت المائدة من بين يديه يقول: الحمد لله».

رواه ابن الأشعث. ٣.

[٣/٩٥] وعن عبد الله بن سليمان، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يأكل طعاماً ولا يشرب شراباً إلا قال: اللهم بارك لنا فيه، وأبدلنا به خيراً منه، إلا اللبن فإنه كان يقول: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه».

رواه البرقي والكليني. ٤.

[٤/٩٦] وعن إبراهيم بن مهزّم، عن رجل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رُفعت المائدة قال: اللهم أكثر وأطبت؛ فباركه، وأشبع وأرويت؛ فهنّئه، الحمد لله الذي يطعم ولا يُطعم». رواه البرقي والكليني. ٥.

١. أمالي الطوسي: ٥٩٠ ح ١٢٢٥، الجعفريات: ٥٠ ح ١٣٠ و ١٣١.

٢. الجعفريات: ٣٥٤ ح ١٤٣٥.

٣. الجعفريات: ٢٦٤ ح ٢٦٥ و ١٠٧٩.

٤. المحاسن: ٤٩١ ح ٥٧٦ و ٥٧٧؛ الكافي: ٦ ح ٣٣٦ و ١ ح ٦ و ٢٢٦ ح ٣.

٥. المحاسن: ٤٣٦ ح ٢٧٧؛ الكافي: ٦ ح ٢٩٤ و ١٥.

[٥ / ٩٧] وعن السَّكُونِي، عن جعفر، عن آبائه عليهم السلام: «أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أفطر قال: اللَّهُمَّ لك صُمننا، وعلى رزقك أفطرننا، فتقبَّله منَّا، ذهبَ الظَّمأُ، وابتلَّت العروقُ، وبقي الأجر». رواه الكليني^١.

[٦ / ٩٨] وعن عبد الله بن ميمون القَدَّاح، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام: قال: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا شرب قال: الحمد لله الذي سقانا عذبا زلالاً برحمته، ولم يسقنا ملحاً أجاجاً بذنوبنا». رواه الحَمِيرِي^٢.

(٢٦) باب ما جاء في تخلُّل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الطعام

[١ / ٩٩] عن وَهْب بن عبد ربَّه، قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يتخلَّل، فنظرت إليه فقال: «إنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتخلَّل، وهو يطيبُ الفم». رواه البرقي والكليني وابن بابويه^٣.

[٢ / ١٠٠] وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخلَّل بكلِّ ما أصاب، ما خلا الخوص والقصب». رواه البرقي والكليني^٤.

(٢٧) باب ما جاء في قدح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقصعته وقعبه

[١ / ١٠١] عن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعجبه أن يشرب في القدح الشامي، ويقول: هو من أنظف آنتيكم». رواه البرقي والكليني^٥.

[٢ / ١٠٢] وعن محمَّد بن قيس، عن أبي جعفر محمَّد بن علي الباقر عليهما السلام في حديث:

١. الكافي ٤: ٩٥ ح ١.

٢. قرب الإسناد: ٢١ ح ٧١.

٣. المحاسن: ٥٥٩ ح ٩٣١ و ٥٦٠ ح ٩٣٧؛ الكافي ٦: ٣٧٦ ح ٣؛ الفقيه ٣: ٣٥٧ ح ٤٢٦٣.

٤. المحاسن: ٥٦٤ ح ٩٦٥؛ الكافي ٦: ٣٧٧ ح ١٠.

٥. المحاسن: ٥٧٧ ح ٣٨، الكافي ٦: ٣٨٦ ح ٨.

«أن رسول الله ﷺ كانت له قَصْعَةٌ تسمّى السعة وكان له قَعْبٌ،^١ يسمّى الرّي». رواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).^٢

(٢٨) باب ما جاء في صفة فاكهة رسول الله ﷺ

[١ / ١٠٣] عن عمر بن أبان الكلبي، قال: سمعت أبا جعفر وأبا عبد الله عليه السلام يقولان: «ما على وجه الأرض ثمرة كانت أحبّ إلى رسول الله ﷺ من الرمان، وقد كان والله إذا أكلها أحبّ أن لا يشركه فيها أحد». رواه البرقي والكليني.^٣

[٢ / ١٠٤] وعن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان النبي ﷺ يعجبه الرطب بالخربز».

رواه البرقي والكليني.^٤

[٣ / ١٠٥] وعن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: «أكل النبي ﷺ البطيخ بالسكر، وأكل البطيخ بالرطب». رواه البرقي والكليني.^٥

[٤ / ١٠٦] وعن ابن القدّاح وطلحة بن زيد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ أوّل ما يفطر عليه في زمن الرطب الرطب، وفي زمن التمر التمر». رواه البرقي والكليني.^٦

١. القعب: القَدَح.

٢. أمالي الصدوق: ٦٧ ح ٢، الفقيه ٤: ١٧٨ ح ٥٤٠٦.

٣. المحاسن: ٥٤١ ح ٨٣٣؛ الكافي ٦: ٣٥٢ ح ٣.

٤. المحاسن: ٥٥٦ ح ٥٥٧، ٩١٥-٩١٧؛ الكافي ٦: ٣٦١ ح ٤٠٢؛ والخربز: البطيخ.

٥. المحاسن: ٥٥٧ ح ٩١٨؛ الكافي ٦: ٣٦٢ ح ٥.

٦. المحاسن: ٥٣١ ح ٧٨٢، ٧٨٣؛ الكافي ٤: ١٥٣ ح ٦.

(٢٩) باب ما جاء في صفة شراب رسول الله ﷺ

[١/١٠٧] عن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام: قال: «قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أيّ الشراب أحبّ إليك؟ قال: الحلو البارد». رواه البرقي. ١

[٢/١٠٨] وعن عبد الله بن مُسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أفطر بدأ بحلواء يفطر عليها، فإن لم يجد فسكّرة، أو تمرات، فإذا أعوز ذلك كلّه فساء فاتر». رواه الكليني. ٢

[٣/١٠٩] وعن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام: قال: «كان النبي ﷺ يستهدي من ماء زمزم وهو بالمدينة». رواه البرقي والطوسي. ٣

[٤/١١٠] وعن السّكوني، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام: قال: «كان رسول الله ﷺ يحبّ من الشراب اللبن». رواه البرقي. ٤

[٥/١١١] وعن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «كان رسول الله ﷺ يعجبه العسل، وكان بعض نسائه تأتيه به، فقالت له إحداهنّ: إنّي ربّما وجدت منك الرائحة، قال: فتركه». رواه البرقي. ٥

[٦/١١٢] وعن عبد الرحمن بن الحجّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «أفطر رسول الله ﷺ عشية خميس في مسجد قُبا، فقال: هل من شراب؟ فأتاه أوس بن خويّ

١. المحاسن: ٤٠٧ ح ١٢٤.

٢. الكافي: ٤: ١٥٢ ح ١٥٣.

٣. المحاسن: ٥٧٤ ح ٢٢؛ تهذيب الأحكام ٥: ٥٢٢ ح ١٦٥٧.

٤. المحاسن: ٤٩٠ ح ٤٩١ ح ٥٧٤.

٥. المحاسن: ٤٩٩ ح ٦١٧.

الأنصاري بعُسّ^١، مخيض بعسل، فلمّا وضعه على فيه نحّاه، ثمّ قال: شرابان يُكتفى بأحدهما عن صاحبه، لا أشربه ولا أحرمه، ولكن أتواضع لله، فإنّ من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبّر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بدّر حرمة الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبّه الله^٢. رواه الأهوازي والكليني^٣.

(٣٠) باب ما جاء في صفة شرب رسول الله ﷺ

[١ / ١١٣] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أكل اللحم لا يعجل بشرب الماء، فقال له بعض أصحابه من أهل بيته: يا رسول الله، ما أقلّ شربك للماء على اللحم، فقال: ليس أحد يأكل هذا الورك ثمّ يكفّ عن شرب الماء إلى آخر الطعام إلاّ استمرأ^٤. رواه ابن الأشت^٥.

[٢ / ١١٤] وبالإسناد عن علي عليه السلام قال: «تفقدت النبي صلى الله عليه وآله غير مرّة، وهو إذا شرب تنفّس ثلاثاً، مع كلّ واحدة منها تسمية إذا شرب، ويحمد إذا انقطع، فسألته عن ذلك فقال: يا علي، شكر الله تعالى بالحمد، وتسميته من الداء^٦. رواه ابن الأشت^٧.

[٣ / ١١٥] وعن حاتم بن إسماعيل المدني، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يشرب وهو قائم، ثمّ شرب من فضل وضوئه وهو قائم، فالتفت إلى الحسن عليه السلام، فقال: بأبي أنت وأمي يا بُنيّ، إنّي رأيت جدك رسول الله ﷺ

١. العُسّ: القدح الكبير، والمخيض: اللبن الذي قد مُحض وأخذ زُبده.

٢. الزهد: ٩٥ ح ١٤٨، الكافي ٢: ١٢٢ ح ٣.

٣. الجعفریات: ٢٦٦ ح ١٠٨٨. وانظر المحاسن: ٥٧٢ ح ١٣.

٤. الجعفریات: ٢٦٦ ح ٢٦٧، ١٠٩٠.

٥. وفي الكافي: الحسين عليه السلام.

صنع هكذا». رواه البرقي والكليني^١.

[٤ / ١١٦] وعن عبدالله بن محمد بن علي التميمي، عن الرضا، عن آبائه، عن علي عليه السلام: أنه شرب قائماً وقال: هكذا رأيت النبي ﷺ فعل. رواه ابن بابويه في (العيون)^٢.

(٣١) باب ما جاء في تعطر رسول الله ﷺ

[١ / ١١٧] عن إسحاق الطويل العطار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ ينفق في الطيب أكثر مما ينفق في الطعام». رواه الكليني^٣.

[٢ / ١١٨] وعن أبي البختري، عن جعفر، عن أبيه، عن علي عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ كان يتطيب بالمسك حتى يرى ويبصه^٤، في مفارقه». رواه الحميري والكليني^٥.

[٣ / ١١٩] وعن عبدالله بن مسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كانت لرسول الله ﷺ مَسْكَة^٦، إذا هو توضأ أخذها بيده وهي رطبة، فكان إذا خرج عرفوا أنه رسول الله ﷺ برائحته». رواه الكليني^٧.

(٣٢) باب كيف كان كلام رسول الله ﷺ

[١ / ١٢٠] عن الحسن بن علي بن فضال، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام

١. المحاسن: ٥٨٠ ح ٥٠؛ الكافي ٦: ٣٨٣ ح ٦.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٦ ح ٢٩٤.

٣. الكافي ٦: ٥١٢ ح ١٨.

٤. الوبيص: البريق.

٥. قرب الإسناد: ١٥١ ح ٥٤٧، الكافي ٦: ٥١٤ ح ٥١٥ ح ٢.

٦. المسكة: وعاء المسك.

٧. الكافي ٦: ٥١٥ ح ٣.

قال: «ما كلّم رسول الله ﷺ العباد بكنهه عقله قطّ». رواه الكليني^١.

[٢/١٢١] وعن غياث بن إبراهيم، عن أبي عبد الله، عن أبيه، عن جدّه ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب حمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدى هدى محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة، ويرفع صوته، وتحماز وجنتاه، ويذكر الساعة، ثمّ يقول: بُعثت أنا والساعة كهاتين ويجمع بين سببتيه من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً^٢ فعليّ وإيّاي». رواه المفيد في (الأمالي)^٣.

[٣/١٢٢] وعن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن الرضا، عن آبائه، عن علي بن الحسين، عن الحسن بن علي ﷺ: «أنّه سأل خاله هند بن أبي هالة التميمي وكان وصافاً عن منق رسول الله ﷺ، فقال: كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السّكت، لا يتكلّم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه^٤، يتكلّم بجوامع الكليم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير؛ دمثاً^٥، ليس بالجافي ولا بالمهين، تعظم عنده النعمة وإن دقت^٦، لا يذمّ منها شيئاً، غير أنّه كان لا يذمّ ذوّاقاً ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطني الحقّ لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتّى يتصرّ له، إذا أشار أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث أتصل بها فضرّب براحتة اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غصّ طرفه، جُلّ ضحكته التبسّم، يفتّر عن مثل

١. الكافي ١: ٢٣ ح ١٥ و ٨: ٢٦٨ ح ٣٩٤.

٢. الضياع: جمع ضيعة، وهي العقار.

٣. أمالي المفيد: ٢١١ ٢١٢ ح ١. وانظر: أمالي الطوسي: ٣٣٧ ح ٦٨٦.

٤. الأشداق: جوانب الفم، وإنّما يكون ذلك لرُحّب شديقه، والعرب تمتدح بذلك.

٥. أراد به أنّه كان ليّن الخلق في سهولة.

٦. أي: صغرت.

حبّ الغمام»^١ رواه ابن بابويه في (العيون) و (معاني الأخبار).^٢

(٣٣) باب ما جاء في صفة ضحك رسول الله ﷺ

[١ / ١٢٣] عن أبي موسى المجاشعي، عن أبي الحسن الرضا، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «كان ضحك النبي ﷺ التبسّم، فاجتاز ذات يوم بمئة من الأنصار وإذا هم يتحدّثون ويضحكون بملء أفواههم، فقال: يا هؤلاء، من غرّه منكم أمله، وقصر به في الخير عمله؛ فليطّلع في القبور، وليعتبر بالنشور، واذكروا الموت فإنّه هادم اللذات». رواه الطوسي في (الأمالي).^٣

[٢ / ١٢٤] وعن معمر بن خلاد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «إنّ رسول الله ﷺ كان يأتيه الأعرابي فيهدي له الهدية، ثمّ يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا، فيضحك رسول الله ﷺ وكان إذا اغتمّ يقول: ما فعل الأعرابي، ليته أانا». رواه الكليني.^٤

(٣٤) باب ما جاء في مزاح رسول الله ﷺ

[١ / ١٢٥] عن يونس الشيباني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لقد كان رسول الله ﷺ يداعب الرجل يريد أن يسره». رواه الكليني.^٥

[٢ / ١٢٦] وعن الحسين بن زيد، قال: قلت لجعفر بن محمد عليه السلام: جُعلت فداك،

١. يعني البرد، شبه به ثغره عليه السلام في بياضه وصفائه وبرّده.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣١٧ ح ١، معاني الأخبار: ٨١ ح ١.

٣. أمالي الطوسي: ٥٢٢ ح ١١٥٦.

٤. الكافي ٢: ٦٦٣ ح ١.

٥. الكافي ٢: ٦٦٣ ح ٣.

هل كانت في النبي ﷺ مداعبة؟ فقال: «وصفه الله تعالى بخلق عظيم في المداعبة، إن الله بعث أنبياءه وكانت فيهم كزازة،^١ وبعث محمداً ﷺ بالرأفة والرحمة، وكان من رأفته لأُمَّته مداعبته لهم لكيلا يبلغ بأحدٍ منهم التعظيم حتى لا ينظر إليه، ثم قال: حدّثني أبي محمّد، عن أبيه علي، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي ﷺ: قال: كان النبي ﷺ ليسرّ الرجل من أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة، وكان ﷺ يقول: إن الله يبغض المعبّس في وجه إخوانه». رواه ابن زهرة في (أربعينه).^٢

[٣ / ١٢٧] وعن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «أبصر رسول الله ﷺ امرأةً عجوزاً درّءاً،^٣ فقال ﷺ: أما إنّه لا تدخل الجنّة عجوز درءاء، فبكت، فقال لها: ما يُبيكيك؟ فقالت: يا رسول الله، إنّي درءاء، فضحك رسول الله ﷺ وقال: لا تدخلين على حالك هذه».

قال: «ونظر إلى امرأةٍ رمّصاء العينين،^٤ فقال ﷺ: أما إنّه لا تدخل الجنّة رمصاء العين، فبكت وقالت: يا رسول الله، فإنّي في النار؟ فقال: لا، ولكن لا تدخلين الجنّة على مثل صورتك هذه، ثمّ قال ﷺ: لا يدخل الجنّة أعور ولا أعمى». رواه ابن الأشعث.^٥

(٣٥) باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ

[١ / ١٢٨] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي ﷺ قال: «إنّ يهودياً كان له على رسول الله ﷺ دنائير فتقاضاه، فقال له: يا يهودي،

١. الكزازة: الانقباض وعدم الانبساط.

٢. الأربعون حديثاً: ٨٢٨١ ح ٣٩.

٣. الدرءاء: هي التي سقطت أسنانها وبقيت أصولها.

٤. الرّمص: وسخ يجتمع في موق العين.

٥. الجعفرّيّات: ٣١٦٣١٥ ح ١٣٠٦.

ما عندي ما أعطيك، قال: فإني لأفارقك يا محمد حتى تقضييني، فقال: إذا أجلس معك، فجلس معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهدّدونه ويتواعدونه، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: ما الذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول الله، يهودي يجسك؟! فقال ﷺ: لم يبعثني ربي بأن أظلم معاهداً ولا غيره. فلما علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت الذي فعلت إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإني قرأت في التوراة: محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب ولا مُتَزَيّ بالفحش ولا قول الخنا،^١ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله، وكان اليهودي كثير المال». رواه ابن بابويه في (الأمالي) وابن الأشتع.^٢

[٢ / ١٢٩] وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن النبي ﷺ بينا هو ذات يوم عند عائشة إذا استأذن عليه رجل، فقال رسول الله ﷺ: بس أخو العشيّة، فقامت عائشة فدخلت البيت، وأذن رسول الله ﷺ للرجل، فلما دخل أقبل عليه بوجهه وبشّره يحدثه، حتى إذا فرغ وخرج من عنده قالت عائشة: يا رسول الله، بينا أنت تذكر هذا الرجل بما ذكرته به إذ أقبلت عليه بوجهك وبشرك؟! فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: إن من شرّ عباد الله من تكره مجالسته لفحشه». رواه الأهوازي والكليني.^٣

[٣ / ١٣٠] وعن معمر بن خلاد، قال: هلك مولى لأبي الحسن عليه السلام يقال له: سعد، فقال: أشّر عليّ برجل له فضل وأمانة، فقلت: أنا أشير عليك؟! فقال شبه المغضب: إن رسول الله ﷺ كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد.

١. الخنا: الفحش في القول.

٢. أمالي الصدوق: ٣٧٧٣٧٦ ح ٦، الجعفریات: ٣٠٣٣٠٢ ح ١٢٤٦.

٣. الزهد: ٤٤ ح ١٦، الكافي: ٢ ح ٣٢٦.

رواه البرقي.^١

[٤ / ١٣١] وعن عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله

يقول لشيءٍ قد مضى: لو كان غيره. رواه الكليني.^٢

[٥ / ١٣٢] وعن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن

علي عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أهديت له هديّة وعنده جلساؤه فقال: أنتم شركائي فيها.

رواه ابن الأشعث.^٣

[٦ / ١٣٣] وبالإسناد عن علي عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كذب عنده الرجل تبسّم

وقال: إنّه ليقول قولاً.

رواه ابن الأشعث.^٤

[٧ / ١٣٤] وعن محمّد بن الفضيل رفعه عنهم: قالوا: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا أكل لقم

من بين عينيه، وإذا شرب سقى من على يمينه. رواه الكليني.^٥

[٨ / ١٣٥] وعن المثني الحنّاط، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا

ورد عليه أمر يسرّه قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغمّم به قال:

الحمد لله على كلّ حال. رواه الكليني.^٦

[٩ / ١٣٦] وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما أكل رسول الله صلى الله عليه وآله

متكئاً منذ بعثه الله عزّ وجلّ إلى أن قبضه تواضعاً لله عزّ وجلّ، وما رئي ركبتاه أمام

١. المحاسن: ٦٠١ ح ٢١.

٢. الكافي: ٢: ٦٣ ح ١٣.

٣. الجعفريات: ٢٥٢ ح ١٠١٤.

٤. الجعفريات: ٢٧٩ ح ١١٥٣.

٥. الكافي: ٦: ٢٩٩ ح ١٧.

٦. الكافي: ٢: ٩٧ ح ١٩، أمالي الطوسي: ٥٠ ح ٦٤.

جليسه في مجلس قطّ،^١ ولا صافح رسول الله ﷺ رجلاً قطّ فنزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده، ولا كافأ رسول الله ﷺ بسبيته قطّ، قال الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون/ ٩٦] ففعل، وما منع سائلاً قطّ، إن كان عنده أعطى، وإلا قال: يأتي الله به، ولا أعطى على الله عزّ وجلّ شيئاً قطّ إلاّ أجازه الله، إن كان ليعطي الجنة فيجيز الله عزّ وجلّ له ذلك. رواه الكليني.^٢

[١٠/ ١٣٧] وعن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فجاء سائل فقام إلى مكتل فيه تمر فملأ يده فناوله، ثمّ جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله، ثمّ جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله، ثمّ جاء آخر فقال: الله رازقنا وإياك، ثمّ قال: إنّ رسول الله ﷺ كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلاّ أعطاه، فأرسلت إليه امرأة ابناً لها فقالت: انطلق إليه فاسأله، فإن قال لك: ليس عندنا شيء، فقل: أعطني قميصك، قال: فأخذ قميصه فرمى به إليه وفي نسخة أخرى: فأعطاه فأدّبه الله تبارك وتعالى على القصد فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء/ ٢٩]. رواه الكليني.^٣

[١١/ ١٣٨] وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ رسول الله ﷺ أتى باليهودية التي سمّت الشاة للنبي ﷺ فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: قلت: إن كان نبياً لم يضرّه، وإن كان ملكاً أرحت الناس منه، قال: فعفا رسول الله ﷺ عنها. رواه الكليني.^٤

١. وفي رواية الترمذي: ولم ير مقدماً ركبته بين يدي جليسه له.

٢. الكافي ٨: ١٦٤ ح ١٧٥.

٣. الكافي ٤: ٥٦٥٥ ح ٧.

٤. الكافي ٢: ١٠٨ ح ٩.

[١٣٩/١٢] وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزل رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين والمسلمون قيام على شفير الوادي ينتظرون متى ينقطع السيل، فقال رجل من المشركين لقومه: أنا أقتل محمداً، فجاء وشد على رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف، ثم قال: من ينجيك مني يا محمداً؟ فقال: ربي وربك، فنسفه جبرئيل عن فرسه فسقط على ظهره، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك مني يا غورث؟ فقال: جودك وكرمك يا محمداً، فتركه وقام [الرجل] وهو يقول: والله لأنت خير مني وأكرم. رواه الكليني^١.

[١٤٠/١٣] وعن حريز، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله مكة يوم افتتحها؛ فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست، فأخذ بعضادتي الباب فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا: نظنّ خيراً ونقول خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت.

قال: فيأتي أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، [يوسف/٩٢] ألا إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا ينفّر صيدها، ولا يُعضد شجرها، ولا يُحتلى خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه للقبر والبيوت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إلا الإذخر. رواه الكليني^٢.

[١٤١/١٦] وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس الظهر فخفف في الركعتين الأخيرتين فلما انصرف قال له الناس: هل حدث

١. الكافي ٨: ١٢٧ ح ٩٧.

٢. الكافي ٤: ٢٢٥ ح ٣.

في الصلاة حدث؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: خففت في الركعتين الأخيرتين، فقال لهم: أما سمعتم صراخ الصبي؟ رواه الكليني^١.

[١٧/١٤٢] وعن أبي قتادة القمّي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ وجوهاً خلقهم من خلقه وأرضه؛ لقضاء حوائج إخوانهم، يرون الحمد مجداً، والله عزَّ وجلَّ يحبُّ مكارم الأخلاق، وكان فيها خاطب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله أن قال له: يا محمد ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، [القلم/ ٤] قال: السخاء وحسن الخلق. رواه الطوسي في (الأمال).^٢

(٣٦) باب ما جاء في تواضع رسول الله صلى الله عليه وآله

[١/١٤٣] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج على نفر من أصحابه فقالوا له: مرحباً بسيّدنا ومولانا، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله غضباً شديداً، ثمّ قال: لا تقولوا هكذا، ولكن قولوا: مرحباً بنبيّنا ورسول ربّنا، قولوا السداد من القول ولا تغلوا في القول فتمرقوا. رواه ابن الأشعث.^٣

[٢/١٤٤] وعن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام: قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مسجد قبا، فأتي بإناء فيه لبن حليب خيضرٍ بعسل، فشرّب منه حسوة أو حسوتين،^٤ ثمّ وضعه، فقيل له: يا رسول الله، أتدعه محرّماً؟ قال: لا، اللهمّ إني أدعه تواضعاً لله. رواه البرقي.^٥

١. الكافي ٦: ٤٨ ح ٤.

٢. أمالي الطوسي: ٣٠٢ ح ٥٩٩.

٣. الجعفريات: ٣٠٥ ح ١٢٥٧؛ الغضب يدل على الكراهة لا الحرمة.

٤. أي: مرّة أو مرّتين.

٥. المحاسن: ٤٠٩ ح ١٣٣؛ الزهد، للأهوازي: ٩٥ ح ١٤٨، الكافي ٢: ١٢٢ ح ٣.

[٣ / ١٤٥] وعن معاذ بيّاع الأكسية قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل جلب عنز أهله.

رواه الكليني^١.

[٤ / ١٤٦] وعن السكوني، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله حمل جهازه،^٢ على راحلته وقال: هذه حجّة لا رياء فيها ولا سمعة. رواه البرقي^٣.

[٥ / ١٤٧] وعن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجيب الدعوة. رواه البرقي^٤.

(٣٧) باب ما جاء في صفة نوم رسول الله صلى الله عليه وآله

[١ / ١٤٨] عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل أكل العبد، ويجلس جلسة العبد، وكان صلى الله عليه وآله يأكل على الحضيض،^٥ وينام على الحضيض. رواه البرقي والكليني^٦.

[٢ / ١٤٩] وعن محمد بن مروان، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ألا أخبركم بما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إذا أوى إلى فراشه؟ قلت: بلى، قال: كان يقرأ آية الكرسي، ويقول: بسم الله، آمنت بالله وكفرت بالطاغوت، اللهم احفظني في منامي وفي يقظتي. رواه الكليني^٧.

١. الكافي ٥: ٨٦ ح ٢.

٢. جهاز المسافر: أدواته وما يصلح حاله.

٣. المحاسن: ٨٨ ح ٣٢.

٤. المحاسن: ١٠ ح ١٣٩.

٥. الحضيض: قرار الأرض.

٦. المحاسن: ٥٧ ح ٣٨٧؛ الكافي ٦: ٢٧١ ح ٦.

٧. الكافي ٢: ٥٣٦ ح ٤.

[٣ / ١٥٠] وعن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أوى إلى فراشه قال: اللهم باسمك أحيى وباسمك أموت، فإذا قام من نومه قال: الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور. رواه الكليني.^١

[٤ / ١٥١] وعن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا صلّى ركعتين قبل صلاة الغداة اضطجع على شقّه الأيمن، وجعل يده اليمنى تحت خدّه الأيمن، ثم قال: استمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واستعصمت بحبل الله المتين، أعوذ بالله من فورة العرب والعجم، وأعوذ بالله من شرّ شياطين الإنس والجنّ، توكلت على الله، طلبت حاجتي من الله، حسبي الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم. رواه ابن الأشعث.^٢

(٣٨) باب ما جاء في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله

[١ / ١٥٢] عن عبد الله العلوي، عن أبيه، عن جدّه، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لما قدم عدّي بن حاتم إلى النبي صلى الله عليه وآله أدخله النبي صلى الله عليه وآله بيته، ولم يكن في البيت غير خَصْفَةٍ،^٣ ووسادة من آدم،^٤ فطرحها رسول الله صلى الله عليه وآله لعدّي بن حاتم. رواه الكليني.^٥

[٢ / ١٥٣] وعن عبد الله بن سنان، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: دخل على النبي صلى الله عليه وآله رجل وهو على حصير وقد أثر في جسمه، ووسادة ليف قد أثرت في خدّه، فجعل يمسحه وهو يقول: ما رضى بهذا كسرى ولا قيصر، إنهم ينامون على الحرير

١. الكافي ٢: ٥٣٩ ح ١٦.

٢. الجعفریات: ٦٢ ح ١٨١.

٣. الخَصْفَة: شيء يُعمل من خوص النخل.

٤. أي: الجلود.

٥. الكافي ٢: ٦٥٩ ح ٣.

والدياج، وأنت على هذا الحصير؟! فقال رسول الله ﷺ: لأننا خير منهم والله، ما أنا والديا؟ إنما مثل الدنيا كمثلي راكب مرّ على شجرة ولها فيعُ فاستظلّ تحتها، فلما أن مال الظلّ عنها ارتحل فذهب وتركها.

رواه الأهوازي في (الزهد)، يروى مثله عن عمر العدوي^١.

(٣٩) باب ما جاء في عبادة رسول الله ﷺ

[١٥٤ / ١] عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لم تُتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة، ألا أكون عبداً شكوراً؟ قال: وكان رسول الله ﷺ يقوم على أطراف أصابع رجله، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طَهَّ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، [طه / ١ و ٢]. رواه الكليني^٢.

[١٥٥ / ٢] وعن معاوية بن عمّار، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول وذكر صلاة النبي ﷺ: كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه، ويوضع سواكه تحت فراشه، ثم ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس ثم قلب بصره في السماء، ثم تلا الآيات من آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، [آل عمران / ١٩٠] ثم يستن^٣ ويتطهر، ثم يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات، على قدر قراءته ركوعه، وسجوده على قدر ركوعه، يركع حتى يقال: متى يرفع رأسه؟ ويسجد حتى يقال: متى يرفع رأسه؟ ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء، ثم يستنّ ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيصلي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ

١. الزهد: ٨٩ ح ١٣٤.

٢. الكافي ٢: ٩٥ ح ٦.

٣. يستنّ: أي يستاك.

فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ويقلب بصره في السماء، ثم يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصليّ الركعتين، ثم يخرج إلى الصلاة.

رواه الطوسي، والكليني مختصراً^١.

[٣/١٥٦] وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصليّ من الليل

ثلاث عشرة ركعة، منها الوتر وركعتا الفجر؛ في السفر والحضر. رواه الكليني^٢.

[٤/١٥٧] وعن الفضيل بن يسار، والفضل بن عبد الملك، وبكير، قالوا: سمعنا

أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصليّ من التطوّع مثليّ الفريضة، ويصوم من التطوّع مثليّ الفريضة. رواه الكليني^٣.

[٥/١٥٨] وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: استغفر رسول الله صلى الله عليه وآله في وتره

سبعين مرّة.

رواه الطوسي، والعيّاشي في (تفسيره)^٤.

[٦/١٥٩] وعن أبي بصير أيضاً، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا

دخل العشر الأواخر شدّ المنزر، واجتنب النساء، وأحى الليل، وتفرّغ للعبادة. رواه الكليني وابن بابويه^٥.

[٧/١٦٠] وعن محمّد وزيد ابنيّ علي بن الحسين، عن أبيهما علي بن الحسين عليه السلام قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يرفع يديه إذا ابتهل ودعا كمن يستطعم. رواه الشيخ في (الأمالي)^٦.

١. تهذيب الأحكام ٢: ٣٥٩٣٥٨ ح ١٣٧٧؛ الكافي ٣: ٤٤٥ ح ١٣.

٢. الكافي ٣: ٤٤٦ ح ١٤.

٣. الكافي ٣: ٤٤٣ ح ٣.

٤. تهذيب الأحكام ٢: ١٣٩ ح ٥٠١؛ تفسير العيّاشي ١: ١٦٥ ح ١٣.

٥. الكافي ٤: ١٥٥ ح ٣، الفقيه ٢: ١٥٦ ح ٢٠٢٠.

٦. أمالي الطوسي: ٥٨٥ ح ١٢١١.

[٨ / ١٦١] وعن الفضل بن أبي قرّة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ثلاث تناسخها الأنبياء من آدم عليه السلام حتى وصلن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا أصبح يقول: اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي، وبقيناً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، ورضني بما قسمت لي. قال أبو جعفر الكليني: ورواه بعض أصحابنا وزاد فيه: حتى لا أحبّ تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت، يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، وصلى الله على محمد وآله. رواه الكليني^١.

[٩ / ١٦٢] وعن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح قال: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً على كلّ حال ثلاث مئة وستين مرّة وإذا أمسى قال مثل ذلك.

رواه الكليني، وابن بابويه في (علل الشرائع) والطوسي في (الأمالي)^٢.

[١٠ / ١٦٣] وعن الحارث بن المغيرة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة، ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرّة، قال: قلت: كان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه؟ قال: كان يقول: أستغفر الله، أستغفر الله سبعين مرّة ويقول: وأتوب إلى الله، وأتوب إلى الله سبعين مرّة. رواه الكليني والأهوازي^٣.

(٤٠) باب ما جاء في قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله

[١ / ١٦٤] عن زيد بن علي، عن أبي جعفر عليه السلام وعمرو بن شمر عن أبي عبد

١. الكافي ٢: ٥٢٤ ح ١٠.

٢. الكافي ٢: ٥٠٣ ح ٤؛ علل الشرائع: ٣٥٤ ح ١؛ أمالي الطوسي: ٥٩٧ ح ١٢٤٠.

٣. الكافي ٢: ٥٠٥ ح ٤، الزهد: ١١٤ ح ١٩٥.

الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن. رواه العياشي وفرات الكوفي في (تفسيريهما).^١

[٢ / ١٦٥] وعن أبي هارون المكفوف، عن أبي عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل إلى منزله واجتمعت عليه قريش يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ويرفع بها صوته، فتولي قريش فراراً، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أذْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾، [الإسراء / ٤٦]. رواه الكليني.^٢

[٣ / ١٦٦] وعن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ كان يقف على الصفا بقدر ما يقرأ سورة البقرة مترتلاً. رواه الكليني.^٣

(٤١) باب ما جاء في صوم رسول الله ﷺ

[١ / ١٦٧] عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أول ما بُعث يصوم حتى يقال ما يفطر، ويفطر حتى يقال ما يصوم، ثم ترك ذلك وصام يوماً وأفطر يوماً، وهو صوم داود ﷺ، ثم ترك ذلك وصام الثلاثة الأيام الغر، ثم ترك ذلك وفرّقها في كل عشرة أيام يوماً، خمسين بينها أربعاء، فقبض ﷺ وهو يعمل ذلك.

رواه الكليني، وابن بابويه في (الخصال).^٤

[٢ / ١٦٨] وعن محمد بن مروان، قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى يقال لا يفطر، ثم صام يوماً وأفطر يوماً، ثم صام الإثنين

١. تفسير العياشي ٢: ٢٩٥ ح ٨٥؛ تفسير فرات الكوفي: ٢٤١ ح ٢٤٢ ح ٣٢٧.

٢. الكافي ٨: ٢٦٦ ح ٣٨٧.

٣. الكافي ٤: ٤٣٢ ح ١.

٤. الكافي ٤: ٩٠ ح ٢، الخصال ٢: ٣٩٠ ح ٨٠.

والخميس، ثم آل من ذلك إلى صيام ثلاثة أيام في الشهر: الخميس في أول الشهر، وأربعاء في وسط الشهر، وخميس في آخر الشهر، وكان يقول: ذلك صوم الدهر. رواه الكليني وابن بابويه.^١

[٣/١٦٩] وعن عبدالله بن سنان، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكثر الصوم في شعبان، يقول: إن أهل الكتاب تنحسوا به فخالفوهم. رواه الأشعري في (النوادر).^٢

(٤٢) باب ما جاء في بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله

[١/١٧٠] عن عبدالله بن ميمون القدّاح، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: «دعا النبي صلى الله عليه وآله يوم عرفة حين غابت الشمس، فكان آخر كلامه هذا الدعاء وهملت عيناه بالبكاء ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من الفقر، ومن تشّيت الأمر، ومن شرّ ما يحدث في الليل والنهار، أصبح ذليّ مستجيراً بعزّك، وأصبح وجهي الفاني مستجيراً بوجهك الباقي، يا خير من سُئِلَ، وأجود من أعطى، وأرحم من استُرِحِمَ، جَلَلَنِي بِرَحْمَتِكَ، وألبسني عافيتك، واصرف عني شرّ جميع خلقك». رواه الحميري.^٣

[٢/١٧١] وعن عبدالله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة في ليلتها، ففقدته من الفراش، فدخلها من ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي، وهو يقول: اللهم لا تنزع مني صالح ما أعطيتني أبداً، اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، اللهم لا تُشِمِت بي عدواً ولا حاسداً أبداً، اللهم لا تردني في سوء استنقذني منه أبداً. قال: فانصرفت أم سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله»

١. الكافي ٤: ٩٠ ح ٣؛ الفقيه ٢: ٨١ ح ١٧٨٧.

٢. النوادر: ١٩ ح ٤.

٣. قرب الإسناد: ٢١ ح ٧٢. وانظر الكافي ٤: ٤٦٤ ح ٤٦٥.

لبكائها، فقال لها: ما يبكيك يا أم سلمة؟ فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ولم لا أبكي وأنت بالمكان الذي أنت به من الله، قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تسأله أن لا يُشمت بك عدواً أبداً، وأن لا يردك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع منك صالح ما أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً؟ فقال: يا أم سلمة، وما يؤمنني؟ وإنّما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان». رواه القمي في (تفسيره).^١

[٣/١٧٢] وعن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمع النبي صلى الله عليه وآله امرأة حين مات عثمان بن مظعون وهي تقول: هنيئاً لك يا أبا السائب الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: وما علمك، حسبك أن تقولي: كان يجب الله ورسوله، فلما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله هملت عين رسول الله صلى الله عليه وآله بالدموع، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسطخ الرب، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون، ثم رأى النبي صلى الله عليه وآله في قبره خللاً فسوّاه بيده، ثم قال: إذا عمل أحدكم عملاً فليتقن، ثم قال: إلحق بسلفك الصالح عثمان بن مظعون». رواه الكليني.^٢

(٤٣) باب ما جاء في حياء رسول الله صلى الله عليه وآله

[١/١٧٣] عن يزيد بن خليفة الخولاني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان نبي الله صلى الله عليه وآله حياءً كريماً». رواه الكليني.^٣

[٢/١٧٤] وعن حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن النبي صلى الله عليه وآله كان في مكان ومعه رجل من أصحابه وأراد قضاء حاجة فقال: اتت الخشبيتين -يعني النخلتين- فقل لهما: اجتمعا بأمر رسول الله، فقال لهما: اجتمعا بأمر رسول الله، فاجتمعتا، فاستتر بهما

١. تفسير القمي ٢: ٤٩.

٢. الكافي ٣: ٢٦٢ ٢٦٣ ح ٤٥.

٣. الكافي ٣: ٢٥٢ ح ٨.

النبي ﷺ فقضى حاجته، ثم قام فجاء الرجل فلم ير شيئاً^١. رواه الصّفار.

(٤٤) باب ما جاء في حجامه رسول الله ﷺ

[١/١٧٥] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ما وجع رسول الله ﷺ وجعاً قطّ إلاّ كان فزعه^٢، إلى الحجامه. رواه ابن الأشعث^٣.

[٢/١٧٦] وعن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: احتجم رسول الله ﷺ حجه مولىّ لبني بياضة، وأعطاه، ولو كان حراماً ما أعطاه، فلما فرغ قال له رسول الله ﷺ: أين الدم؟ قال: شربته يا رسول الله، فقال: ما كان ينبغي لك أن تفعل، وقد جعله الله عزّ وجلّ لك حجاباً من النار، فلا تعد. رواه الكليني وابن بابويه^٤.

[٣/١٧٧] وعن يونس بن يعقوب، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: احتجم رسول الله ﷺ يوم الإثنين، وأعطى الحجام بُراً. رواه ابن بابويه في (الخصال)^٥.
[٤/١٧٨] وعن صفوان بن يحيى الجمال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يجتمع بثلاث، واحدة منها في الرأس يسمّيها (المنقذة) وواحدة بين الكتفين يسمّيها (النافعة) وواحدة بين الوركين يسمّيها (المغيثة). رواه ابن بسطام في (طبّ الأئمة عليهم السلام)^٦.

١. بصائر الدرجات: ٢٥٦ ح ٩.

٢. فرع: أي لجأ.

٣. الجعفریات: ٢٦٨ ح ١٠٩٦.

٤. الكافي: ٥: ١١٦ ح ٣؛ الفقيه: ٣: ١٦٠ ح ٣٥٨٨.

٥. الخصال: ٢: ٣٨٤ ح ٦٣.

٦. طبّ الأئمة عليهم السلام: ٢٤١: ٢٤٢.

[٥ / ١٧٩] وعن الفضل بن شاذان، قال: سمعت الرضا عليه السلام يحدث عن أبيه، عن آباءه، عن علي عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله احتجم وهو صائمٌ محرم. رواه ابن بابويه في (العيون).^١

(٤٥) باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وآله

[١ / ١٨٠] عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة أسماء، خمسة منها في القرآن، وخمسة ليست في القرآن، فأما التي في القرآن: فمحمد وأحمد وعبد الله و (يس) و (ن)، وأما التي ليست في القرآن: فالفتاح، والخاتم، والكافي، والمقفي،^٢ والحاشر.^٣ رواه ابن بابويه في (الخصال).^٤

[٢ / ١٨١] وعن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن اسم رسول الله صلى الله عليه وآله في صحف إبراهيم عليه السلام: (الماحي)،^٥ وفي توراة موسى: (الحاد)،^٦ وفي إنجيل عيسى: (أحمد)، وفي الفرقان: (محمد). رواه ابن بابويه في (الأمالى) و(كتاب من لا يحضره الفقيه).^٧

(٤٦) باب ما جاء في سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

[١ / ١٨٢] عن نصر بن علي الجهضمي، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «حدثني أبي موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه أمير المؤمنين علي

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٧ ح ٣٩.

٢. المقفي: هو الموليّ الذاهب. يعني: أنّه آخر الأنبياء المتبّع لهم، فإذا قفّى فلا نبيّ بعده.

٣. أي: الذي يُحشر الناس خلفه وعلى ملّته دون ملّة غيره.

٤. الخصال: ٤٢٦ ح ٢.

٥. أي: يمحو الله به الكفر وآثاره.

٦. لأنّه يجاد من حادّ دينه، قريباً كان أو بعيداً، أي: يعاديه ويخالفه.

٧. أمالي الصدوق: ٦٧ ح ٢؛ الفقيه ٤: ١٧٧ ح ٥٤٠٦.

بن أبي طالب صلوات الله عليهم قال: مضى رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة، في سنة عشر من الهجرة، كان مقامه بمكة أربعين سنة، ثم هبط عليه الوحي في عام الأربعين، وكان بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فأقام بها عشر سنين»^١.

[٢ / ١٨٣] وعن عبد الملك بن هارون، عن الصادق، عن آبائه عليهم السلام: «أن ملك الروم عرض على الحسن بن علي عليه السلام صور الأنبياء، فعرض عليه صنماً بلوح، فلمّا نظر إليه بكى بكاءً شديداً، فقال له الملك: ما يبكيك؟ قال: هذه صفة جدّي محمد عليه السلام كث اللحية، عريض الصدر، طيب الريح، حسن الكلام، فصيح اللسان، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبلغ عمره ثلاثاً وستين سنة، ولم يخلف بعده إلاّ خاتماً مكتوباً عليه (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) وكان يتختم في يمينه، وخلف سيفه ذا الفقار،^٢ وقضيبه، وجبة صوف، وكساء صوف كان يتسول به، لم يقطعه ولم يخطه حتى لحق بالله». رواه القمي في (تفسيره).^٣

(٤٧) باب ما جاء في وفاة رسول الله ﷺ

[١ / ١٨٤] عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمّت اليهود النبي عليه السلام في ذراع، قال: وكان رسول الله عليه السلام يحبّ الذراع والكتف، ويكره الورك لقرنها من المبال، قال: لما أوتي بالشواء أكل من الذراع - وكان يحبّها - فأكل ما شاء الله، ثمّ قال الذراع: يا رسول الله، إنّي مسموم فتركه، وما زال ينتقض به سمّه حتى مات».

رواه الصفّار.^٤

١. تاريخ أهل البيت عليهم السلام: ٦٧ ٦٨.

٢. هذا، وقد وهب ذا الفقار لعلي ٧.

٣. تفسير القمي ١: ٢٧١.

٤. بصائر الدرجات: ٥٠٣ ح ٦.

[٢ / ١٨٥] وعن أبي بصير، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «لما حضر النبي صلى الله عليه وآله الوفاة نزل جبرئيل عليه السلام فقال له جبرئيل: يا رسول الله، هل لك في الرجوع؟ قال: لا، قد بلغت رسالات ربي، ثم قال له: يا رسول الله، أتريد الرجوع إلى الدنيا؟ قال: لا، بل الرفيق الأعلى، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله للمسلمين وهم مجتمعون حوله: أيها الناس، [إنه] لا نبي بعدي، ولا سنة بعد سنتي، فمن ادعى ذلك فدعواه وبدعته في النار، ومن ادعى ذلك فاقتلوه، ومن أتبعه فإنه في النار. أيها الناس: أحيوا القصاص، وأحيوا الحق، ولا تفرقوا، وأسلموا واسلموا تسلموا، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، [المجادلة / ٢١]. رواه المفيد في (الأمالي) ١.

[٣ / ١٨٦] وعن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وإن رأسه لفي حجرِي». رواه المفيد في (الأمالي) ٢.

[٤ / ١٨٧] وعن أبي أيوب الخزاز، قال: أردنا أن نخرج، فجننا نسلّم على أبي عبد الله عليه السلام فقال: «كأنكم طلبتم بركة يوم الإثنين؟! فقلنا: نعم، قال: وأي يوم أعظم شؤماً من يوم الإثنين، يوم فقدنا فيه نبينا وارتفع فيه الوحي عنا».

رواه البرقي وابن بابويه ٣.

[٥ / ١٨٨] وعن مغيرة - مؤذن بني عدي - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «غسل علي بن أبي طالب عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله بدأه بالسدر، والثانية بثلاثة مثاقيل من كافور، ومثقال من مسك، ودعا بالثالثة بقربة مشدودة الرأس فأفاضها عليه، ثم أدرجه صلى الله عليه وآله». رواه الطوسي ٤.

[٦ / ١٨٩] وعن أبي مريم الأنصاري، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «كُفِّن

١. أمالي المفيد: ٥٣ ح ١٥.

٢. أمالي المفيد: ٢٣٥ ح ٥.

٣. المحاسن: ٢٤٧ ح ١٥، ٣٤٧ ح ١٦؛ الفقيه ٢: ٢٦٧ ح ٢٤٠٢؛ قرب الإسناد: ٢٩٩ ح ١١٧٧؛ الخصال ٢: ٣٨٥ ح ٦٧ عن موسى بن جعفر عليه السلام نحوه.

٤. تهذيب الأحكام ١: ٤٧٧ ح ٤٧٨ ح ١٤٦٤.

رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب: بُردٍ أحمر حَبْرَة^١، وثوبين أبيضين صُحاريين^٢، قلت له: كيف ضلّي عليه؟ قال: سُجّي بثوب^٣، وجُعِلَ وسط البيت، فإذا دخل عليه قوم داروا به وصلّوا عليه ودعوا له، ثم يخرجون ويدخل آخرون، ثم دخل عليّ القبر فوضعه على يديه وأدخل معه الفضل بن العباس، فقال رجل من الأنصار من بني الخيلاء يقال له أوس بن خولي: أنشدكم الله أن تقطعوا حقنا، فقال له عليّ: ادخل، فدخل معهما، فسألته: أين وُضِعَ السرير؟ فقال: عند رجل القبر وسُئِلَ سلاً^٤.
رواه الطوسي^٥.

[٧/١٩٠] وعن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام: أن رسول الله ﷺ حدّ له أبو طلحة الأنصاري. رواه الكليني والطوسي^٦.

[٨/١٩١] وعن الحسين بن علي الرافقي، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام: «أن قبر النبي ﷺ رُفِعَ شبراً من الأرض، وأن النبي ﷺ أمر برش القبور». رواه ابن بابويه في (علل الشرائع) والطوسي^٧.

[٩/١٩٢] وعن الحسين بن محمد، عن غير واحد، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قبر رسول الله ﷺ محصّب حصباء^٨ حمراء». رواه الكليني^٩.

١. الحبر من البرود: ما كان مؤشياً مخطّطاً، وهو برد يمان.

٢. صُحار: قرية تُسب الثوب إليها، وهي من سلطنة عُمان قرب اليمن.

٣. أي: غُطّي.

٤. السَل: انتزاع الشيء وإخراجه برفق.

٥. تهذيب الأحكام ١: ٣١٣ ح ٨٦٩.

٦. الكافي ٣: ١٦٦ ح ٣؛ تهذيب الأحكام ١: ١٤٨ ح ١٤٦٧.

٧. علل الشرائع: ٣٠٧ ح ٢؛ تهذيب الأحكام ١: ٤٩٩ ح ١٥٣٨.

٨. الحصباء: الحصى الصغار.

٩. الكافي ٣: ٢٠١ ح ٢.

[١٠ / ١٩٣] وعن عمرو بن سعيد بن هلال الثقفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إن أُصبت بمصيبةٍ في نفسك أو في ولدك؛ فاذكر مصابك برسول الله صلى الله عليه وآله فإنَّ الخلائق لم يصابوا بمثله قطّ). رواه الكليني، والمفيد والطوسي في (أماليهما).^١

(٤٨) باب ما جاء في ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله

[١ / ١٩٤] عن حمزة بن عُمران، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: من ورث رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: «فاطمة عليها السلام ورثته متاع البيت، والخُرثي^٢، وكل ما كان له». رواه الكليني.^٣

[٢ / ١٩٥] وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ورث علي عليه السلام علم رسول الله صلى الله عليه وآله وورثت فاطمة عليها السلام تركته).

رواه الصفار والكليني وابن بابويه.^٤

[٣ / ١٩٦] وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: سألت الرضا عليه السلام عن الحيطان السبعة، قال: «كانت ميراثاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وقفاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأخذ منها ما ينفق على أضيافه، والنائبه تلزمه، فلما قبض جاء العباس يخاصم فاطمة عليها السلام فشهد علي عليه السلام وغيره أنّها وقف،^٥ وهي: الدلال، والعواف، والحسنى، والصفافية، ومال أم إبراهيم، والمثيب، والبُرقة». رواه الحميري والكليني.^٦

[٤ / ١٩٧] وعن الحسن بن علي الوشاء، قال: سألت مولانا أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: هل خلف رسول الله صلى الله عليه وآله غير فديك شيئاً؟ فقال أبو الحسن عليه السلام:

١. الكافي ٣: ٢٢٠ ح ٢ و ٨/ ١٦٨ ح ١٨٩؛ أمالي المفيد: ١٩٥ ح ٢٥، أمالي الطوسي: ٦٨١ ح ١٤٤٨.

٢. الخُرثي: أثاث البيت.

٣. الكافي ٧: ٨٦ ح ٢.

٤. بصائر الدرجات: ٢٩٤ ح ٦؛ الكافي ٧: ٨٦ ح ١؛ الفقيه ٤: ٢٦١ ح ٥٦٠٨.

٥. وفي الكافي: وقف على فاطمة عليها السلام.

٦. قرب الإسناد: ٣٦٣ ٣٦٤ ح ١٣٠١؛ الكافي ٧: ٤٨٤٧ ح ١.

«إن رسول الله ﷺ خلف حيطاناً^١ بالمدينة صدقة، وخلف ستة أفراس، وثلاث نُوق: العضباء، والصهباء^٢، والديباج، وبغلتين: الشهباء والدُّلدل، وحماره يعفور، وشاتين حلوبتين، وأربعين ناقة حلوباً، وسيفه ذا الفقار، ودرعه ذات الفضول، وعمامة السحاب، وحبرتين يمانيتين، وخاتمه الفاضل، وقضيبه الممشوق، وفراشاً من ليف، وعباءتين قَطَوَانِيَّتَيْنِ^٣، ومَحَادّاً^٤ من آدم؛ فصار ذلك إلى فاطمة ؑ ما خلا درعه وسيفه وعمامته وخاتمه، فإنه جعله لأمر المؤمنين ؑ». رواه الإبي في (كشف الغمّة).^٥

[٥ / ١٩٨] وعن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله ؑ: «ترك رسول الله ﷺ في المتاع سيفاً ودرعاً وعنزة ورحلاً وبغلتة الشهباء، فورث ذلك كلّه علي بن أبي طالب ؑ». رواه الصفّار والكليني.^٦

[٦ / ١٩٩] وعن أبان بن عثمان، عن أبي عبد الله ؑ قال: «لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة دعا العباس بن عبد المطلب وأمير المؤمنين ؑ فقال للعبّاس: يا عمّ محمّد، تأخذ تراث محمّد وتقضي دينه وتنجز عِدّاته؟ فردّ عليه فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي إنّني شيخ كثير العيال، قليل المال، من يطيقك وأنت تباري الريح، قال: فأطرقك ﷺ هنيئة ثمّ قال: يا عبّاس، أتأخذ تراث محمّد وتنجز عِدّاته وتقضي دينه؟ فقال: بأبي أنت وأمّي إنّني شيخ كثير العيال، قليل المال وأنت تباري الريح، قال: أما إنّني سأعطيها من يأخذها بحقّها، ثمّ قال: يا علي، يا أخا محمّد، أنتنجز عِدّات محمّد، وتقضي دينه، وتقبض تراثه؟ فقال: نعم، بأبي أنت وأمّي، ذلك عليّ ولي. قال: فنظرت إليه حتّى نزع

١. الحائط: البستان من النخيل إذا كان عليه حائط، وهو الجدار.

٢. الصهباء: هي التي يعلو لونها صُهبة، وهي كالشُقرة.

٣. القَطَوَانِيَّة: عباءة بيضاء قصيرة الخمل.

٤. المِخْدَة: الوسادة، لأنها توضع تحت الخدّ.

٥. كشف الغمّة ٢: ١١٨، وهذا وقد ورد أنه أهدى ذا الفقار إلى علي ٧.

٦. بصائر الدرجات: ١٨٦ ح ٤٤ و ١٨٨ ح ٥٣؛ الكافي ١: ٢٣٤ ح ٣.

خاتمته من أصبعه، فقال: تحتم بهذا في حياتي، قال: فنظرت إلى الخاتم حين وضعته في أصبعي فتمنيت من جميع ما ترك الخاتم، ثم صاح: يا بلال، عليّ بالمغفر، والدرع، والراية، والقميص، وذي الفقار، والسحاب، والبُرْد، والأبرقة، والقضيب. قال: فوالله ما رايتها غير ساعتى تلك - يعني الأبرقة - فجئى بشقة كادت تحطف الأبصار، فإذا هي من أ برق الجنّة، فقال: يا علي، إنّ جبرئيل أتاني بها وقال: يا محمد، اجعلها في حلقة الدرع، واستدفر بها مكان المنطقة، ثم دعا بزوجي نعال عربيين جميعاً، أحدهما مخصوف والآخر غير مخصوف، والقميصين: القميص الذي أُسري به فيه، والقميص الذي خرج فيه يوم أحد، والقلائس الثلاث: قلنسوة السفر، وقلنسوة العيدين والجمّع، وقلنسوة كان يلبسها ويقعد مع أصحابه. ثم قال: يا بلال، عليّ بالبغلتين: (الشهباء) و(الدلدل)، والناقيتين: (العضباء) و(القصواء)، والفرسين: (الجنّاح) - كانت توقف بباب المسجد لحوائج رسول الله ﷺ يبعث الرجل في حاجته فيركبه فيركضه في حاجة رسول الله ﷺ - و(حيزوم) - وهو الذي كان يقول: أقدم حيزوم - والحمار (عُفَيْر)، فقال: اقبضها في حياتي.

فذكر أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أول شيء من الدوابّ توفيّ عُفَيْر ساعة قبض رسول الله ﷺ قطع خطامه ثم مرّ يركض حتى أتى بئر بني خَطْمَة بقاء فرمى بنفسه فيها فكانت قبره». رواه الكليني^١.

(٤٩) باب ما جاء في رؤية رسول الله ﷺ في المنام

[١/٢٠٠] عن الحسن بن علي بن فضال، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «لقد حدّثني أبي، عن جدّي، عن أبيه، عن آبائه عليه السلام: أنّ رسول الله ﷺ قال: مَنْ رآني في منامه فقد رآني، لأنّ الشيطان لا يتمثّل في صورتي ولا صورة أحدٍ من أوليائي،
١. الكافي ١: ٢٣٦-٢٣٧ ح ٩؛ ورواه الطوسي في الأمالي ٦٠٠-٦٠١ ح ١٢٤٤ نحوه؛ وفيه إن ذا الفقار كان قد وهبه لعليّ من قبل.

ولا في صورة أحدٍ من شيعتهم، وإنَّ الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة».

رواه ابن بابويه في (العيون) و (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).^١

[٢٠١/٢] وعن سُليم بن قيس الكوفي، عن محمد بن أبي بكر قال: «قال رسول الله ﷺ: مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي فِي نَوْمٍ وَلَا يَقْطَعُ، وَلَا بِأَحَدٍ مِنْ أَوْصِيَائِي؛ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

رواه سُليم بن قيس في (كتابه).^٢

قال المؤلّف عفا الله تعالى عنه وغفر له ورحمه :

وقع الفراغ منه ضحوة يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى

من شهور سنة (١٤٢٣) ثلاث وعشرين وأربع مئة وألف

من هجرة سيّد الأنام عليه وعلى آله الصلاة والسلام،

بدار العلم ومعقل أهل الإيمان، بلدة (قم) الطيّبة

صانها الله عن نوائب الزمان، حامداً مُصلياً مُسلماً

المصادر والمراجع :

١. أمالي الصدوق: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي ابن بابويه القمي ط

مؤسسة الأعلمي، بيروت الطبعة الخامسة سنة (١٤٠٠ق).

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٥٧ ح ١١؛ أمالي الصدوق: ٦٢ ح ١٠، الفقيه ٢: ٥٨٥ ح ٣١٩٣.

٢. كتاب سُليم بن قيس الكوفي: ٢٢٦؛ ومحمد بن أبي بكر لم يدرك النبي ٩ سوى ستين من سنّه،

فالخبر مرسل مرفوع لا عبرة به .

٢. أمالي الطوسي: للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي تحقيق مؤسّسة البعثة الطبعة الأولى بقم سنة (١٤١٤ق).
٣. أمالي المفيد: للشيخ المفيد أبي عبدالله محمد بن محمد ابن النعمان البغدادي تحقيق علي أكبر الغفّاري وحسين أستاذ ولي ط جماعة المدرّسين بقم.
٤. الأربعمون حديثاً في حقوق الإخوان: للسيد محيي الدين محمد بن عبدالله الحسيني المعروف بابن زهرة الحلبي تحقيق نبيل رضا علوان الطبعة الأولى بقم سنة (١٤٠٥ق).
٥. بصائر الدرجات: لأبي جعفر محمد بن الحسن الصفّار الطبعة الثانية تصوير مكتبة آية الله المرعشي بقم سنة (١٤٠٤ق).
٦. تاريخ أهل البيت عليهم السلام: تحقيق السيد محمد رضا الحسيني الجلاّلي ط مؤسّسة آل البيت: لإحياء التراث الطبعة الأولى سنة (١٤١٠ق).
٧. تفسير العياشي: لأبي النضر محمد بن مسعود بن عيّاش السمرقندي تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلّاتي ط المكتبة العلميّة الإسلاميّة بطهران الطبعة الأولى.
٨. تفسير فرات الكوفي: لأبي القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي تحقيق محمد كاظم المحمودي الطبعة الثانية طهران سنة (١٤١٦ق).
٩. تفسير القمّي: لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي ط مؤسّسة الأعلمي، بيروت الطبعة الأولى سنة (١٤١٢ق).
١٠. تهذيب الأحكام في شرح المقنعة: للشيخ أبي جعفر محمد ابن الحسن الطوسي تحقيق علي أكبر الغفّاري الطبعة الأولى سنة (١٤١٧ق).
١١. الجعفريات (برواية محمد بن الأشعث الكوفي): تصحيح: أحمد الصادقي الأردستاني ط مؤسّسة كوشانبور بطهران الطبعة الأولى سنة (١٤١٧ق).

١٢. الخصال: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي تحقيق علي أكبر الغفاري ط جماعة المدرّسين بقم.
١٣. الزهد: للحسين بن سعيد الأهوازي تحقيق جلال الدين علي الصغير ط دار الأعراف، بيروت الطبعة الأولى سنة (١٤١٣ق).
١٤. صحيفة الإمام الرضا عليه السلام (برواية الطبرسي): تحقيق محمد مهدي نجف ط المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام سنة (١٤٠٦ق).
١٥. طبّ الأئمّة عليهم السلام: للحسين وعبدالله ابني بسطام بن سابور الزيّات شرح وتعليق محسن عقيل ط در المحجّة البيضاء، بيروت الطبعة الأولى سنة (١٤١٤ق).
١٦. علل الشرائع: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي ابن بابويه القمي ط المكتبة الحيدريّة بالنجف الأشرف سنة (١٣٨٥ق).
١٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام: للشيخ الصدوق أبي جعفر بن بابويه القمي ط انتشارات جهان طهران.
١٨. قرب الإسناد: لأبي العباس جعفر بن عبدالله الحميري ط مؤسسة آل البيت: لإحياء التراث الطبعة الأولى سنة (١٤١٣ق).
١٩. الكافي: لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي تحقيق علي أكبر الغفاري ط دار الكتب الإسلاميّة بطهران.
٢٠. كتاب سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي: ط مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٢١. كتاب من لا يحضره الفقيه: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي تحقيق علي أكبر الغفاري ط جماعة المدرّسين بقم.
٢٢. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام: للشيخ أبي الحسن علي ابن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، ط دار الأضواء بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٥ق).

٢٣. معاني الأخبار: للشيخ الصدوق أبي جعفر بن بابويه القمي تحقيق علي أكبر الغفاري ط سنة (١٣٧٩ق).

٢٤. مكارم الأخلاق: لرضي الدين الحسن بن الفضل الطبرسي ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة السادسة سنة (١٣٩٢ق).

٢٥. المحاسن: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي تحقيق السيّد جلال الدين المحدث الأرموي ط دار الكتب الإسلامية بطهران الطبعة الأولى.

٢٦. المسلسلات: لأبي محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي الإيلاقي المعروف بابن الرازي تحقيق السيّد محمد النيشابوري ط مجمع البحوث الإسلامية بمشهد الرضائيّة الطبعة الأولى سنة (١٤١٣ق).

٢٧. النوادر: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي ط مدرسة الإمام المهدي ٧ بقم الطبعة الأولى سنة (١٤٠٨ق).

فهرس الأبواب :

(٢٠) باب ما جاء في جلسة رسول الله ﷺ ومجلسه.

(٢١) باب ما جاء في صفة أكل رسول الله ﷺ.

(٢٢) باب ما جاء في صفة خبز رسول الله ﷺ.

(٢٣) باب ما جاء في صفة إدام رسول الله ﷺ.

(٢٤) باب ما جاء في صفة وضوء رسول الله ﷺ عند الطعام.

(٢٥) باب ما جاء في قول رسول الله ﷺ إذا فرغ من الطعام والشراب.

(٢٦) باب ما جاء في تحلل رسول الله ﷺ بعد الطعام.

(٢٧) باب ما جاء في قدح رسول الله ﷺ وقصعته وقعبه.

(٢٨) باب ما جاء في صفة فاكهة رسول الله ﷺ.

(٢٩) باب ما جاء في صفة شراب رسول الله ﷺ.

(٣٠) باب ما جاء في صفة شرب رسول الله ﷺ.

(٣١) باب ما جاء في تعطر رسول الله ﷺ.

(٣٢) باب كيف كان كلام رسول الله ﷺ.

(٣٣) باب ما جاء في صفة ضحك رسول الله ﷺ.

(٣٤) باب ما جاء في مزاح رسول الله ﷺ.

(٣٥) باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ.

(٣٦) باب ما جاء في تواضع رسول الله ﷺ.

(٣٧) باب ما جاء في صفة نوم رسول الله ﷺ.

(٣٨) باب ما جاء في فراش رسول الله ﷺ.

(٣٩) باب ما جاء في عبادة رسول الله ﷺ.

(٤٠) باب ما جاء في قراءة رسول الله ﷺ.

(٤١) باب ما جاء في صوم رسول الله ﷺ.

(٤٢) باب ما جاء في بكاء رسول الله ﷺ.

(٤٣) باب ما جاء في حياء رسول الله ﷺ.

(٤٤) باب ما جاء في حجامه رسول الله ﷺ.

(٤٥) باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ.

(٤٦) باب ما جاء في سن رسول الله ﷺ.

(٤٧) باب ما جاء في وفاة رسول الله ﷺ.

(٤٨) باب ما جاء في ميراث رسول الله ﷺ.

(٤٩) باب ما جاء في رؤية رسول الله ﷺ في المنام.

الموحدون العابدون القاصدون

(أم القرى) من كل الأمصار

محسن الأسدي^١.

ملخص البحث :

هناك حكمٌ كثيرة، والله عزَّ وجلَّ أعلم بها وبمراده؛ فهو: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، وهناك مقاصد وأهداف هي الأخرى كثيرة...؛ وهناك نعمٌ وفيرة؛ إن في الحياة الدنيا وإن في الآخرة، يحظى بها الوافدون لهذا البيت المبارك؛ من حجاجٍ ومعتمرين...، اقتضت وجود البيت الحرام؛ الكعبة ومعالم قريبة منها، فيما أخرى تبعد قليلاً عنها؛ وما يحفُّ بها من آثار، وما نهض في أحضانها من إبداعات روحية وأخلاقية واجتماعية... لتشكل مشروعاً ربانياً، إبراهيمياً يوم كُلف بتفعله خليلُ الله إبراهيم عليه السلام وبرفقته ذريةٌ طيبة؛ ابنه إسماعيل وأمه هاجر عليها السلام، ثلاثيٌّ مباركٌ فاعلٌ في بناء ذلك المشروع المبارك؛ ليلتحق بهم الصالحون؛ أولئك الذين أعدَّ لأجلهم ذلك البيت إنشَاءً وتطهيراً، وهو الذي

١. محقق وباحث ديني .

نسبه الله تعالى إليه تشرifaً وتكريماً له، وعلواً لمنزلته: ﴿...وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^١
 وكذا الآية ٢٦ الحج: ﴿... وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.
 وتقديراً لهؤلاء الموحدين العابدين في جميع الأعصار، القاصدين (أم القرى) من كل الأمصار، وهم يشكّلون تلك الأئمة في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَجْعَلْ أَفئدةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ﴾. حيث يجدون فيه الأمن والطمأنينة وعطاءً غير مجذوذ... تعالوا نعيش معاً في رحاب ذلك، نتلمس ما فيه من نعم روحية وأخلاقية واجتماعية، ومعرفة عن المسجد الحرام ومعالمه ورموزه..؛ نطل عليها عبر قراءة ما تيسر من آيات قرآنية وأحاديث وروايات وخطب للإمام علي عليه السلام، وأقوال آخر ...

نعمٌ مباركة!

في قراءة لرحلة الحجّ القرآنية ومعالمه؛ مع إطلالة على نعمٍ يشهدونها في البيت الحرام وزيارته المباركة حجاً واعتباراً... تجتمع هذه النعم المباركة في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾^٢. وتتوزع بين ما هو دنيوي، وما هو آخروي.

قال الزمخشري: ونكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات.

قال سيد قطب: والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير، فالحج موسم ومؤتمر، الحج

١. سورة البقرة: ١٢٥.

٢. سورة الحج: ٢٨.

موسم تجارة وموسم عبادة، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف، ومؤتمر تنسيق وتعاون. وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة..

أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقاً رائجة، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء من أطراف الأرض؛ ويقدم الحجاج من كل فج ومن كل قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم... يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد. فهو موسم تجارة ومعرض نتاج؛ وسوق عالمية تقام في كل عام وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام...^١

نقف عند تلك النعم التي تنطلق من هناك، من تلك الصحراء القاحلة، ومن ذلك الوادي المجذب، ذي الشمس الحارقة، ومن بقعة مقفرة معلومة من الأرض، من بين رمال وصخور، لا ماء فيها ولا كلاً... موحشة؛ خلاء من الناس، مهجورة لا من أحد يسمع، أو ناظر ينظر، إلا عابر سبيل، وإلا قبائل تحيطها من بعيد، بقعة تعجُّ بمخاطر كثيرة، فلا حياة مستقرة فيها، فضلاً عن أن تكون آمنة متحصّرة... ولحكمة اقتضتها السماء يأتي أمر ربك أن هاهنا مكان بيته؛ بيت الله الحرام، فإذا ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الذي وضع بأمر ربّه، وأخفته مشيئته، أو أخفي لأسباب طبيعية مؤثرة، ولعلّ هذا كان قبل الخليفة، لا في زمن نبيّ الله آدم عليه السلام، وإن ذكر أنه عليه السلام أمرته السماء بإنشائه؛ وقد حجّه هو ومن معه من متعلقيه. قد حدّدت السماء مكانه لنبيّ الله إبراهيم عليه السلام؛ لإقامته بناءً مرتفعاً؛ لا مخفياً تحت الأرض، تحت رمالها وترابها وأحجارها، لا أدري فلعلّ إخفاءه هذا كان ولحكمة ربانية، كرّمت السماء بإظهاره خليل الله إبراهيم عليه السلام؛ حين حلّ وقتُ فعله؛ ليكون ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ كعبة ظاهرة، علامة بارزة تُدِلُّ الناس على أن هاهنا

١. الكشف، للزمخشري؛ في ظلال القرآن، للسيد قطب: الآية .

تجلت حكمته تعالى قيماً إيمانيةً واضحةً، ومبادئَ روحيةً عاليةً، وبيت عبادة وتوسّل وتوبة وإنابة ومغفرة... منارةً لفريضة الحجّ ولغيرها، في مشروع إبراهيميٍّ توحيدِيّ فريد؛ شكّل أسس الديانات التوحيدية الرئيسية القادمة بعده، أي التي بُعثت بعد خليل الله إبراهيم عليه السلام؛ اليهودية والمسيحية، والإسلامية؛ هذه الدعوة الإيمانية الخاتمة التي أشرقت وانطلقت من هذه الديار؛ لتُغيّر وجه التاريخ...

لقد انبثق العتيق من جديد؛ بعد أن رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعده؛ وبعد أن انطلق دعاؤه وأذانه المبارك يملآن أجواء هذه البقعة؛ ما بين السماء والأرض، في ذلك الوادي؛ في مكة المكرمة؛ فأيقظا فيها مقومات الحياة بمفاصلها.

وبالذات الروحية؛ وليجعلاً منها ذات زرع ونماء؛ بلدةً طيبةً، تنعم بالخير والعطاء، وتفويض بنعم مباركة... لقد كان كلُّ هذا بلا شك على يدي نبيِّ الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام دون أن يترك الدور الكبير في المشروع الإبراهيمي المذكور لسيدتنا هاجر؛ بامتثالها وصبرها وجهدها ومعاناتها... وكانت الآية ١٥٨ البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، حاكية عن مشروع السعي بين الصفا والمروة كواجب من الحجّ فريضةً واستحباباً ومن العمرة؛ وقد أوجز ابنُ عباس جهدها وصبرها بكلمة رائعة: هذا ما أورتكم أمكم إسماعيل! حين رأى قوماً يطوفون بين الصفا والمروة.

بمعنى أنّ أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وسعيها وتردها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها؛ لما نفذ ماؤهما وزادهما، أو حين تركهما إبراهيم عليه السلام هناك في وادٍ لا ماء فيه...، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هناك، وانتهى ما عندهما من مؤونة، قامت تطلب الغوث من الله عزّ وجلّ، فلم تنزل تنتقل في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متدللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة

إلى الله عزَّ وجلَّ، حتى كشف الله كربتها، وأنس غربتها، وفرَّج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها: «طعام طعم، وشفاء سقم...». فالساعي بينها ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله سبحانه، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.^١

حينما لم يغيِّر أبعاد البيت طولاً وعرضاً؛ أي مساحة، بل فقط رفعا قواعد بعد أن أزال عنها ما يُخفيها من رمال وأحجار... وهو ما أخبر عنه التنزيل العزيز في سورة البقرة: ١٢٧ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقد كانت موجودة قبلهما، وأتمَّ بناءها وتسقيفها، وكان رفع تلك القواعد بداية تفعيل هذا الوجود التوحيدي والكيان المبارك؛ كأول مركز للتوحيد، وأقدم بل وأفضل بيت عبادة خالصة طاهر بعيد عن الشرك بُني على وجه الأرض؛ ليكون ذلك: ﴿الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾، ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾، ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.^٢ وليكون قبله كما في الآية ١٤٤ في سورة البقرة:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾. فهو بالتالي: ﴿...أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.^٣

١. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)؛ تفسير الجامع لاحكام القرآن، القرطبي (ت ٦٧١هـ).

٢. سورة الحج: ٣٣؛ سورة آل عمران: ٩٦؛ سورة المائدة: ٩٧؛ سورة البقرة: ١٢٥.

٣. سورة آل عمران: ٩٦.

ولأنه كذلك قديم؛ فهو أول بيت وضع للناس بناه آدم عليه السلام ثم جدده إبراهيم عليه السلام.

سمي على قول: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^١.

وكان هذا كله بعد أن تحقق ما في هذه الآية: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^٢.

ثم جاءت مرحلة أن يبين الله تعالى له معالم البيت وعرفه أسسه وقواعده ووطأه له: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾. فمرحلة التطهير ﴿...أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^٣. وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن تطهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود^٤.

إذن فهو حدث تأسيسي كبير، رفعت قواعده، وبالتالي فهو وبلا أدنى ريب أول مصداق؛ أول بيت عبادة، أول مسجد أسس بنيانه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾، لتبقى هاتان الصفتان تواكبان أي بناء أو مشروع أو مسجد يُراد منه وجه الله تعالى! ويُراد منه أن يقف راسياً راسخاً مطمئناً نافعاً، وإلا فهو على شفا جرف هار يودي به في نار جهنم!

لقد نطقت به الآيات الكريمة أعلاه، وغيرها من الآيات، فضلاً عن الأخبار والأقوال التي نكتفي منها بما جاء ضمن أطول خطبة في نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام، (الخطبة ١٩٢ القاصعة)، وهي خطبة تتمحور حول مجموعة من القضايا الأخلاقية

١. سورة الحج: ٢٩.

٢. سورة إبراهيم: ٣٧.

٣. سورة الحج: ٢٦.

٤. سورة البقرة: ١٢٥.

والتربوية... نذكر منها ما يخصُّ مقالتنا هذه، وهو كلمة ما أوضحها وأجلها في قصة هذا البيت الحرام وأهدافه!

«... وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقَلَّ نَتَائِقَ الدُّنْيَا مَدْرًا، وَأَضَيَّقَ بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْرًا بَيْنَ جِبَالِ خَشْنِيَّةٍ وَرِمَالِ دَمِيثَةٍ وَعُيُونِ وَشِلَّةٍ وَقُرَى مُنْقَطِعَةٍ لَا يَزُكُّو بِهَا خُفًّا وَلَا حَافِرًا وَلَا ظِلْفًا...».

وتحقيق الحكمة من إنشائه هي: «... أَنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوْلِيَيْنَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ...». إنه امتحانٌ مهمٌّ وابتلاءٌ خطيرٌ «ببعض ما يجهلون أصله... فالإمام سلام الله عليه بعد أن يقول: «وكلمًا كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل... يردفه قائلاً: «ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم... بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام، الذي جعله الله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً...». والهدف من ذلك كان... «تمييزاً بالاختبار لهم ونقياً للاستتبار عنهم وإبعاداً لِلْحَيَلَاءِ مِنْهُمْ»!...

وأيضاً: «جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوَسْطَةً إِلَى جَنَّتِهِ»!

ولرب سائل يقول: لماذا لم يضع الله تعالى بيته بأرض غير هذا الوادي الأجرد، كأن يكون في مكان يتمتع بخصب وثمار، وروعة وجمال...؟!!

فلينظر هذا السائل لما يقوله الإمام سلام الله عليه: «ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البنى، متصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة؛ لكان قد صغر قدر الجزاء، على حسب ضعف البلاء، ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، من زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء؛ لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور،

ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، وبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه...»^١

ومن العجيب والجميل أن نبي الله إبراهيم وكذا ابنه النبي إسماعيل عليهما السلام؛ وضعتهما السماء تحت الابتلاء أولاً؛ ليؤسسها فيما بعد دار الابتلاء هذا وبيت الامتحان هذا... لقد ابتلتها قبل ابتلاء الناس ببيته الحرام، فبعد أن امتحنته السماء، وخاض غمار مواقف صعبة مع قومه وكبرائهم، ضد شركهم وكفرهم، وعبادتهم للأصنام، وظلمهم وتعسفهم، وكادوا أن يميتوه قتلاً أو حرقاً حين ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ لولا إرادة السماء وكلمتها المنجية المتمثلة ب: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾^٢. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^٣.

فأنجاه الله تعالى، بعد أن اختبر بذلك قوته وعزمه وتحمله وصبره... حتى استقرت فيه مفاهيم التوحيد والانقطاع إليه تعالى وحده وحده، ف: ﴿...كَانَ حَنِيفًا مِّنْ قَبْلُ وَأَنَّ فِيهِ لَمَنَظِرًا لِلَّذِينَ هُمْ بِأَعْيُنِنَا﴾^٤.

ولم تكتف السماء بذلك بل اختبرته أخرى وابنه إسماعيل ببلاء آخر؛ وصفته بأنه: ﴿الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

١. انظر الخطبة: ١٩٢ مقطع الكعبة المقدسة، وكما تسمى بالقاصعة (من قصع فلان فلاناً أي حقره؛ لأنه ٧ حقر فيها حال المتكبرين)، نهج البلاغة لصبحي الصالح: ٢٩٢.

٢. سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠.

٣. سورة العنكبوت: ٢٤.

٤. سورة آل عمران: ٦٧.

فوجدتها بأصدق امتثال واستسلام لله تعالى حين صدق الخليل الرؤيا وتبعه في ذلك ابنه النبي إسماعيل مليئاً طائعاً، فحققت التكليف معاً، واجتاز الاختبار معاً بقدرته وصبر وأناة، فكان الفوز حليفهما والنجاح أمنيتهما وخاتمتها في قصة الرؤيا والذبح كما في: الآيات: ١٠٢-١٠٧ من سورة الصافات: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وأيضاً؛ وتمهيداً لتلك الوظيفة، وذلك الدور الخالد، كانت عمارة البيت الحرام، مركزاً للتوحيد الخالص وللطهارة الخالصة؛ ليتعبد به الموحدون بأحوالهم المذكورة في الآية: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَظَهَرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ليقيم هؤلاء الصلاة؛ ليقيموها حفظاً ورعايةً، ليقيموها بأصولها وشروطها وآدابها وأهدافها، ليقيموها بقلوب واعية خاشعة وأبدان خاضعة مطمئنة، وبتفعيلها في حياتهم وسيرتهم؛ ليقيموا العبادة؛ التوحيد الخالص، فينطلق بهم في الحياة نماذج حيّة فاعلة، أمثلة ودعاة صادقين لا يؤدّون الصلاة بأركانها وواجباتها فقط... بل يقيمونها بجوهرها وأهدافها؛ فتكون دافعةً للسيرة الحسنة، ولأعمال الخير والصلاح والبناء والتطور... ومانعةً ما يُعيق ذلك، ناهيةً عن الفحشاء والمنكر، محرمةً أساليب الخيانة والنفاق والظلم التي لأجلها تحمّل كلُّ من هاجر ورضيعها نبيُّ الله إسماعيل جذبَ المكان ووحشته، والحرارة وشدتها، والحرمان وآلامه، ومشقةً الظمأ، بعد أن أسكنها نبيُّ الله إبراهيم ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ﴾، غير ذي حياة، غير ذي ماء... ولم يترك لهم إلا دعاءه الذي ظلّ يلاحقهم، والأجيال القادمة بعدهم، منذ أن أحيا ذلك الوادي ببعض ذريته وبدعائه المبارك، فتارةً نراه يدعو لهم بالهداية، وأخرى بأن يُحببهم والبقاع التي هم فيها إلى خلقه تعالى، وأن يجعل القلوب تستميل إليهم، دون

أن يغفل في أذعته البشارة الكبرى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَهُمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^١.

أن يأتيهم من يعلمهم ويزكي نفوسهم ويطهرهم من السيئات كلها، إنه رسول الله ﷺ القائل: «أنا دعوة أبي إبراهيم...!» وأن يكون كل شيء، بقعةً وبيتاً ومناسك، آمناً:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. فبتوفر الأمان تتحقق الحياة وجمالها وحسنها لهذا البلد، وسلامة ما يؤدي فيه من مناسك وأعمال، وبالتالي يكون توجه الوافدين إليه بثقة واطمئنان، وبكل شوق ورغبة لعطائه تعالى وأجره وثوابه... وهكذا كانت دعوات خليل الله إبراهيم ﷺ تتوالى منذ دعائه الأول، حين ترك بضعةً منه امتثالاً لأمر ربّه؛ قافلاً من حيث أتى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^٢.

ومن هنا يمكن القول: إنَّ الدعاء ظلَّ ذا مكانة عظيمة، فهناك وفي كلِّ هذه المفاصل والمراحل ومواقع المناسك تجدد الدعاء والمناجاة والتوجه لا تفارق الحجيج، وأعظم الأدعية هي تلك القرآنية التي بدأها نبيُّ الله ونبيُّ الدعاء إبراهيم الخليل ﷺ، وهو يترك بضعةً منه في وادي مكة، يدعو بالرزق والأمان، وهو يرفع قواعد البيت، يطهره من الأصنام، وهو يرفع الأذان، وهو... حتى شكَّلت هذه الأدعية وأدعية بقية الأنبياء وأئمة أهل البيت ﷺ، كدعاء الإمام الحسين والإمام زين العابدين ﷺ، يوم عرفة، وغيرها من أدعية الصالحين أساس منظومة عبادية وفكرية وروحية وأخلاقية ملأت التراث الإسلامي في كلِّ مفاصل الحج ومواقعه ومناسكه، ممَّا يجعل الدعاء والمناجاة

١. سورة البقرة: ١٢٩.

٢. سورة إبراهيم: ٣٧.

والتوجع لا تفارق الحجاج، وكيف تفارقهم والدعاء لبُّ العبادة، والحجّ كأبي عبادة؛ يعالج ما فسد من الأخلاق ورذائلها، من قبيل الظلم والطغيان والكبر، كما في كلام الإمام عليه السلام في النهج؛ الخطبة ١٩٦، وآية الدعاء تُعدُّ أفضل الآليات لبناء النفوس ورفيها الإيماني؟!

التخصيص :

هناك تخصيص في بعض ما جاء من دعاء إبراهيم عليه السلام، أشار تساؤلات وتأويلات، والأهم من هذا هو ردود السماء... فلا بدّ من الإشارة إليه:

الدعاء الأول :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. فقد خصّ في دعائه ذريته بالرزق ﴿... وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ...﴾.

الثاني: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾^١.

وأيضاً هنا في دعائه هذا خصّ بالرزق: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وليس هذا التخصيص منه عليه السلام في الدعاءين فقط، فقد خصّ أيضاً ذريته بالإمامة بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، كما جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^٢.

١. سورة البقرة: ١٢٦.

٢. سورة البقرة: ١٢٤.

فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: ياربُّ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. كما جاء في رواية عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام... أبو حيان: وسؤال إبراهيم الإمامة لذريته شفقة عليهم ومحبة منه لهم، وإيثاراً أن يكون في ذريته من يخلفه في الإمامة.

أقول: وما إن يجد نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام أمراً تلقيه إليه السماء وتكلفه به، أو وسيلة يدعو الله من خلالها، إلا وتمنى ذلك لذريته لا لكها بل لبعضها، لتكون بذلك على أحسن ما يكون هو عليها، وبالتالي يكون له امتداد من البقاء روحاً ومنهجاً، وحظُّ مبارك في أداء رسالة السماء، وشرف في التمسك بها والتضحية في تبليغها، ومن ذلك الإمامة المذكورة، فأبراهيم عليه السلام، وهو يتلقى بشرى الإمامة، لم يطلبها إلا لبعض ذريته، وعياً منه لدور الإمامة العظيم والخطير الذي لا يناله إلا ذو حظٍّ عظيم، والحظُّ العظيم لا يحصل إلا عند القلة القليلة أو الثلة النادرة لا عند كلهم، وهذا هو الممكن، الموافق للفطرة وسننها. فأبراهيم عليه السلام يتمنى المعروف لكل من له علاقة به، فتارةً يعبر عنه بذريته وأخرى بوالديه وبينيه، فنجد في دعائه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾. ١.

نعود إلى دعائه عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾. فقد سبق دعاءه بالرزق ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾، دعاءه بالأمن والأمان: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِناً﴾.

فذاك الوادي حين صار عامراً بالحياة، سكنه الناس وأحاطوا به، وكان إبراهيم عليه السلام استبشر خيراً، وهو يرى أن هذا الوادي، مكة؛ وقد تكاثر الناس فيها ومن حولها،

وغدت صوب توجههم وموضع اهتمامهم، فأول ما يحتاجونه؛ ليسود بينهم السلام، ويحفظ تجمعهم هو الأمن والأمان، رفع يديه قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا...﴾. أي بعد ما صار الوادي بلداً، وسكناً للوافدين إليه، فصار يحتاج للأمن، فدعا ربّه به؛ ليخلو من الاعتداء، ومن الخوف على النفس والمال والعرض، وكان ﷺ ملتفتاً إلى أن الأمن والأمان لا يكفي وحده؛ فالحياة الآمنة وحدها لا تستقر، حين لا يكون هناك ما يسدّد هذا الأمن ويعضده، وحين لا يكون فيها ما يكفي من الرزق، وما لم يتوفر لهم ما يُلبّي ضرورياتهم، ويجعلهم ينشدون إلى مكانهم، فلا تطمح نفوسهم للارتحال عنه، بل ويكون سبباً لإتيانهم إليه، واجتماعهم عنده، ويصحّ معه توجههم للعمل وللعبادة بعيداً عن القلق والظمأ والجوع، فأعقبه بدعائه: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. إلا أنه ﷺ خصّص هذا الرزق ب: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾.

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾، بدل من أهله؛ بدل البعض من الكل. وإنما خصّ بذلك ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. لأنه وبكلمة واحدة مُلخّصة أقوالهم في أغلبها: «قاس الرزق على الإمامة». فهو حينما دعا ربّه بقوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، أي ارزق أهل البلد الذي جاء بقوله: وهو مكة، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾. صار يحترس ويستثني ويحدّد من يعني بدعائه هذا، وهم: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. فهو ﷺ قد أفاد من قوله تعالى في آية الإمامة: ﴿لَا يَتَّأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، حينما سأله الإمامة لذريته بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، تأدباً منه بالأدب الذي علمه ربّه، فيراعيه في طلبه ودعائه، فاستثنى وحدّد من يعينهم بطلب الرزق وهم المؤمنون.

وأما من سكت عنهم، وهم الشطر الآخر؛ شطر الذين لا يؤمنون، يجيئه ردّ ربّه كمكلاً ومبيناً أنّه يرزقهم أيضاً، ولكنه متاعٌ قليل فمصير أليم: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. إنّ ذو الرحمة الواسعة؛

جعل رزقه عاماً لكلا الفريقين؛ شاملاً مؤمنهم وكافرهم:

﴿كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^١.

يقول الرازي: لا جرم خصص دعاءه بالمؤمنين دون الكافرين، وسبب هذا التخصيص النص والقياس، أمّا النص فقولته تعالى:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^٢.

وأمّا القياس فمن وجهين:

الوجه الأول: أنه لما سأل الله تعالى أن يجعل الإمامة في ذريته، قال الله تعالى:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^٣.

فصار ذلك تأديباً في المسألة، فلما ميز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين في باب الإمامة، لا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء دون الكافرين...

يقول الشيخ الطوسي: لأن الله تعالى قد أعلمه أنه يكون في ذريته الظالمون في جواب مسأله إياه لذريته الإمامة بقوله:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

فخصّ بالدعاء في الرزق المؤمنين تأديباً بأدب الله تعالى.

وقيل: إنه عليه السلام ظنّ أنه إذا دعا للكفار بالرزق أنهم يكثرون بمكة ويفسدون، فربما يصدون الناس عن الحجّ فخصّ بالدعاء أهل الإيمان.

حاشية القونوي، وبإيجاز: ... ومعنى التخصيص: تخصيص أهل الإيمان منهم بدعاء حصول الرزق لهم دون من عداهم من أهل الكفر، وتخصيص الدعاء بالمؤمنين إظهاراً لشرف الإيمان، وأنه سبب للخصب والرخاء ودفْع الضرر والبلاء، وترغيب

١. سورة الإسراء: ٢٠.

٢. سورة المائدة: ٦٨.

٣. سورة البقرة: ١٢٤.

لقومه في الإيمان، وزجر عن الكفر والطغيان... فخصَّ سؤاله بالمؤمنين.
قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، ووجه القياس أن الرزق
موهب إلهي كالإمامة.

فنبّه سبحانه وتعالى على الفرق بينهما المانع من القياس، وهو أن الرزق رحمة دنيوية
محصنة غير مختصة تعمّ المؤمن والكافر بخلاف الإمامة والتقدم في الدين، أو أنه تعالى
لَمَّا ﴿قَالَ لَا يَنْتَظِرُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. احترز إبراهيم عليه السلام من الدعاء لمن ليس مرضياً
عنده، فأرشده الله تعالى إلى كرمه الشامل.

يقول ابن عاشور: وخصَّ إبراهيم عليه السلام المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على
شروع الإيمان لساكنيه؛ لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم عليه السلام خصت المؤمنين، تجنبوا ما
يخيد بهم عن الإيمان، فجعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثاً لهم على الإيمان.
أو أراد التأدب مع الله تعالى، فسأله سؤالاً أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من ردِّ
الله عليه عموم دعائه السابق؛ إذ قال: ﴿ومن ذريتي﴾.

فقال: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾.

إن غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم، وقد أعقب الله دعوته بقوله:
﴿وَمَنْ كَفَرَ فَمَتَّعَهُ قَلِيلًا﴾. ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة
أسباب الإقامة فيها، فلا تضطرهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر؛ لأنه رجا أن يكونوا دعاةً
لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفية وهي خصال الكمال...^١
أقول: أولاً: إن آية الإمامة: ﴿...إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا

١. انظر البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني؛ البحر المحيط، أبو حيان؛ في ظلال
القرآن، لسيد قطب؛ التفسير الكبير، للرازي؛ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ حاشية القونوي
على تفسير الإمام البيضاوي ومعه حاشية ابن التمجيد ٤: ٢٢٥-٢٢٦، تفسير أنوار التنزيل
وأسرار التأويل، البيضاوي؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور: الآية. بتصرف في بعضها.

يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١﴾. وقد أعلمه الله تعالى فيها بما معناه أن ليس للظالمين نصيب في الإمامة، وإن كانوا من ذريته، الظاهر أنّها نزلت بعد مراحل عديدة من عمره الشريف؛ بعد نبوته، وبعد ما تعرّض له بسبب دعوته التوحيدية وتبليغها قومه من الأذى حتى كادوا يُنهبونه حرقاً؛ لولا مشيئة السماء، وبعد هجرته، وبعد رفع قواعد البيت والأذان بالحج... وبعد أن اتخذه رسولاً، وبعد أن اتخذه خليلاً، ولعلّها جاءت في أواخر حياته. فعن زيد الشحام، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عليه السلام عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

فآية الدعاء الأولى بالرزق التي تخصّ ذريته، كانت حين نزوله الأول في وادي مكة ووضع زوجته هاجر وابنه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

أما الثانية والكلام فيها التي تخصّ ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ...﴾، نزلت حسب التاريخ؛ لعلّه والله أعلم بعد أن صار ذلك الوادي بلداً له وجود وفيه بشر، وبعد استقرار أهله به، وهذا تمّ بعد إسكانه عليه السلام بعض ذريته بزمن، وبعد رفعه لقواعد البيت كما في: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...﴾^١.

وبعد آية الأذان: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكُ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^٢. أي بعد بناء البيت، ودعوة الناس لحجّه، وبعد أن صار الوادي أهلاً بالناس، وقد سبق دعاؤه بالأمان دعاءه بالرزق بالآية التي جاء فيها تخصيصه بـ:

١. سورة البقرة: ١٢٧.

٢. سورة الحج: ٢٧.

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فابن عاشور يقول: والظاهر أن دعوة إبراهيم المحكية في هذه الآية (البقرة: ١٢٦)، كانت قبل أن تتفرق مكة حيث لم يكن بها إلا بيت إسماعيل أو بيت أو بيتان آخران؛ لأن إبراهيم ابتدأ عمارته ببناء البيت من حجر؛ ولأن إلهام الله إياه لذلك، لإرادته تعالى مصيرها مهيع الحضارة لتلك الجهة إرهاباً لنبوّة سيدنا محمد ﷺ، ويحتمل أن ذلك المكان كان مأهولاً بسكان وقت مجيء إبراهيم وامرأته وابنه، والعرب يذكرون أنه كان في تلك الجهة عشائر من جرهم وقطور والعمالقة والكركر في جهات أجياد وعرفات. أريد من هذا أن أقول: إن الفرق الزمني طويل جداً بين آية الإمامة وآيتي الدعاء اللتين وقع فيهما تخصيص الرزق. فضلاً عن أنه ﷺ لم يكن إماماً وقت ذينك الدعاءين، فكيف قاس دعاء الرزق على دعاء الإمامة؟

وأما الاحتجاج بالسياق، ففيه تقديم وتأخير كما ذكر الرازي عن القاضي أنه قال: في هذه الآيات تقديم وتأخير؛ لأن قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، لا يمكن إلا بعد دخول البلد في الوجود، والذي ذكره من بعد، وهو قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، وإن كان متأخراً في التلاوة فهو متقدّم في المعنى.

فآية الإمامة رقمها ١٢٥ وآية الدعاء الثانية ١٢٦. وآية: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾^١.

وثانياً: أن الرزق ليس كالإمامة، فهو سبحانه يرزق الكافر، ثم عذاب ينتظره... ويرزق الظالم ولكن لا يجعله إماماً، وهذا إخبار لإبراهيم ﷺ عن تخصيصه الإمامة بذريته، ﴿قَالَ لَا يَنْأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى رازقهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم: ﴿... وَمَنْ كَفَرَ

١. سورة البقرة: ١٢٨.

فَأَمَّتْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾

فكلا التخصيصين في دعاء إبراهيم عليه السلام، أجابت السماء عنها، وأوضحت أن الرزق لا يخصص بالمؤمن دون الكافر، فيما أن الإمامة تخصص بغير الظالم.

قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَّتْهُ﴾، أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزقهم؟ ﴿نَمَّتْهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّرْهُمْ إِلَى عَذَابِ غَلِيظٍ﴾. ثم قرأ ابن عباس: ﴿كَلَّا تَبَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾. ٢

بعد هذا يتضح أن الدور التأسيسي لهذا البيت مرّ بمراحل ومواقف، وتضمّن مقدمات ونتائج، لا يمكن تجاوز كل ذلك في أي موقف وظاهرة أو بحث ومقالة تتحدث عن هذه البقعة، بل والبقاع التي تحيطها، التي شعّ نورها وبركاتهما؛ لتعمّ الدنيا كافة...

ومّا يترتب على هذا الدور أو يتمخض عنه، تحقيق الأهداف الجليلة؛ وأهمها إعادة بناء عقيدة التوحيد وهو دور كبير ومهمّة كبرى، بعدما أصابها من تحريف وشرك، وتدنيس لهذه الأرض المباركة وتلوّث لمعالمها... وقد كلّفت السماء نبيّها إبراهيم عليه السلام بذلك؛ ليؤدّي هذا الدور في عالم شوّهت به معالم التوحيد، وضاعت مفاهيمه بين قطع أصنام هنا وأوثان هناك، وبين طغيان هنا وتسلط هناك، وتجهيل للخلق هنا، وظلم واستضعاف هناك...

فالبيت الحرام هو بناء وتحصين لعقائد سليمة، وهو بقعة طهر يُتزوّد منها، وهو بناء للنفوس، وتطهير للقلوب...! وهو دار ابتلاء، وهو دار عبادة وحبّ وعمرة، وهو بيت مثابة وتوبة ومغفرة ورضوان، ومعلمٌ لقبلة مباركة نتوجه إليها في صلاة وعبادة ودعاء.

١. سورة البقرة: ١٢٦.

٢. سورة الإسراء: ٢٠.

وبعد تلك المراحل التأسيسية المباركة، حلت مرحلة: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^١.

فالأذان بالحج نطقت به الآية، وجاءت به الرويات والأخبار، نذكر منها: ولما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا رب، وما يبلغ صوتي؟ فقال الله تعالى: عليك الأذان وعليّ البلاغ. وارتفع على المقام وهو يومئذ يلاصق البيت، فارتفع به المقام حتى كأنه أطول من الجبال فنادى، وأدخل إصبعيه في أذنيه، وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً، يقول: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم، فأجابوه من تحت البحور السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها، ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتلبية: لبيك اللهم لبيك. أو لا ترونهم يأتون يلبون؟

فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة، فهم ممن استجاب لله، وذلك: قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾^٢. يعني نداء إبراهيم عليه السلام على المقام بالحج؛ أنه قال: يا رب، كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: نادِ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجّوه!

فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك^٣.

١. سورة الحج: ٢٧.

٢. سورة آل عمران: ٩٧.

٣. البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الآية: ٢٧ الحج.

لقد انطلقت مع هذا الأذان بركات السماء؛ لتعمّ الكون كله، فسمعت من قبل الخلق وهم أجنّة في الأصلاب، وبلغت أذان كلّ من كتبت السماء له هذه الفريضة على الخصوص، ولتبقى خالدةً حتى انتهاء الدنيا ومن عليها، وأتجهت الأنظار نحو بيت الله الحرام الذي انطلق منه أذان دعوة الحج، فانشغلت به نفوسهم قربت منه أو بعدت، وتعلقت به أفئدتهم، فراحت تهوي إليه، تميل إليه، ترفُّ إليه، كما قد رَفَّت ومالت وهوت إلى تلك الذرية الصالحة الطيبة البريئة، يومذاك؛ استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿فَجَعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

يقول الإمام علي عليه السلام في الخطبة ١٩٢: «ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّأُوا أَعْطَاهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِّمَنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ وَعَايَةً لِّمُلْقَى رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ نِسَاءُ الْأَفئِدَةِ مِّنْ مَّفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بَحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ».

فلذلك أفئدة الناس إلى الآن تنزع إلى الحج، وتهوي إلى الحج، وترفُّ إليه، غير غافلة عنه، حافظةً له، تشتاق إليه، غير منشغلة بغيره.

قال سيد قطب: ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام باني البيت إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به أن يؤدّن في الناس بالحج؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام، ووعد أنه أن يلبّي الناس دعوته، فيتقاطرون على البيت من ﴿كُلِّ فَجٍّ﴾، رجالاً يسعون على أقدامهم، وركوباً ﴿عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، جهده السير فضمير من الجهد والجوع... ثم يقول: وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم عليه السلام إلى اليوم والغد، وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام؛ وترف إلى رؤيته والطواف به... الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله؛ والفقير المعدم الذي لا يجد إلا قدميه. وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام.

ويفتح الشعراوي كتابه بقوله: بحلول موسم الحج في كل عام تمتلئ القلوب شوقاً

للذهاب إلى بيت الحرام؛ لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول الله ﷺ، لما في ذلك من متعة روحية لا تعادلها متعة أخرى، من إحساس بالقرب من الله، ومن انشغال بالله سبحانه وتعالى عن خلقه جميعاً سواء أكانوا أهلاً أم أقارب أم عشيرة أم غير ذلك من صلات القربى؟^١ ساعة مليئة نداء نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام، فكان الحج فريضة أو مستحباً؛ وكذا العمرة، واحداً من مصاديق ذلك الهويّ لهذه البقعة، والحنو إليها، والولاء للبيت الحرام الذي استمدت تلك البقعة مكانتها وحرمتها وبركتها منه.

له مكان و وقت معلوم :

فالحجُّ هذا المنسك الذي هو الأهم لا يصحُّ أداءه بمناسكه كلّها إلّا في تلك البقاع، ولا يصحُّ إلّا في زمن معيّن، في أوقات معيّنة، أمكنة هي الأخرى معروفة ولها حدود. وكذا العمرة لها ذلك المكان وتلك البقعة المباركة، إلّا أنّ وقتها غير محدّد، وإن تفاوتت الأوقات من حيث كون بعضها أكثر فضيلةً وأجرًا من غيره... وهكذا كان الأذان، له موقع معيّن من قِبل السماء، لا من أي مكان، بل من ذلك الوادي الذي وصفته السماء بأنه: ﴿غَيْرِ ذِي زُرْعٍ﴾. من قلب مكة: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. من فوق المقام، قام عليه عند رفعه لقواعد الكعبة، وقام عليه أخرى للأذان والنداء للحج. حتى بلغ الآفاق، وراحت تتناقله القرون والأجيال؛ ليُختم بالبشارة المباركة لخليل الرحمن، المتمثلة ببعثة سيد الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.^٢

ليواصل ﷺ تفعيل أذان المشروع الإبراهيمي المبارك، فيتخذ الرسول ﷺ المبعوث

١. انظر في ظلال القرآن: الآية. والحجّ المبرور .

٢. سورة البقرة: ١٢٩ .

من حجَّ الكعبة وبيتها الحرام وأطرافه القريبة منه والبعيدة شيئاً ما؛ رُكناً من أركان الإسلام، فريضةً من فرائضه العبادية والاجتماعية والأخلاقية لمن استطاع إليه سبيلاً: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...﴾^١. ومستحباً لغيرهم؛ فتخلد دعوة إبراهيم عليه السلام، وتتجسّد في القلوب والآمال... فتراهم فيه وهم بين طائف بالبيت ومصلّ خلف المقام أو قريباً منه، وساع بين جبلي الصفا والمروة مقتدياً بما ورثه من سيدتنا هاجر أمّ إسماعيل التي أكرمها الله تعالى بما خلّد اسمها وذكرها بخلوده، وبين من يحاذون حجر إسماعيل بتوسلهم وأدعيتهم، وبين متبركٍ بباء زمزم، المنبعث تحت قدمي إسماعيل وبين يديه؛ معالم ثلاثة لهما، لا تترك من قبل حاجٍّ أو معتمر... وبين واقفٍ هناك بعيداً عن البيت الحرام في عرفات والمزدلفة فمنى، ورام لمواقع السوء وجمرات الضلال، وبين ذابح للهدى والأضاحي لله تعالى دون أن ينسى: ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وهو ذكر خالد يضاف لنبيّ الله إسماعيل عليه السلام.

و... فلعلّهم بهذا يحققون أنّهم المصداق الأمثل لأُمَّةٍ واحدة بشعوبها وقبائلها، يُوحدهم المنسك الواحد، وتجمعهم القبلة الواحدة، والدعاء الخالد: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

حتى صحَّ أن يكون الحج أعظم مؤتمر تجتمع فيه الأفئدة المؤمنة في بقعةٍ واحدةٍ مباركةٍ؛ وأن لها فيه حياةً طيبةً، وهو ما يهدف إليه مشروع نبيّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام، وبالتالي يصدق فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾^٢.

إذن فالحجُّ من حيث المكان، لا تصحُّ أعماله؛ إلا في مواقع محددة؛ فالطواف لا يجوز إلا حول الكعبة المباركة: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^٣.

١. سورة آل عمران: ٩٧.

٢. سورة آل عمران: ٦٨.

٣. سورة الحج: ٢٩.

والسعي إلا بين الصفا والمروة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾. ١

والوقوف إلا في عرفات والمزدلفة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِن الضَّالِّين﴾. ٢

وكما للحج أمكنة متعددة ومعينة، له زمن معين، ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾. ٣

قال الزمخشري: معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم.

قال الطبرسي: ﴿الْحَجُّ﴾: أي أشهر الحج ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾. أي أشهر مؤقتة معينة لا يجوز فيها التبديل والتغيير بالتقديم والتأخير للذين كان يفعلها النساء الذين أنزل فيهم: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾. ٤

وأشهر الحج عندنا شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة على ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، وبه قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم، وقيل: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة عن عطاء والربيع وطاووس، وروي ذلك في أخبارنا، وإنما صارت هذه أشهر الحج؛ لأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا فيها بلا خلاف، وعندنا لا يصح أيضاً الإحرام بالعمرة التي يتمتع بها إلى الحج إلا فيها... ٥

وله: ﴿أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾، أو ﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾. كما يأتي.

١. سورة البقرة: ١٥٨.

٢. سورة البقرة: ١٩٨.

٣. سورة البقرة: ١٩٧.

٤. سورة التوبة: ٣٧.

٥. الكشف، للزمخشري؛ مجمع البيان، للطبرسي: الآية.

فالحجُّ بأقسامه الثلاثة (تمتع وقران وإفراد)، فلا يصحُّ أن يؤدَّى إلا في وقت معين من السنَّة، فالمكلف عليه أن لا يؤدِّي فصل مناسكه الأول أي (العمره، أو عمره التمتع) إلا في أشهر الحج: شوال وذي القعدة وذي الحجة، فيما يكون أداء فصله الثاني (الحج أو حج التمتع) في شهر ذي الحجة بدءاً بالتاسع منه. هذا من حيث الزمن.

وهكذا رمي الجمرات والأضحية والحلق، إلا في منى في أيام التشريق، وهي الأيام المعدودات في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^١.

فمنسك الحج إذن يختلف عن غيره من العبادات؛ فالصلوات الخمس لها وقت معين لأدائها، وقد استفيد ذلك من آيات قرآنية؛ فضلاً عن الروايات... ومن الآيات: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً^٢.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرِزْقاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا﴾^٣ دون أن يكون لها أمكنة مخصصة؛ إلا من حيث الفضيلة ودرجاتها... وكذا فريضة الصيام لها زمن محدد؛ فقد: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ...﴾، وهي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾^٤. فله زمن، وليس له مكان مخصَّص، فللمسلم أن يؤدِّيه في بلده أو حيث قرَّر الإقامة...

١. سورة البقرة: ٢٠٣.

٢. سورة الإسراء: ٧٩ ٧٨.

٣. سورة هود: ١١٥.

٤. سورة البقرة: ١٨٤ ١٨٥.

قال الشعراوي: معظم الفرائض التي فرضت علينا غير مقيدة بمكان أو زمان، أما الحجُّ فإنه يختلف عن سائر العبادات من حيث إنه مقيد زماناً ومكاناً، وعلى هذا فلا يصح أن تحج وأنت في بيتك أو موطنك، بل لا بدّ أن تذهب إلى بيت الله الحرام في مكة، ولا يصح أن تقف في يوم عرفة في أيّ مكان، بل لا بدّ أن تذهب إلى عرفات في التاسع من ذي الحجة وتقف في المكان المحدّد للوقوف لا تتعداه، كما لا يحقّ لك أن تؤدّي مناسك الحج في أيّ شهر من شهور العام، بل لا بدّ أن تكون في شهر ذي الحجة، وهكذا نعلم أن الحج هو الفريضة الوحيدة المقيدة زماناً ومكاناً، ولذلك كان جزاؤها غفران الذنوب؛ لأنّها من أكثر الفرائض مشقة على النفس المؤمنة.^١

ولهذا وبعد أن يذكر في مكان آخر من كتابه: أن الحجّ هو الفريضة الوحيدة المقيدة زماناً ومكاناً، يقول: ولذلك كان جزاؤها غفران الذنوب؛ لأنّها من أكثر الفرائض مشقة على النفس المؤمنة.

يُفارق كلَّ شيء!

إذن؛ فالحجّ ينتظر رحلةً مباركةً في كلِّ ما فيها، يُفارق بها كلَّ شيء... ولماذا يترك كلَّ شيءٍ حتى أعزّته؟

لما في ذلك من متعة روحية لا تعادلها متعة أخرى، بالإحساس من القرب من الله، ومن انشغال بالله سبحانه وتعالى عن خلقه جميعاً سواء أكانوا أهلاً أم أقارب أم عشيرة أم غير ذلك من صلوات القربى...^٢

يلتزم بالفراق على مرارته؛ ليؤدّي ما أمرته السماء به، فيلتقي بكلّ خير ومغفرة ورحمة... يترك ما اعتاده وتعلّمه وعمل به؛ ليكون، وهو في تلك الديار والأماكن

١ . الحجّ المبرور، ذيل الآية الشريفة .

٢ . الحجّ المبرور، ذيل الآية الشريفة .

المباركة، قريباً في علاقته بالسماء؛ بل وأكثر قرباً في ذكره الله تعالى، والأفضل قبولاً وثواباً وأجرأً في أدائه لعباداته ومواقفه؛ في نيّته وإحرامه وتلبّيته، وفي طوافه وسعيه... وهكذا هو في صلاته وتسيّحه، وفي سيرته وأخلاقه وإحسانه، يزداد طاعةً وعبادةً وخُلُقاً، ويتزوّد تقوىً وخشياًً وخشوعاً، قد لا يجد ذلك وهو مشغول بأهله وأحبّته وتجارته وأعماله التي تتصاغر كثيراً في نظره، وتتضاءل أكثر وهو يعيش أعظم وأفضل حالات القرب من السماء في تلك الأيام! فلا يشغله شيءٌ عن ذكر الله تعالى، وأداء مناسكه... ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾، أو ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾، كما في الآيتين المباركتين: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^١. ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^٢. التي يُحِبُّ الله تعالى أن يُذكر فيها؛ لحكمة بل لحكم هو الأعلّم بها... ولعلّها فرصة منحها الله سبحانه عباده؛ لإعادة حساباتهم وتقييم سيرهم... ولتوبتهم ولاستقامتهم، ولأجر عظيم وثواب جزيل ينتظرهم إن في الدنيا وإن في الآخرة، ورضاً من الله أكبر...

شُعْثًا غُبْرًا!

وكيف لا يكون الأمر كذلك والحجيج ذكوراً وإناثاً تراهم قد أحرّموا وارتدوا أبسط الثياب...؟!

يصف الإمام عليّ عليه السلام حالهم قائلاً: «حَتَّىٰ يَهْزُوا مَنَاقِبَهُمْ ذُّلًّا، يُهَلِّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ شُعْثًا لَهُ، قَدْ بَدَّوْا السَّرَائِيلَ غُبْرًا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوْهُوَا بِأَعْقَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ!»

ولماذا هذا كله؟! يجب الإمام عليه السلام قائلاً: «إِبْتِلَاءٌ عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَحْجِيسًا بَلِيغًا...».

١. سورة البقرة: ٢٠٣.

٢. سورة الحج: ٢٨.

«شُعْثًا غُبْرًا» يدلّ على أنّهم أقرب إلى المسكنة وانكسار القلوب ممّا يكون سبباً في قبول دُعائهم ومناسكهم! وقد ورد هذا الوصف لهم فيما سمّي بحديث المَبَاهَاة بالحجّاج، عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ «أنّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة يقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبادي شعْثًا غُبْرًا، أقبلوا يضربون إليّ من كلّ فجّ عميق، فأشهدكم أنّي قد أحببت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئتهم لحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم، فإذا أفاض القوم إلى جَمْع، ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله يقول: يا ملائكتي، عبادي وقفوا وعادوا في الرغبة والطلب، فأشهدكم أنّي قد أحببت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئتهم لحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألني، وكفّلت عنهم بالتبعات التي بينهم!»^١

كان هذا انتظاراً منهم لما أعدّ لهم من قبل الله تعالى، وهم يتنقلون في العرصات المباركة بحالتهم ووصفهم (شعْثًا غُبْرًا)، شعورهم منتفشة منتشرة لبقائها مكشوفة، وعلى بشرتهم وشعورهم أثر الغبار والتراب بسبب طول مُدة الإحرام، والبُعد عن الترفّه... وهم في هذه الصفة يكونون أقرب إلى انكسار القلوب، وصفة المسكنة، مما يكون سبباً في قبول دُعائهم وتوسلهم وتضرعهم ومناسكهم!

التلبية:

لَبَّيْ، يَلْبِي، تَلْبِيَّةٌ، لَبَّيْ النِّدَاءُ، لَبَّيْ دَعْوَتُهُ: استجاب له.

وهناك تليتان:

تلبية: استجابة، لكنّها تلك التي يختم بها الإنسان حياته، حين يُلَبِّي نداء ربّه، فيرحل إليه، يقدم سيرته بين يديه، فإمّا نعيم مقيم، وإمّا عذاب أليم!

وتلبية في موسم الحجّ، فالحجّ دعوة من الله تعالى إلى أن يحلّ عباده ضيوفاً عليه...

١. مجمع البيان، للشيخ الطبرسي الآية: ٢٨ الحج .

كانت هذه الدعوة عبر الأذان المبارك لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾^١. واستجابة منهم، وذلك حين يُلبّي الحجاج؛ بجموع غفيرة حاشدة دعوة ربهم تلك، ونداء لهم، قائلين: لبيك اللهم لبيك...! لقد راخوا، وهم في حالتهم تلك التي وصفها إمام التقين، يلبون ذلك الأذان الإبراهيمي الخالد وذلك النداء الحق، بأصدق نياتهم، وبانقطاع إليه تعالى وحده، وبأعلى أصواتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك!

وهم بتكرارها كأنهم يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^٢. وإن ما فيهم من نعم هي منك وحدك لا شريك لك، ﴿وَمَا يَكُفُّم مِّن تَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ...﴾^٣ ليسجلوا بتلبيتهم هذه واستجابتهم طاعةً لأمره تعالى وقبولاً عنده وأجرًا جليلًا. كما أن الحاج بتلبيته هذه يُعلنها صريحةً أنه مستجيب لذلك الداعي، ممثل لدعوته، مرحّب بتكليفه حج بيته العتيق، وشاكر ربّه الذي رزقه قدرةً وصحةً ومالاً وأماناً؛ حتى يكون بين يديه فيما ارتضاه من منازل عبادة عبر حجّ وعمرة، عبر فريضة ومستحب، عبر عمل صالح ودعاء...

فالإنسان المسلم المكلف بالأخص، ينبغي بل يجب عليه أن يتلقى أيّ تكليف؛ أكان أمراً بأن يفعل أم تركاً بأن لا يفعل، أم ندباً، بالقبول والامثال، وهو ما عليه الصالحون من تلبية ذلك بشوق والتزام؛ لأنّ كلّ شيء من قبل الله تعالى، أحبته قلوب المؤمنين، استيقنته نفوسهم، فتكاليفه محبوبة إليهم، وإلا فالتكاليف عادةً من عنوانها لا تخلو من مشقة وتعب... تستشعر نفوس مشقتها، فيما الصالحون يتلقونها بشغف وشوق، وإن خلت حياتهم منها انعدمت من لذة مناجاته تعالى، وسعادة امثال ما يريد منهم، فهم يستقبلون تكاليف السماء بعشق عجيب... والحجّ فريضة كان جزاؤها غفران

١. سورة الحج: ٢٧.

٢. سورة البقرة: ٢٨٥.

٣. سورة النحل: ٥٣.

الذنوب؛ لأنهما من أكثر الفرائض مشقة على النفس المؤمنة، كما يصرح الشعراوي في كتابه الحجّ المبرور.

والسياق في: «إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلِكَ...». يقتضي أن تقدم النعمة ويؤخر الحمد؛ لأنّ الحمد لا يكون إلا على النعمة، وهنا تقدّم الحمد وتأخرت النعمة، فهذا يدلّ على نعمة تقدمت وسبقت فجاء الحمد بعدها، إنّها تلك النعمة الكبيرة التي جعلت هذا الإنسان مؤمناً أولاً، وجعلته مستطيعاً ثانياً، أي وفّر لك شرط الاستطاعة بأنواعها، فوفّقت للحج، فأنت حين تقول: (إِنَّ الْحَمْدَ...) فكأنك بهذا تحمد الله تعالى على نعمتين، النعمة الأولى: نعمة تمكينك من السفر للحج بتوفّر شروطه. والنعمة الأخرى: نعمة السلامة وديمومة الإيمان، وأنتك وعدت، بل عدت مغفور الذنب؛ لتواصل حياتك من جديد تاركاً ما مضى من معاص، عاقداً العزم على سيرة أخرى تخلو مما يعصى الله تعالى به، فنعّم الله تعالى عليك متواصلة، فهي لا تنتهي ولا تتوقف: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ...﴾^١

والحمد لله تعالى لا يتأخر منك ولا ينقطع، يعتقده قلبك ويلهج به لسانك، (...والملك) فملك الله تعالى باق ودائم وهو أعظم النعم التي تلازم ذلك الملك، فهي دائمة بدوامه متواصلة بتواصله، (لا شريك لك...).

وهنا حملت التلبية هذا الأمر الذي يكرّره الحاج؛ ليثبت به فؤاده، ويزيده اطمئناناً، بأنّ الله تعالى واحد أحد، ليس له هنا أو هناك شريك ينازعه فيما يخلق، فيما يُحيي وفيما يُميت، فيما يُعطي وفيما يمنع، فيما يأمر وفيما ينهى، متفرد بالخلق والإبداع، فهو وحده المبدع، الخالق المدبّر الذي لا شريك له فيما أبدع وفيما خلق، وهو المالك الذي لا شريك له في الملك... وما إلى ذلك من الحياة والموت والرزق والعافية...

وهنا ينبغي أن يتذكر الحاج، وهو يردد تلييته قولَ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي

١. سورة النحل: ٩٦.

خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ*^١.

فيستشعر الحاج صفة إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، إنه يعيش بكيانه كله مع ربه، يتطلع إليه في ثقة، يتوجه إليه في حب؛ يصفه كأنه يراه، يحسّ وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه... حاله ومآله إليه، فهو الذي يهديه إليه، وكأنها يحسّ إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد، إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين!... ويحسّ إبراهيم عليه السلام بكفالة الله له في الصحة والمرض، ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه، وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح، إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه ويشفيه ويميته ويحييه... ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه! فأقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين؛ فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً، إلا أنه يطمع في فضل ربه ورحمته، وهذا وحده هو الذي يطعمه في العفو والمغفرة... إنه الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظمة عظيمة، وقيمة

عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.^٢

وهو الذي لا غيره؛ يستحق الحمد على ذلك، إذ لم يجعل حياتنا تفسد بوجود شريك له، إله أو آلهة غيره: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^٣. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^٤. نفسدت السموات

١. سورة الشعراء: ٨٢٧٨.

٢. في ظلال القرآن: الآيات بتصرف وإيجاز.

٣. سورة الأنبياء: ٢٢.

٤. سورة المؤمنون: ٩١.

والأرض بتعدد الإرادات، حين تتنازعهما، ولو تتنازعنا قسوى وإرادات؛ لا اضطربت حياتنا؛ مصالحنا، أهدافنا؛ لأنهما بين إرادتين متنافيتين، بين إله يريد وإله لا يريد، أو بين إله يشاء، وآلهة لا تريد ولا تشاء، هذا يطلب شيئاً وذاك يعارضه، أو يطلب شيئاً آخر منا، ونحن في حيرة من نرضي منهما، أنرضي هذا أو ذاك؟ فله الحمد وله الشكر على أن جعل وجهتنا واحدة، وولاءنا واحداً، وأفقنا واحداً، ومنهجنا واحداً، نستشعر جلال الله وحده، فنؤمن به وحده، ونستسلم له وحده، ونتوكل عليه وحده، ونطمئن إلى نصرته ورزقه وحمايته، فهو وحده الكفيل بذلك، حيث خلقنا وجعل لنا توجهاً واحداً؛ قلباً واحداً لا قلبين، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^١ . وإلا لكانت ضحية ولاعين متنافيين، وما يستتبع ذلك من قلق واضطراب وتمزق وشتات...

الصفة الملازمة !

وأيضاً من أكبر النعم على الحاج بالذات هو إتمامه لمناسك الحج، متقناً لها، متقرباً بها إلى الله تعالى، وهو بهذا قد أتم ركناً من الأركان الخمسة (الصلاة والصوم والحج والزكاة...) ومن اللطيف والجميل أن وصف الحج (الحاج فلان) يُطلق عليه حين أدائه وإكماله الحج بمناسكه كلها، وبهذا يتميز ركن الحج عن بقية الأركان، فلا يقال لمن أقام الصلاة (المصلي فلان) ولا لمن أتم شهر الصيام (الصائم فلان) ولا لمن زكى (المزكي فلان) إلا أنه إذا ما أدى فريضة الحج قالوا له: (جاء الحاج فلان، وذهب الحاج فلان...) ولعل هذا لأنه ما صار حاجاً إلا وقد صلى، إلا وقد صام، إلا وقد زكى إلا وقد...

وليبقى طيلة عمره تلازمه هذه الصفة، وتجعله ذاكرةً للنعمة الله عليه أن وفقه لأداء فريضة الحج التي تتضمن أداء جميع التكاليف العبادية، وهذا لا يعني أن هناك تلازماً بين هذه التكاليف، بمعنى أنه لا يصح منه تكليف إلا بأداء التكاليف الأخرى،

١. سورة الأحزاب: ٤ .

لا، فقد يكون مصلياً ولا يصوم، أو مزكياً ولا يصلي، أو يصوم ولا يصلي، نعم أن يلتزم بجميع التكاليف، ويؤدّي جميع العبادات دون أن يتعمد تركها، إلا بعذر شرعي، فهو أمر جميل ورائع وبه يتكامل المسلم، ولا يكون عاصياً، بل مطيعاً على طول الخط، ويختتم حياته ملتزماً منضبطاً بتكاليف وآداب الشرع وحدوده، ولا يتعدّها.

﴿... وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ...﴾^١ ﴿الحجُّ أشهرُ معلوماتٍ فمنَ فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ فَلَا رَفْعَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحجِّ﴾^٢.

هذا، وإن أقبلت أيام ذي الحجة، ولعلّها أفضل أيام الله تعالى، حيث بهاؤها وضياؤها يُنير الكون، والأفئدة تُملأ حباً وحنيناً إليها، فيتعلق المشتاقون لزيارة بيت الله الحرام الذي أعدته السماء؛ وهيأت النفوس بتوجهها نحوه في الواجبات كالصلاة.. وفي المستحبات والأدعية...، فالأفئدة مستعدة منتبهة إليه، لا يغيب عنها ذكره، وكيف يغيب وهو عنوان الديانة الإبراهيمية، وهو منطلق رسالة الإسلام على يدي نبيّ الله ورسوله محمد ﷺ؟ فما أن يقترب موسم الحج، ويدخل في شهوره الثلاثة شوال وذي القعدة وذي الحجة؛ حتى تتجه الأنظار صوب البيت الحرام شوقاً إليه، وأملاً في إتمام الفريضة؛ تتوجه أنظار العباد إليه، وتفيض أعينهم بدموع الحنين والبُشر، وتلهج ألسنتهم بأدعية وعبارات كلّها رجاء أن يتحقق لهم توفيق الطاعة، خاصة من قبل ﴿... مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾^٣ مادياً وصحياً وقدرة وأماناً...، ورغبةً في زيارة ضريح رسول الله ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام والصالحين... منتظرةً يوم القرب من تلك المنازل الطيبة، والمساجد والبيوت، التي يُحِبُّ الله تعالى أن يذكر فيها اسمه إيماناً وعبادة... فتنشغل نفوس المكلفين به

١. سورة البقرة: ٢٢٩.

٢. سورة البقرة: ١٩٧.

٣. سورة آل عمران: ٩٧.

تعالى بعيداً عن مشاغل الدنيا.

سواءً أكانت أموالاً، تجارةً، ومنافع ومصالح ومهنًا وأنشطةً أخرى؛ أم نفوساً، أهلاً وأولاداً، وأعزّة وأحبّة؛ وقبيلةً وأصدقاء، وهكذا تراه يترك أيّ شيء يشدّه إلى بلده وبيته، وما ألفه من سيرته حتى ممّا أحلّه الشرع له وأباحه، فيتجرّد منها وهو في رحلة الحجّ وإحرامه، ويُخضع تصرفاته لأحكام وآداب مع من مثله في الخلقة؛ مع أخيه الإنسان، فلا يُفسد علاقته معه، بشيء من جدال أو تشاجر أو فسوق... فيفسد حجّه، ومع الأقرب إليه زوجته، فيُعطل أو يؤخر علاقته المحللة بها ﴿فَلَا رَفَثَ﴾. بل حتى مع المخلوقات الأخرى من نباتٍ، فلا يقترّب الحاجّ من شجرة يقطع منها غصناً أو زهرةً أو ثمرةً، ومن حيوان فليس له أن يؤذيه أو ينقّره أو يُدللّ عليه، فضلاً عن اصطیاده، أو يُصيب طيراً بشيء أو حشرةً بأذى...

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا تستحلنّ شيئاً من الصيد وأنت حرام، ولا وأنت حلال في الحرم، ولا تدلنّ عليه محلاً ولا محرماً فيصطاده، ولا تشر إليه فيستحل من أجلك،...». وهناك غيرها^١.

وحتى الجهاد؛ فترى الحاجّ يطوف حول أحجار، فقد روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «نزلت ثلاثة أحجار من الجنة؛ مقام إبراهيم، وحجر بني إسرائيل، والحجر الأسود استودعه الله إبراهيم عليه السلام حجراً أبيض، وكان أشدّ بياضاً من القراطيس، فأسود من خطايا بني آدم»^٢.

﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^٣.

والبيت العتيق هو الكعبة، وقد بُنيت بأحجار، يبدأ الحاجّ أشواط طوافه السبعة

١. انظر كتاب وسائل الشيعة، للحر العاملي، أبواب تروك الإحرام ١٢: ٤١٥.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي، الآية: ١٢٥ البقرة.

٣. سورة الحجّ: ٢٩.

بها من حجر وينتهي إليه؛ هو الحجر الأسود، حجر مبارك؛ ينوي طوافه منه، يُشير إليه بالسلام، يُحاذيه؛ فيرفع يديه بالدعاء بطلب البركة والمغفرة، ترافقه في أشواطه أدعيةً تتوفر على توسل ومناجاة، وحجرٌ يتزاحم الحجيج عنده؛ ليُقبَلوه، دون أن يرى الحاجُّ أنه بعمله هذا قد تنازل عن كبريائه، بل يرى ذلك عزَّةً وامتثالاً وطاعةً وأملاً في الثواب...

فيما هناك حجر بل أحجار يُرميها بأحجارٍ أخرى؛ بحصيات صغيرة وهي: جمرات وجمار؛ جمع الجمرة؛ (الجمار): هي الأحجار الصغار، ومنه سميت جمار الحج للحصى التي يُرمى بها، وأما موضع الجمار بمنى فسميَ جمرة؛ لأنها تُرمى بالجمار، وقيل: لأنها مجمع الحصى التي يُرمى بها، من الجمرة وهي اجتماع القبيلة على من نأوأها، وقيل: سُميت به من قولهم: أجمر: إذا أسرع.^١

يجمعها من المزدلفة، يبحث عنها هنا وهناك بين رمال وأعشاب بل وأوساخ بكل اندفاع تاركاً كبريائه وشموخه، مبدلاً ذلك بتواضع لعلَّه ينفعه في سيرته بعد هذه الرحلة التي تعبدنا الله تعالى بها بأفعال وأحجار؛ لحكم هو أعلم بها منا... ثمَّ يدلُّ على أنَّ العظمة والعزة والكرامة للإنسان المسلم تتحقق حينما يقع اختياره موافقاً لمنهجه وشريعته تعالى، منسجماً مع ما يريد منه ومع ما يتعبده به، ويُريبه عليه، ويُعدِّه له... فبالانقياد لأحكامه وبالإستجابة لتكاليفه وحده دون غيره، تتحقق الطاعة منه لمولاه، ويتحقق القضاء على طغيان الإنسان وغطرسته وكبريائه... ليبقى منطوق الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.^٢

يتجلى مصداق هذه الآية المباركة بشكل واضح في موسم الحجِّ، فما تتضمَّنه من

١. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مادة (جمر) ١: ٢٩٢.

٢. سورة الحجرات: ١٣.

مفهوم رائع (التعارف) يُعدُّ هو العامل الأساس في العلاقات بين العباد الذين ينبغي أن يعيشوا في عالم، وإن تعددت فيه أجناسهم، واختلفت فيه ألوانهم، وتفاوتت فيه قدراتهم وثراتهم، يبقى ميزان التفاضل بينهم هو ميزان التقوى لا غير، ميزان ارتضاه الله تعالى لنا خال من الشوائب التي يوجد بها الهوى، ويتج عنها التعالي والقلق والاضطراب والتشتت... وليدلنا على أن أيَّ اختلاف ينبغي بل يجب أن لا يُفسد للودِّ قضية، خاصةً فيما يقع بين البشر من اختلاف في آرائهم وأفهامهم وتوجهاتهم، وتعدد قرآتهم لما حولهم من القضايا والأمور، ويعدُّ باباً لتكاملهم العقلي، والفكري، والمعرفي، ولولا هذا لما تطورت المعرفة البشرية وازدادت تكاملاً ورفعةً... فالحاج حين يعيش هذه الأجواء الاجتماعية الروحية، ويرى الاختلاف حاصلاً من حوله في أشياء كثيرة، وأنَّ كلَّ واحدٍ منا لا يشبه الآخر كما أنَّ الآخر لا يشبهه؛ وكأنَّ لكلِّ شيءٍ ضدًّا، وأنَّ المستبد الذي بداخلنا يجب أن نكبحه، حتى لا يستحوذ علينا، فالاستبداد شيءٌ قبيح، علينا أن نبعده عن أنفسنا وأخلاقنا، وبالتالي تنمو في النفس حالةٌ ودُّ حقيقية لمن حولنا، وإلاَّ أدمنا وجوده حيننا نجعل سيرتنا مع الناس قائمةً عليه...

ولعلَّ من حكمة مناسك الحج هذه أن يعرف الإنسان ويدرك أنَّ وجوده محدود، وأنَّ ما يملكه من جمال وقدرة وغنى، لا يخوِّله التعالي على الآخر أو استصغاره أو احتقاره... وأنَّ سيادته على ما في الكون، وأنَّ تسخيره لكلِّ ما حوله، لم يكن بذاته، وإنَّما هو بتفضيل من الله تعالى، فإن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن...

فتلبية نداء الحج وتنفيذ ما فيه من مناسك هي طاعة لله تعالى وعبودية له، وأولى هذه العبودية وتلك الطاعة أن يتجرَّد الحاج من كبره؛ ويخلع كلَّ ما يدعو للتفاخر والتكاثر، مكتفياً بثوب هو الكفن بعينه، وأنَّه يرتدي هنا كفته بنفسه وإرادته، منتظراً كفنًا آخر هو حصيلته من مشوار الدنيا ومنافعها وتقائمه عليها، قد يُلقوه عليه؛ وقد يُحرم منه...

بركات كثيرة :

فلقد بُني هذا البيت؛ ليعبد فيه الله تعالى وحده كما أحبَّ وارتضى، ويكون أيضاً منزل ضيافة، بقعةً مباركةً، تملأ بركاتها الأجواء، يملأ خيرها وعطاؤها مَنْ وما حولها، ومن تلك البركات الإيمان وثباته في النفوس، بركة استشعار خشية الله تعالى، بركة مضاعفة الحسنات وأجورها، ففيه الحسنات بمئة ألف حسنة، وفي غيره الحسنات بعشر أمثالها، ومضاعفة ثواب العبادات فيه؛ حتى ورد أن ثواب الصلاة فيه بمئة ألف صلاة...

بركة الصبر والتحمل، وقتل حالة الملل والتكاسل... بركة العمل الصالح، بركة الإنفاق وقتل صفة البخل والحرص... بركة التجرد من الدنيا وآثارها... بركة احترام الآخر، بركة التواضع واتساع الصدور للغير؛ ذلك القادم من كلِّ فجٍّ عميق؛ من بلاد شتّى، ومن بقاع بعيدة.. وباتساع القلوب والصدور؛ تتسع الأمكنة لاستقبالهم بأحسنه، واستضافتهم بأحسنها.. وقتل صفة الكبرياء والغرور والطغيان والتعسف.. وإماتة صفات التسقيط والسخرية والاستهانة بالآخرين.. بعيداً عن أيِّ تفاوت في منازلهم، وبعيداً عن أيِّ اختلاف بينهم بالمال والجاه والسلطة.. وهذه وغيرها هي مقدمات ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ الذي هو أسمى بركات الحج وأجمل منافعه!

ومن بركات هذا البيت وحجّه أن الحاج يكون أكثر ضبطاً لنفسه وسلوكه من اقتراف المعاصي، وفي مأمّن من ارتكاب الذنوب والآثام، فإنّها تُعدُّ فرصة كبيرة لعدم فعل الذنوب، وبالتالي فأَيُّ وقت يكون خالياً من تعدّي حدود الله فهو بركة... كما أن الله تعالى يُفيض على الإنسان وهو يعيش أوقات هذه الأمكنة ومناسكها القدرة على أن لا يفعل إلا ما فيه الطاعة، وما فيه الخير والإحسان؛ ويُضاعف له أجر ذلك بلا عدٍّ ولا حدٍّ...

وتبدأ هذه الزيارة بتمهيد عبر الإحرام من الميقات، فلبس الإحرام له معنى التجرد

من زخارف الحياة، ومناسك الحج من طواف وسعي، لها في كل منسك معانيه الدينية والإنسانية، والوقوف بعرفات متجرّدين متساوين على اختلاف عروقهم ولغاتهم وألوانهم بلباس واحد يغمره البياض الناصع كالحقيقة الواضحة...

ويشعر كل واحد من الحجيج، وهو ضمن جموع هائلة تحيط به، يؤدي منسك حجّه المبارك، فيرى الجميع بألوانهم وأشكالهم، وقد نزعوا عناوينهم، فلا سلطة ولا ثراء ولا وجهة ولا قوة... الكل في لباس بسيط واحد، يقفون بكل تواضع بين يدي إله لا ينظر إلا إلى قلوبهم؛ وقلوبهم فقط، هي المعيار الحقيقي لأي تفاوت بينهم، فلا صورهم تجدي، ولا هيئاتهم تنفع ولا أموالهم ولا مناصبهم... فترى الجميع بغض النظر عن مستوياتهم العلمية والفكرية والمالية والاجتماعية و... في موقف واحد، في خضوعهم وفي استكانتهم وفي توسلهم واستغفارهم، لا يتميز فرد عن فرد، ولا جماعة عن جماعة، القوي بجانب الضعيف، في صلاته وفي طوافه وفي سعيه وفي...

ما أعظم فريضة الحج التي ضمت الجميع في مشهد، وإن صغر، من مشاهد يوم القيامة؛ يوم الجمع الأكبر؛ يتذكرون فيه اجتماعهم قياماً بين يدي بارئهم، رافعين أيديهم يتضرعون ويدعون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^١

وليتعلّموا كيف يتواضع بعضهم لبعض، ويتعاون بعضهم مع بعض... وليعرفوا أنّ حياتهم لا تستقيم إلا بالتعارف والتواصل وعدم التعالي...

نعم، لنا أن نختر ما يناسبنا بين أهلينا وأحبائنا، وما يتوافق وأقدارنا، وما يتلاءم مع أدوارنا في معيشتنا وسيرتنا، ولكن الله تعالى أراد منا هنا ولحكمته البالغة أن لا تتميز في عرصات هذه الفريضة في ملابسنا وعناويننا ومناصبنا، أردنا أن نقف أمامه

١. سورة آل عمران: ٩.

كما هو يريد، بزيٍّ واحد غير مخيط، وبه ينتهي أيّ عنوان للتميّز والتعالي، غير ناظرين لمراتبنا الدنيوية، ليكون هذا الموقف مذكراً لنا ذلك الموقف الرهيب من مواقف يوم القيامة ومشاهدها: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^١. وكذا علينا أن نكون أكثر خشوعاً وتذلاً في هذه المواقف المشرفة، وذلك حين نتذكر عتاب الله لنا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^٢.

يقول ابن عاشور: قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، كقولهم: أما أن لك أن تفعل... وفي خبر إسلام أبي ذرٍّ من أن علي بن أبي طالب عليه السلام وجده في المسجد الحرام، وأراد أن يضيفه، وقال له: «أما أن للرجل أن يعرف منزله»؟ يريد أن يعرف منزلي الذي هو كمنزله. وهذا تلطف في عرض الاستضافة! ولعل مراد هذا الخشوع هو: التواضع والاستكانة والتذلل. والطمأنينة والسكون. وهي معان تستلزم لين القلوب وهو ما يتنافى مع قسوتها حين تقسوا، وهذا الخشوع بمعانيه المذكورة يتضمّن العبودية لله تعالى والطاعة له... فلا بدّ للمؤمن حقاً إذا ما عشق تكاليف السماء وهو يجب أن يكون هكذا عاشقاً لها أن يؤديها بشوق وتذلل وسكون، وبنشاط لا كسل يتتابه في أدائها، بل في إقامتها بلا تأخير... ويقدم بعمله هذا المتقن تكليفاً رائعاً وجميلاً، يُشجّع الآخرين عليه، وإلا حرم تلك التكاليف من جمالها وجلالها ولذتها، وحرَم الكون من جلاله ورونقه، وكلّها تستقي من ربِّ جميل جليل حكيم غفور رحيم... فجمال الكون يتجلّى بخلق الله الموحدين المطيعين العابدين...

١. سورة الحج: ٢.

٢. سورة الحديد: ١٦.

وهنا في بيت الله الحرام :

يتجلى الخشوع بأعلى درجاته، خاصة عند من يؤدي هذه الحج لأول مرة، فما أن يرد الحاج بيت الله الحرام، ويشاهد الكعبة حتى تذرف عيناه الدموع؛ فرحاً وسوراً؛ وأملًا في أن يُغفر ما تقدم من ذنوبه، وطمعاً في أن يبدأ سيرةً أخرى خاليةً مما انتاب حياته من معاص وأثام... فالبكاء قد يكون عيباً، وأن من يلذبه هو الضعيف الذي لا طاقة له بتحمّل أذى أو حزنًا، لكنّه هنا له توجه خاص؛ ممتزج بفرحة التخلص مما علق بالنفس من آثام وتقصير وتجاوز للحدود الشرعية، وندماً على ما اقترفه من سوء، مما يجعل له روحانية، خاصةً إذا ما كان من قلوب مخلصه، من الصالحين والعارفين، من المصلّين والطائفين، ويُعدُّ مظهرًا من مظاهر الخيفة والتضرع لله تعالى، وتعبيراً عن العبودية المطلقة له تعالى، كما أنّه يُعدُّ صورةً لمشهد من مشاهد يوم القيامة الأعظم...

فينشغل الحاج، وقد تعلقت بأجواء هذه البقاع كلُّ مشاعره، عمّا حوله بضبط مناسكه، بطوافه وسعيه، بعباداته وأدعيته، فهي المشاعر والأحاسيس الصادقة التي تكون أكثر إثارة وإخلاصاً كلّما كان العبد أكثر اقتراباً من الله تعالى وإحساساً... وفي هذه المنازل بالذات التي تعبد بها الله تعالى هذه الجموع المتوافدة من شتى بقاع الأرض، فالأمر ينبثق من القوة؛ قوة اليقين الثابتة التي تأخذ بيد الحاج المسلم؛ لتبعده عن كلّ ما قد يشوب إيمانه واعتقاده من أخطاء وانحرافات... كما أنّها قوة التوجه بعيداً عن التكبر والتعالي والاستعلاء وهي من السيئات، وطلباً لمغفرة الله ورضوانه بخشوع وتذلل، يطوف بالبيت متضرعاً إلى بارئه تعالى أن يغفر له سيئاته، أو يستبدلها حسنات، وأن يسدّده في سيرته وفي امثاله لأحكام الله سبحانه...

وسبحان الله ما أن ينتهي الحاج من بكائه وتضرعه، إلّا ويشعر بالطمأنينة، وسكون البال، وكأن الدموع التي انطلقت من الحجيح بدرجات متفاوتة، وسكبت من عيونهم

على قدر إسرأفهم على أنفسهم، وعلى قدر تقصيرهم في حق الله تعالى، قد غسلت قلوبهم، وطهرت نفوسهم، وجعلتهم أعظم قرباً من المولى، وأكثر صدقاً، حتى إنهم حين يرون المناسك؛ وقد اقتربت نهايتها إلا ويحزنهم ألم فراقها، ويشدّهم الأمل في العودة إليها في مناسباتها المقبلة...

نعم، حينما يأتي الحاج لمرات أخرى سيكون أقلّ بكاءً من المرّة الأولى، وأقلّ حرقةً وغزارة.. لا أقول بسبب الاعتیاد، بل لعلّ الإنسان الحاج صار أكثر طهراً في مسيرته وبالتالي أكثر طاعة وعبادة، وأعظم صدقاً في امثاله للدين الحنيف، وأقلّ معصيةً ومخالفة... وأفضل اعتدالاً في سيرته...

يأتي الحاج إلى هذه المنازل، يعيش أجواءها، يستلذ بروحانيتها، لا يلتفت إلى ما يشغله، فيبقى في شغل لما هو فيه، بعد أن تراجعت رغباته، وانخفضت نسبة نوازعه، وتلاشت اهتماماته، لا يدري بمن حوله، ومن حوله هو الآخر مشغول بعبادته، فكلُّ مشغول بنفسه، رجالاً ونساءً...

فالكعبة المباركة أمامك من كلّ الجهات، متوجّه إليها، تنظر إليها، تناجي ربّك كما تحبّ، تصلّي وتطوف وتسعى... تعيش بركاتها وأمانها...

نعمٌ أخرى :

إنّ من النعم نعمّة الأمان التي تتوفر في هذا المكان؛ لتكون أنموذجاً، لأن تطبق في أماكن أخرى قربت أو بعدت عن المسجد الحرام، والأمن والأمان هو كما يظهر أمر تكليفي كالعبادات من صلاة وغيرها على الفرد وعلى الجماعة وعلى الأمة القيام به، وإلا فهم في معصية الأمر التكليفي، فمن أطاع وفرّ الأمان للآخرين، ودعا إليه، ونهى عن مخالفته، وهذا يعدُّ ضرورةً لتهيئة الأمانة للقيام بالمناسك التي بدونها يتعثّر أداءها أو يتأخّر إن لم نقل: إنّ الصدود بعينه عن المسجد الحرام وفريضة الحج... ومن

مصاديق الأمن واحترام البيت: ترك الفسوق والجدال: ﴿... وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾^١

الجدال: المناقشة والمشاادة حتى يغضب الرجل صاحبه.

والفسوق: إتيان المعاصي كبرت أم صغرت... والنهي عنها ينتهي إلى ترك كل ما ينافي حالة التحرج والتجرد لله في هذه الفترة، والارتفاع على دواعي الأرض، والرياضة الروحية على التعلق بالله دون سواه، والتأدب الواجب في بيته الحرام لمن قصد إليه متجرداً حتى من مخطط الثياب! وبعد النهي عن فعل القبيح يجب إليهم فعل الجميل: ﴿... وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ...﴾. ويكفي في حسّ المؤمن أن يتذكر أن الله يعلم ما يفعله من خير ويطلع عليه، ليكون هذا حافزاً على فعل الخير؛ ليراه الله منه ويعلمه... وهذا وحده جزاء... قبل الجزاء. ثم يدعوهم إلى التزود في رحلة الحج... زاد الجسد وزاد الروح... فقد ورد أن جماعة من أهل اليمن كانوا يخرجون من ديارهم للحج ليس معهم زاد، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا!

وهذا القول فوق مخالفته لطبيعة الإسلام التي تأمر باتخاذ العدة الواقعية في الوقت الذي يتوجّه فيه القلب إلى الله، ويعتمد عليه كل الاعتماد يحمل كذلك رائحة عدم التحرج في جانب الحديث عن الله، ورائحة الامتنان على الله بأنهم يحجّون بيته فعليه أن يطعمهم! ومن ثمّ جاء التوجيه إلى الزاد بنوعيه، مع الإيحاء بالتقوى في تعبير عام دائم الإيحاء: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

والتقوى زاد القلوب والأرواح، منه تقنات، وبه تقوى وترف وتشرق، وعليه تستند في الوصول والنجاة... وأولو الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى، وخير من ينتفع بهذا الزاد.^٢

١. سورة البقرة: ١٩٧.

٢. في ظلال القرآن، لسيد قطب: الآية.

إبعاد الجدال المنهي عنه وما يتبعه من التشاجر والتنازع... وأي قول من سبب وشتم وكذب... وأن لا يباشر العبث في البيت الحرام بأي شكل كان، وأن يتجنب أي فعل يؤدي إلى الاختلاف فالشقاق والاضطراب، فتقع الفوضى أو الفتنة بين الناس، وكلها أمور بلا شك تصد الناس عن بيت الله، وتخل بأجواء هذا البيت ومناسكه، وتبعد عن ذكره سبحانه وتعالى، ولهذا كانت عقوبة من يوجد مثل هذه الأمور أو يدعو إليها، عذاب أليم، كما في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^١.

ومن النعم، أيضاً نعمة الإثابة: الرجوع إليه تعالى، فتواجد المكلف في هذا البقاع دليل إثابته وعودته إليه تعالى من دنيا فارهة لاهية شاغلة أشكالها وأحوالها، بأن يعيش في دورة تدريبية على أحكام الحج وأخلاقياته وآدابه، فلعله يألفها جيداً، فيأخذ بتطبيقها على مجالات سيرته العبادية والعملية، فالطاعة إذا ألفتها واعتادها المسلم؛ استمر عليها، وصار يستوحش من عدمها، وإن عاد من الحج؛ يلتزم بسيرة حسنة طيبة، وإن خوفاً من أن يراه الآخرون على مخالفة أو في معصية، فيعيبوا ذلك فيه، فهو أيضاً له أثر في تَعَوُّده الاستقامة...

نعمة الصبر :

هذا ما يجده الحاج فرداً أو جماعة... في السعي بين الصفا والمروة، بين جبلين في أرض خلت من أسباب الحياة من إنائها وإدامتها وتطورها، ووصفت السماء تلك البقعة بأعظم من ذلك وأدق فشكلاً أمراً خطيراً، وهو ما عانتها امرأة صالحة، تركها زوجها ورضيعها حيث لا من ماء يشربونه ولا طعام يأكلونه، ولا ظل يستظلون به،

ولا أمان يلجأون إليه، ولا ملاذ يجتمون به... ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾.

وبعد أن عرفت أن ما يفعله زوجها لا كرها لهم ولا زهداً بهم، بل هو أمر الله لا غير، فكانت تردد: إذن لن يضيعنا!

فهنا تعلمنا هذه الصالحة التوكل على الله والرضا بما قدر والصبر عليه، فالتوكل والصبر صفتان ممدوحتان، لم تكتف بهما وتبقى تنتظر، وإنما ذهبت وهما يرافقانها، تستعين بالأسباب الطبيعية، وتبحث لوليدها عن الماء، فترويه من عطش، وتنقذه من موت محقق، نزلت على أمر السماء وحكمها، فلم تعطّل جهدها بل راحت تستخدمه، فترتقي ربوةً لتنزل منها فترتقي أخرى، تقف على المروة، فتنتظر بعيداً هناك وقريباً هنا، ثم تهبط فتسير وتمرول، فلعلّها تجد في مسيرتها ما يُنقذ وليدها، وإذا بجبل آخر إنّه الصفا، فأسرت إليه فلعلّها تجد عليه ماءً أو ما يرشدها إليه، ولا تقف طويلاً عليه، فلا حياة تجدها عنده ولا طيراً ولا شجرةً ولا فيئاً ولا حتى قطرات ماء، فتغادره لغيره، وما إن نفذ جهدها وقد وصلت متعبةً لتجلس بجانب رضيعها، حتى منّت عليها السماء وتفضّلت بأنّ الماء ليس هناك حيث كنت، بل هو هذا بجوار طفلك تحت قدمه التي ما إن حركها قليلاً وبرفق وهدوء حتى نبع من تحتها، لتنبع منه حياة هذا الوادي المبارك، فكان رحمة له وللناس جميعاً، ولم يكن ينتابها القنوط واليأس من أنّ الله تعالى لم يجعل الفرج على يديها.

وإنما كان من قبل طفل رضيع ضعيف لا حول له ولا قوة تعينه على الجري بعيداً في الوادي وبين الجبلين كما فعلت أمّه، وإنّه ليس له إلا القدرة على الحركة في مكانه الذي هو ما كثر فيه ومن هنا علينا أن نلتفت إلى أنّ الفرج قد يأتي من لا يُحسب له حساب، ومن جهة لا تكون على البال فاندفعت قدمه وبدون قصد منه، وهي حركة عادية، وإذا بالماء يتدفق بين يديه وحوله، فالله تعالى لا يتركها وابنها هكذا بلا أن يمدّهما بعطائه؛ ليخلد هذا المكان وتتمّ فيه رسالاته، وتتحقّق فيه إراداته وتشريعاته

وأحكامه وقيمه... ونحن نؤدّي ما أدّته سبعة أشواط بين هاتين الربوتين أو الجبلين... وهكذا هي تعطي الأجيال درساً بليغاً يفهمنا معنى التوكل ومعنى الصبر معنى المثابرة والجد وعدم القنوط أو التكاسل... وأنّ علينا أن لا يصيبنا اليأس أبداً؛ لأنّ لنا ركناً شديداً؛ إنّهُ الحيُّ الذي لا يموت، القويُّ الذي لا يضعف... نركن إليه ونلجأ إليه، فهو ربُّ لا يتركنا، يده ممدودة لخلقه،.. فما علينا إلّا أن نستقبل حياتنا بلا قنوط، بل بقوة وأمل...

طيفان :

وهنا وبعد أن يذكر سيد قطب أنّ موسم الحجّ هو موسم عبادة تصنفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام، وهي ترف حول هذا البيت، وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد. يُشير إلى طيفي إبراهيم وهاجر: طيف إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمّه، ويتوجّه بقلبه الخافق الواجف إلى ربّه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾.

وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة المتلهبة حول البيت، وهي تهزل بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدّها الجهد، وأضناها الإشفاق على الطفل، ثمّ ترجع في الجولة السابعة وقد حطّمها اليأس؛ لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء، وإذا هي زمزم، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجذب!

عبادات متعددة :

وذاك التقييد لأداء مناسك الحج، لا يخلو من انضباط وتقيّد بوقته وأمكنته

وشروطه، وبالتالي فالانضباط والتقيّد لا بدّ لهما من مشقةٍ وتعب، وسفر، وصرف مال، وبُعدٍ عن أهل وأحبةٍ وتجارةٍ... ولعلّه إن صحَّ الوصف أنّه، أي الحجّ، قد جمع في أدائه عبادات متعددة: عبادة النفس وما تشتهيّه، وعبادة البدن، وعبادة الجوارح، وعبادة المال، وعبادة فراق الأعرّة... وكأنّ هذه، وكلّ ما يقع مقدمات للحجّ، يؤدي عبادة، أي في دائرة عبادةٍ لله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهي تُعدّ عبادات يؤجر عليها الحاج، ويتضاعف أجره بها ويزداد ثوابه، كلّما ازداد تعباً وصبراً في تحصيلها، فالحجّ عبادة جامعة لكلّ هذه...

إِنَّ لِلْحَجِّ حَقًّا :

ولعلّ من أجل ذلك كتبت الشريعة أنّ للحجّ حقًّا، كما ذكر عن الإمام السجادة عليه السلام: «حقّ الحجّ أن تعلم أنّه وفادة إلى ربّك، وفرار إليه من ذنوبك، وفيه قبول توبتك، وقضاء الفرض الذي أوجبه الله تعالى عليك».

وأنّ الحجّ المبرور أفضل الجهاد: فعن عائشة قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلَا نُجَاهِدُ؟

فَقَالَ: «لَكِنْ أَفْضَلُ الْجِهَادِ: حَجُّ مَبْرُورٌ».

«الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ».

«وَأَنَّ لِلْحَجِّجِ وَالْمُعْتَمِرِينَ غَفْرَانَ الذُّنُوبِ، وَأَنَّ ثَوَابَهُمْ هُوَ الْجَنَّةُ».

«مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرَفْثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

«تَابَعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبْثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ». كما أنّ: «مَنْ أَمَاطَ أَدَى عَنْ

طَرِيقِ مَكَّةَ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ كَتَبَ لَهُ حَسَنَةً، لَمْ يُعَذِّبْهُ اللَّهُ».

وَأَنَّ مَنْ حَفِظَ مَتَاعَ الْحَجِّجِ أَعْظَمَ أَجْرًا: فعن الخثعمي؛ قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام:

«إنّا إذا قدمنا مكة، ذهب أصحابي يطوفون، ويتركوني أحفظ متاعهم؟ قال عليه السلام: أنت أعظم أجراً!»!

وما أشبه ذلك من الأخبار التي تطول بذكرها المقالة.

وبالتالي فهناك أجر عظيم، وقبول أعظم بإتمام الحج وفق ما تريده الشريعة، وإكمال بشرطه وتوجهاته، أن يجعل إكمالها، ورجوع الحاج من هذه الرحلة؛ رحلة الذنب المغفور، ورحلة العمل الصالح إلى بلده وأهله وعمله غنيمةً كبرى تتمثل في أن يكون عليه كيوم ولدته أمُّه، يُعيده طاهراً من الذنوب، بريئاً مما اقترفه من مخالفات، يمتلك من الوقاية ما يجعله مستقبلاً سيرةً جديدةً صالحة: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه».

وكم هو رائع وجميل في حياتنا أن نوفق لما يُرضي الله تعالى، فلا يرانا حيث نهانا، ولا يفقدنا حيث أمرنا، وهو عين المروة، فقد سئل الإمام الرضا عليه السلام: «فيم المروة؟ فقال: ألا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك!»!

١. انظر صحيح البخاري وصحيح مسلم، فضائل الحج ٤: ١٢٧٤، ٥: ١٢٧٥، ٦: ١٢٧٦، ٧: ١٢٧٧. باب: ٤٧ من أبواب مقدمات الطواف، حديث: ١؛ وسائل الشيعة، باب: ١١ من أبواب الطواف، حديث: ١؛ جواهر البحار: ٣٤٩.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤٤)

العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ (١)

محمد سليمان^١

ملخص البحث:

ترك تاريخاً مهماً، مليئاً بمفاصل عديدة؛ أنشطة تحض البيت الحرام ورعاية رواده وخدمتهم، وأخرى اجتماعية وتجارية، فهو من كبار أشراف قريش ووجهائها، وتجار مكة ومرابيها، وبمواقف اجتماعية مشهودة بالجرأة والخبرة والنصيحة، وأخرى أدبية غلبت عليها الحكمة، وضمت قليلاً من الشعر والخطابة.

تاريخ يتعلّق به، وبالمسجد الحرام ومعالمه ووظائفه، وبمن حوله من قبائل وشخص، وبالبعثة النبوية المباركة في عصرها المكّي فالمدني... لعلّ القليل هو من يُخلف تاريخاً بسعته، وتعدّد فصوله ومراحله...

يعود هذا إلى بيئته ونشأته في بيت هاشميّ مكّي كريم؛ عرف بالشرف والخلق الطيب والمعرفة، وبالمكانة المرموقة البارزة بين قبائل قريش، يعود أيضاً إلى قدراته

١. محقق وباحث ديني .

الذاتية، ونظراته البعيدة، وأفكاره الواسعة؛ المنبثقة من تجربته الطويلة الممتدة على مساحة عُمر قارب التسعين سنة...، هذا وغيره ما ستتوفّر عليه في مقالتنا!

الحديث عن العباس عمّ النبي ﷺ هو حديث عن مفصل مهمّ من تاريخ مكة المكرمة ومعالمها المباركة، وهو حديث عن قريش بقبائلها، وبالذات عن بني هاشم؛ والحديث عنه؛ حديث عن فصل مهمّ من تاريخ الإسلام ووقائعه، وعن رسول الله ﷺ ودعوته وعمّن تبعه، وعن أهل بيته صلوات الله عليهم، وعن قراءته المبكرة والواعية للساحة يومذاك وللخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، ورغبته الأكيدة أن لا تُغادر الخلافة الإمام عليّاً عليه السلام.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن العباسيين، الذين هو جدّهم، اتسبوا إليه وتسمّوا باسمه، صار منهم خلفاء لدولة سمّيت باسمه دولة بني العباس؛ حكمت نصف الأرض تقريباً، ودامت خمسة قرون أو تزيد قليلاً (١٣٢-٦٥٦هـ).

بعد أن أطاحوا بدولة بني أمية تحت شعار مظلومية أهل البيت عليهم السلام، وتحت شعار الرضا من آل محمد، وبعد أن كان هناك اتفاق بينهم وبين العلويين...، حتى أن شعراء العلويين يذكرون العباس في شعرهم بالثناء والإطراء، ويجعلونه صنو النبي ﷺ ويذكرون ابنه عبد الله والفضل بمثل ذلك الثناء، فهذا الكميت في بائيته يقول:

ولن أعزل العباس صنو نبينا وصنوانه ممن أعدُّ وأندب
ولا ابنه عبد الله والفضل إنني جنيب بحبّ الهاشميين مصحب

سرعان ما انقلبوا على أهل البيت عليهم السلام والعلويين، وهذه من أخطر إساءاتهم؛ وغدت مخالفتهم لأهل بيت النبوة ومدرستهم، وملاحقة أئمتهم بالظلم والتضييق أو بالسجن والقتل، وغدرهم بأتباعهم سجنًا وملاحقةً وتنكيلًا وقتلاً حتى

أسرفوا بالدماء، وكأته غداً أمراً طبيعياً توارثه خلفاؤهم؛ خاصة المنصور العباسي
مروراً بهارون الرشيد حتى بلغ ذروته في عهد المتوكل والهادي...
إلى أن صار ظلمهم للعلويين معروفاً مستمراً، ومن لوازم سلطتهم.

يقول أبو فراس الحمداني في قصيدته الشافية:

بَسَّ الْجَزَاءُ جَزَيْتُمْ فِي بَنِي «حَسَن»! أَبَاهُم الْعَلَمُ الْهَادِي وَأُمَّهُمْ
لَا بِيَعَةَ رَدَعْتُمْ عَنْ دِمَائِهِمْ وَلَا يَمِينٌ، وَلَا قَرَبِي، وَلَا ذِمٌّ
ولقساوة جورهم التي فاقت قساوة بني أمية وظلمهم على عظم جور هؤلاء
وتعسفهم... صار بعضُ الشعراء يُقارنون بين هؤلاء وأولئك:

تالله ما فعلت أميةً فيهم معشار ما فعلت بنو العباس
ولكنني رأيتُ بعضاً يستشهد بالبيت التالي:

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ليُعرّف ببشاعة ظلم بني العباس للعلويين، غير ملتفتٍ إلى أن من نطق به هو
الشاعر أبو العطاء السندي (ت ١٨٠ هجرية) لانسرة العلويين والمظلومين، بل لأنه
بعد أن مدح (أبو العباس السفاح) حين ولي الخلافة، ولم يصله بشيء، هجا بني
العباس وذمهم، بل وهجا بني هاشم أيضاً.^١

وقد ظلت سلطة بني العباس تراقب من يكتب ويؤرخ خاصة ما له علاقة بهم،
وسخرت كثيراً من الأقلام للتمجيد بهم، وراحت تبذل المال لمن يذكر فضلهم
وفضل أجدادهم؛ لأغراض سياسية، وإسباغاً للغطاء الشرعي على سلطانهم في نزاع

١. الجاحظ في كتاب زهر الآداب ١: ٥٩ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: مقدمة المحقق؛ الشعر
والشعراء، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هجرية): ٢٩٥-٢٩٨ رقم ١٦٨ أبو العطاء السندي؛
الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، الدكتور عبد الستار الجواري: ١١٦؛ الروضة
المختارة (شرح القصائد الهاشميات) كميته بن زيد الأسدي: ٤٣. صالح علي الصالح.

خطير دار يومذاك على شرعية الخلافة بينهم وبين العلويين؛ ولإثبات كونهم أهلاً للخلافة وأحقّ بها من العلويين وغيرهم، فالعلويون من نسل عليّ بن أبي طالب، وهو ابن عمّ النبي ﷺ في حين أنّهم ينتسبون مباشرةً إلى عمّ النبي ﷺ والعمّ أقرب من ابن العمّ، لهذا ولغيره ممّا يزعمون؛ سخروا الشعراء والكتاب، واعتنى بعض الحفاظ بجمع فضائل العباس وابنه عبد الله بن عباس...، قال الذهبي: «وقد اعتنى الحفاظ بجمع فضائل العباس رعايةً للخلفاء»^١.

وقد يكون بعضهم زاد فيها تزلفاً للخلفاء العباسيين، وطلباً للمال ولرضاهم...، وهو ما جعل من يكتب عن العباس وابنه عبد الله بن العباس بالأخص، يكون حذراً في نقل الأخبار؛ وعليه أن يتوخّى الدقة قدر ما يستطيع؛ لكثرة ما كتب عنهم تملقاً وتزلفاً لسلطة العباسيين، وخوفاً من بطشهم الذي عرفوا به، وكثرت بسبب ذلك الأخبارُ المختلفة والرواياتُ الموضوعة، ممّا جعل الوصول للحقيقة أمراً ليس سهلاً وميسراً.

وليس هذا معناه أن عمّ النبي ﷺ تخلو ساحته الاجتماعية والأخلاقية والإيمانية من مواقف نبيلة ومناقب طيبة، فهي متوفرة فيه بلا شك؛ في منزلته عند رسول الله ﷺ وفي مواقفه كما يأتينا، وكذا ابنه عبد الله بن عباس الذي كان من خيرة الناس نبلاً وعلماً وعملاً؛ لكن ما فعله العباسيون ومن قبلهم الأمويون في بناء سلطتهم وترسيخ دولة الخلافة فيهم، وأنهم الأحقّ بها وأهلها، جعلهم لأجل ذلك يُسخرون أيّ شيء صدقاً وكذباً، وهذا ما جعل الشك أو التوقف فيما يُقال أو نُخبر به عن العباس وحتى عن ابنه عبد الله أمراً واقعاً، يستدعي الحذر والدقّة! وسنقف في مقالتنا هذه بما هو مناسب؛ لأنّ تحقيق الأخبار له مجال آخر لا تسعه هذه المقالة. فاكتفينا بهذه الإشارة للتنبية...

العباس عمُّ النبي ﷺ هو القرشي الهاشمي؛ أبو الفضل المكي؛ ابن عبد المطلب؛
شيبية الحمد، جدُّ النبي ﷺ زعيم قريش، وسيدها، أمير مكة، وسيد البطحاء، مفرع
قريش في النوائب، وملجؤهم في الأمور، فكان شريف قريش وسيدها كما لاً وفعالاً
من غير مدافع. ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ... ابن عدنان.

أُمُّه :

أما أمُّ العباس؛ فهي أمُّ ضرار؛ واسمها نُثيلة أو نُثيلة أو نبيلة... على الاختلاف،
بنت جناب أو خباب بن كليب النمري بن كليب...

أول امرأة كُست الكعبة، حين وفت بنذرهما الذي نذرته إن وجدت العباس بعد أن
ضاع وهو صغير، وعلى إثر هذا وكما في الخبر ولهت ولهاً شديداً كاد عقلها أن يذهب
جزعاً، وكانت ذات يسار فنذرت؛ أن تكسو البيت الحرام بالحريير والديباج، فلما عثرت
عليه وفت بنذرهما، فعُدَّت أول من كسا الكعبة، من النساء، وبالحريير والديباج. وقيل:
الذي ضاع من أولادها هو ضرار ابنها...

وهي التي قالت لزوجها عبد المطلب وكان يُعدُّ أول من خضب بالوسمة من
أهل مكة لما دخل عليها عند عودته من اليمن، وقد صبغ شعره بالوسمة، فكان مثل
حنك الغراب، يا شيب ما أحسن هذا الصبغ لو دام نعله!

يا شيبية الحمد! ما أحسن هذا الخضاب لو دام!

فقال عبد المطلب:

لو دام لي هذا السواد حمدته	فكان بديلاً من شباب قد انصرم
تمتعتُ منه و الحياة قصيرة	ولا بدّ من موت نثيلة أو هرم
وما ذا الذي يجدي على المرء خفضه	و نعمته يوماً إذا عرشه انهدم
فموت جهيز عاجل لا شوى له	أحبّ إلينا من مقاتلهم حكم

ولادته :

شاءت السماء أن لا تباعد كثيراً بين العباس بن عبد المطلب وابن أخيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وآله لا في العمر؛ فالفاصلة بين ولادتهما نحو ثلاث سنين، فقد ولد بثلاث سنين قبل عام الفيل، عام الولادة المباركة لنبي الله محمد صلى الله عليه وآله فكان أسنّ من النبي صلى الله عليه وآله بثلاث، فهو تربه؛ نظيره في السنّ، أو أسنّ منه قليلاً. ولا في النشأة والبيئة، ولدا في مكة، وضمّهما بيت واحد، وحجر واحد؛ حجر عبد المطلب، ومن بعده حجر أبي طالب؛ فولادة متقاربة وبيئة واحدة وحجر مبارك واحد، ولهذا توثقت بينهما أواصر العلاقة الطيبة والمحبة الخالصة، وراح كلُّ منهما يميل للآخر منذ الطفولة فما بعدها.

وجميل أن أذكر ما ذكره أن من فطنته وأدبه وخلقه حينها سئل بعد سنين طويلة، وقد بعث محمد صلى الله عليه وآله نبياً ورسولاً:

أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال بكمال الأدب وجميل القول:

«هو أكبر منّي، وأنا ولدتُ قبله!» وفي لفظ آخر: «هو أكبر منّي، وأنا أسنّ منه!»

وراح يواصل كلامه قائلاً: وإني لأعقل أنّه قيل لأُمّي: إن أمانة ولدت غلاماً، فخرجت بي حين أصبحت، أخذت بيدي حتى دخلنا عليها، فكأنّي أنظر إليه يمّص رجليه (يُحركهما) في عرصة، وجعل النساء يجذبنني عليه، ويقلن قبّل أحاك. وجاءت يوماً بابنها العباس، وهو أصغر إخوانه، إلى أبيه عبد المطلب، وقالت له: يا أبا الحارث قل في هذا الغلام مقالة، فأخذه وجعل يرقصه، وكان به معجباً:

ظنّي بعباس بُنيّ إن كبر	أن يمنع القوم إذا ضاع الدبر
ويسقي الحاج إذا الحاج كثر	وينزع السّجل ذا اليوم اقمطر
وينحر الكوماء في اليوم الأصّر	ويفصل الخطبة في الأمر المبر
ويكسو الريط اليماني وا لأزر	ويكشف الكرب إذا ما اليوم هرّ

أكمل من عبد كلال وحجر
 وكذا الزبير بن عبد المطلب كان هو الآخر يرفن يرقص العباس أخاه:
 إن أخي العباس عفٌ ذو كرم
 فيه عن العوراء إن قلت صمم
 يرتاح للمجد ويوفي بالدمم
 وينحر الكوماء في اليوم الشبم
 أكرم بأعراقك من خال وعم.^١

إخوانه وأخواته :

كان له أحد عشر أختاً، وست أخوات؛ وأكثرهم من أبيه، فعبد المطلب له ست زوجات.

فالعباس وأخوه ضرار من أمٍّ واحدة وهي تتيلة بنت جناب بن كليب من بني النمر بن قاسط.

فيها الحارث وقثم من صفية بنت جندب بن حجير من بني عامر بن صعصعة.
 وأما أبو طالب وعبد الله والزبير وعاتكة وبرّة وأميمة وأروى، وأم حكيم،
 واسمها البيضاء وهي توأمة عبد الله، فمن فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن
 مخزوم القرشية.

والمقوم والمغيرة وحزمة وصفية من هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن
 كلاب القرشية.

وأبو لهب فمن لبنى بنت هاجر بن عبد مناف الخزاعية.

ومصعب وغلب عليه اسم الغيداق فمن مُمَنَعَة بنت عمرو بن مالك الخزاعية.

١. انظر في هذا: الإصابة، وأسد الغابة ترجمة العباس بن عبد المطلب؛ السيرة الحلبية للحلبي (ت ١٠٤٤ هجرية) ١: ٦؛ كتاب النمق لمحمد بن حبيب البغدادي: ١١٢-١١٣، ٤٣٦؛ أنساب الأشراف للبلاذري ١: ٦٦، ٨٩؛ العقد الفريد، لابن عبد ربّه ٣: ٣١٥.

وهناك خبر بأنَّ لهم أخاً يدعى عبد الكعبة بن عبد المطلب، مات صغيراً قبل
النذر الذي نذره عبد المطلب في ذبح ولده. وإلا ففي كتاب أخبار مكة (٢: ٤٧-٤٨).
لعبد المطلب عشرة ذكور.

زوجہ :

أمُّ الفضل؛ لبابة الهلالية؛ الكبرى، سميت كذلك تمييزاً لها عن أخت لها لأبيها
تعرف بلبابة الصغرى التي كانت زوجاً للوليد بن المغيرة، وتلقب بالعصاء...
ولبابة الكبرى هي ابنة الحارث بن حزن بن البجير بن الهزيم بن رؤبة بن عبد أو
عبيد الله بن هلال بن... بن قيس بن عيلان بن مضر.

وأمُّ الفضل هذه؛ هي تلك المرأة الصالحة التي حظيت بمنزلة كريمة عند
رسول الله ﷺ وكفى بذلك عزاً وفخراً! فهي أول امرأة آمنت برسول الله ﷺ بعد
بعثته ﷺ بعد أم المؤمنين خديجة رضوان الله عليها. تتصف بالشجاعة والجرأة بالحق،
فقد أثبت لنا التاريخ أمها التي ضربت أحد كبار مشركي مكة، أباهب عم النبي ﷺ
بعمود، فشجته، حين رآته يضرب أبا رافع القبطي المدني الذي كان مولى للعباس
فوهبه للنبي ﷺ وقد أسلم؛ في حجرة زمزم بمكة، على أثر وقعة بدر؛ ليموت أبوهب
بسيح ليال بعد ضربتها هذه له. فعن أبي رافع؛ أنه قال: كنتُ غلاماً للعباس، وكان
الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس سراً، وأسلمت أمُّ الفضل، وأسلمت،
وكان العباس يهاب قومه، فيكتم إسلامه، وكان أبوهب قد تخلّف عن بدر، فلما
جاءه الخبر كتبه الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، وكنتُ رجلاً ضعيفاً أعمل
الأقداح، أنحتُها في حجرة زمزم، فوالله إنني لجالس فيها أنحتُ أقداحي، وعندي أمُّ
الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذا أقبل أبوهب يجير رجليه بشر حتى
جلس على طنب الحجر، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا
أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبوهب: هلم إليّ، فعندك

لعمري الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا. وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعتُ طنب الحجره بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة! قال: فرجع أبو لهب يده، فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فثاورته، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني، وكنتُ رجلاً ضعيفاً. فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجره، فأخذته فضربته به ضربةً؛ فعلت في رأسه شجةً منكراً وقالت: استضعفتَه أن غاب عنه سيده، فقام مؤلياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته، وهي قرحة تتشاءم بها العرب، فتركه بنوه، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبّة في تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرة، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه!

لقد كانت هزيمة مشركي مكة في بدر الكبرى مؤلمة لهم، تغضبهم أنباؤها، وكانوا لا يريدون سماع أخبار هزيمتهم وانتصار المسلمين فيها أبداً، بل منعوا النياحة على قتلاهم خوفاً من أن يشمت بهم المسلمون! فكيف لا يغضب أبو لهب وهو يسمع أبارافع ينطق بالحق فيقول: تلك والله الملائكة؟!!

أمها:

هند بنت عوف بن زهير بن حماطة بن جرش بن أسلم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس... بن يعرب بن قحطان.

وهي، إضافة إلى كونها أمّاً للبابية الهالكية، أمّ للخثعميات الثلاث، فتكون لبابة أختهن لأمهن، وهنّ: أسماء بنت عميس الخثعمية. وسلمى بنت عميس الخثعمية. وسلامة بنت عميس الخثعمية.

أكرم عجوز!

وتوصف هند بنت عوف بأنها أكرم عجوز في الأرض أصهاراً: فميمونة ابنتها بنت الحارث، تزوجها رسول الله ﷺ. ففي خبر: تزوج رسول الله ﷺ ميمونة وهو حلال، وقال الزهري: بلغ سعيد بن المسيب أن عكرمة قال: تزوج رسول الله ميمونة وهو محرم. فقال: كذب عكرمة، قدم رسول الله ﷺ وهو محرم، فلما حلَّ تزوجها.. تزوجها رسول الله ﷺ في مكة المكرمة في عمرة القضاء، بعد أن كانت أرملةً في السادسة والعشرين من عمرها، وفي خبر: زوج العباس رسول الله ﷺ ميمونة. فهي آخر زوجاته ﷺ، وكان اسمها برة، فسماها الرسول ﷺ ميمونة، ولعلَّ زواجها منها لبناء علاقة طيبة مع قبيلتها التي هي من أعلم قبائل العرب وأشرفها في مكة، ولعلَّه كان تكريماً لعمه العباس ولزوجته أم الفضل، أول امرأة آمنت بدعوته ﷺ بعد أم المؤمنين خديجة الكبرى.

وابنتها:

زينب بنت خزيمة الهلالية؛ وهي كما هو واضح أخت ميمونة من أمها، هي الأخرى زوج النبي ﷺ. وكانت قبل زواجها من النبي ﷺ أرملة عبدة بن الحارث بن المطلب، أحد شهداء وقعة بدر الكبرى، بعد أن قاتل إلى جنب الإمام علي عليه السلام وسيد الشهداء حمزة رضوان الله عليه. وكانت قد عرفت بأم المساكين؛ لكثرة تصدَّقها على اليتامى والمساكين؛ واحتفظت بوصفها هذا طيلة حياتها في العهد الجاهلي وكذا في العهد الإسلامي، فلا يُذكر اسمها إلا مقترناً بوصفها المذكور، لم تدم حياتها في بيت النبوة إلا شهرين أو ثلاثة أو ثمانية أشهر، توفيت، وهي أولى نساءه ﷺ اللواتي دُفنَّ في البقيع. وبهذه العلقة حظيت كلُّ من الأختين ميمونة وزينب بمنزلة عالية في أمهات المؤمنين، وهي أن كانتا من اللواتي حرم الله تعالى على المسلمين أن يتزوجوهن بعد وفاته ﷺ، فقال: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ الأحزاب: ٦.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾. الأحزاب: ٥٣ .

علقة جليلة مباركة بسيد المرسلين ﷺ منقبة طيبة وفضيلة وشرف عظيم، ما بعده ولا قبله شرف، وهو غاية كل خير، ولعل الآية نزلت تقديراً وتعظيماً وتبجيلاً لمقام هذه المنزلة، فإن تزوجن بغيره مهما كانت مكانة هذا الغير، فهو الدنو عن ذلك الشرف وهذا التقدير والتبجيل...!

فيما ابنتها؛ أسماء بنت عميس الخثعمية، كانت زوجاً لجعفر بن عبد المطلب، المهاجرة معه إلى الحبشة، وولدت له أبناءه... وبعد استشهاد زوجها جعفر رضوان الله عليه، صارت زوجاً لأبي بكر، فولدت له محمد بن أبي بكر، ثم صارت زوجاً للإمام علي عليه السلام، فولدت له يحيى وعوناً. وسلمى بنت عميس الخثعمية، كانت زوجاً لحمزة بن عبد المطلب، فولدت له أمة الله... وسلامة بنت عميس الخثعمية، كانت تحت عبد الله بن كعب بن كعب الخثعمي...

ولبابة الهلالية؛ الكبرى، ابنة هند بنت عوف من الحارث بن حزن بن بجير.. كانت زوجاً للعباس بن عبد المطلب، فكنته أبو الفضل وكنتها أم الفضل، حتى غدت مشهورةً بكنيتها؛ ومعروفةً باسمها، وكان ابنها عبد الله بن عباس إذا حدث عنها، لا يقول: عن أمي، بل عن أم الفضل؛ لأنها كانت مشهورةً بأم الفضل! وهي من عليّة النساء، ومن المنجبات، ولدت للعباس عشرة من الذكور، منهم الفضل بن العباس، وعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن العباس (بر الأمة) ما عدا الإناث. وفي قول: ولدت ستة رجال لم تلد امرأة مثلهم، فهي: أم أولاده الرجال الستة النجباء، كما عن الذهبي. وهم: الفضل وهو الأكبر، وبه كان العباس يُكنى، وكانت به تُكنى، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم، وعبد الرحمن، ومعبد بن العباس. وأم حبيب، ولها ارتجز عبد الله بن يزيد الهلالي:

مَا وَلَدَتْ نَجِيَّةً مِنْ فَحْلٍ كَسْتَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّ الْفَضْلِ
 أَكْرَمَ بِهَا مِنْ كَهْلَةٍ، وَكَهْلٍ بِجِبِلِّ نَعْلَمُهُ أَوْ سَهْلٍ
 عَمِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى ذِي الْفَضْلِ وَخَاتَمِ الرَّسْلِ وَخَيْرِ الرَّسْلِ^١
 وقال أيضاً:

ونحن ولدنا الفضل والحبر بعده عنيت أبا العباس ذا الدين والندی
 ألا و عبيد الله ثم ابن أمه ألا قثماً أعني و ذا الباع معبدا
 غيوث على العافين خرس عن الخنا أسود إذا ما موقد الحرب أوقدا
 إذا افتخرت يوماً قريش رأيتهم يفوقونهم حلماً و جوداً وسؤددا

هذا، وللعباس أولاد غير ما ذكرنا، ولكن من زوجات آخر، وهم؛ تمام بن العباس؛ وكثير بن العباس، وأُمُّها أمُّ ولد. والحارث بن العباس وأُمُّه حجيلة بنت جندب بن الربيع، هذلية. وصفية بنت العباس وأُمُّها أمُّ ولد. وآمنة بنت العباس، ويقال أمينة، كانت عند العباس بن عتبة بن أبي لهب، فولدت له الفضل الشاعر وأُمُّها أمُّ ولد. وكانت أمُّ حبيب عند الأسود بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي، فولدت له رزق بن الأسود، ولبابة بنت الأسود وهم يسكنون مكة، وكانت صفية عند محمد بن عبد الله بن مسروح واسمه الحارث بن يعمر أحد بني سعد بن بكر...

إسلامها:

يقال: إنَّ أمَّ الفضل أولى امرأة أسلمت بعد خديجة عليها السلام، حين بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قال الشاعر:

بها ثلث الإسلام بعد محمد وزوج رسول الله بنت خويلد
 فعن ابن سعد أنه قال: ... وكان ابنها عبد الله يقول: كنت أنا وأمِّي من المستضعفين

١. حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢: ٢٧٨؛ المنهل العذب المورود؛ شرح سنن أبي داود للشيخ السبكي ٥: ٢٣٣؛ تهذيب سير أعلام النبلاء ١: ٦٢ رقم ١٦٠.

من النساء والولدان. وقال عنها الذهبي: قديمة الإسلام، فكان ابنها عبد الله يقول: كنت أنا وأمِّي من المستضعفين من النساء والولدان؛ وقيل: لم يسلم من النساء أحد قبلها يعني بعد خديجة، فهذا يؤذن بأنهما أسلما قبل العباس، وعجزا عن الهجرة. وكانت أمّ الفضل من عليّة النساء، تحوّل بها العباس بعد الفتح إلى المدينة. هذا، وأنّ الأخوات الأربع مؤمنات: أمّ الفضل وميمونة وأسما وسلمى. كما جاء عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ: فأما ميمونة فهي أمّ المؤمنين، وهي شقيقة أمّ الفضل، وأمّا أسما وسلمى فأختاهما من أبيهما وهما بنتا عميس الخثعمية.

البشائر!

ذاك عن إسلامها وأخواتها وأولادها، أمّا عن منزلتها، فإنّ أمّ الفضل قد حظيت بمنزلة عند النبيّ ﷺ فكان يحبّها حبّاً جمّاً، إضافةً إلى أنّه كان يزورها ويقبلُ عندها يوم كان بمكة ويزورها، وعاود ذلك بعد هجرتها إلى المدينة، فكان يزورها ويأتي بيتها كثيراً، وفي هذا بركة عظيمة تحلّ في بيتها، وأئمّها، كما روي في صيام يوم عرفة، أرسلت له ﷺ قدحاً من لبن، فشرّب منه في هذا الموقف، فعرفوا أنّه ﷺ لم يكن صائماً، فقد بوركّت هذه المرأة الصالحة أيضاً ببشائر من قبل رسول الله ﷺ:

فعن ابن عباس، قال: حدثتني أمّ الفضل بنت الحارث قالت: بينا أنا مارة والنبيّ ﷺ في الحجر، فقال: يا أمّ الفضل! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: إنك حامل بسلام. قلت: كيف وقد تحالفت قريش لا يولدون النساء؟! قال: هو ما أقول لك، فإذا وضعته فأتيني به. فلما وضعته أتيتُ به النبيّ ﷺ فسماه عبد الله، وألياه (حنكه بريقه) بريقه، قال: اذهبي به، فلتجدنه كيساً. قالت: فأتيتُ العباس فأخبرته، فتبسّم، ثمّ أتى النبيّ ﷺ، وكان رجلاً جميلاً، مديد القامة، فلما رآه النبيّ ﷺ قام إليه، فقبل ما بين عينيه وأفْعده عن يمينه، ثمّ قال: هذا عمّي، فمن شاء فليباه بعمّه! فقال العباس

بعض القول، يا رسول الله. قال: ولم لا أقول وأنت عمِّي وبقية آبائي والعمُّ والد.
فصارت أمّ ترجمان القرآن، وحرير هذه الأمة!

وحضرت وفاته ﷺ :

وكانت هي مع النساء في بيت النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه. ففي سند عن ابن عباس عن أمّ الفضل، قالت: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه في مرضه، فصلّى المغرب، فقرأ المرسلات، فما صلاها بعد حتى لقي الله عزّ وجلّ. وصارت رضوان الله عليها تذكر هذه السورة كآخر ما سمعته من رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس أنّ أمّ الفضل بنت الحارث سمعته (سمعني) وهو يقرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾.

فقلت: يا بنيّ لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنّها لآخر ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.^١

وروى الشيخ المفيد بسنده إلى زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام.

مما يدل على أنّها لم تكتف بذلك، بل غدت من رواة الأحاديث، وقد حدّث عنها ولدها عبد الله بن عباس، وأخوه تمام، وأيضاً أنس بن مالك، وعبد الله بن الحارث وعمير بن الحارث مولاهما، وكريب مولى ابنها...

الثناء !

فقد قيل: ما رأينا بني أمّ أبعد قبوراً من بني العباس لأمّ الفضل! واستشهد الفضل بأجنادين، ومات معبد وعبد الرحمن بإفريقية، وتوفي عبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، وقثم بسمرقند أو مرو، وكثير بينبع أخذته الذبحة. وبالتالي فليس لها ولد دفن في العراق... ومع هذا فهناك أبيات رثاء، ذكرها القيرواني، المتوفى سنة ٤٨٨ هجرية في

١٧٠ . ١ . انظر المنهل العذب المورد، شرح سنن أبي داود، للشيخ السبكي ٥ : ٢٣٣ .

كتابه ٤ : ١٠٤ تحت عنوان (دمعة امرأة على بنيتها)، قالت امرأة من العرب (لم يسمها)
يُقال: إنّها امرأة العباس عمّ النبي ﷺ ترثي بنيتها:

دعوا من المجد أكنافاً إلى أجل حتى إذا كملت أظهاؤهم وردوا
ميتٌ بمصرٍ وميتٌ بالعراق وميِّد تٌ بالحجاز منايا بينهم بددٌ
كانت لهم هممٌ فرقن بينهم إذا القعايدُ عن أمثالهم قعدوا
بثّ الجميل وتفريج الجليل وإعطاء الجزيل الذي لم يعطه أحدٌ

فيما ذكرت هذه الأبيات وهي من البسيط ومع اختلاف يسير لأمّ معدان الأنصارية
من قبل القالي المتوفى ٢٥٦ هجرية، أي قبل القيرواني بأكثر من ٢٣٠ سنة:

لا يبعد الله فتياناً رزتهم بانوا لوقت مناياهم فقد بعدوا
أضحت قبورهم شتى ويجمعهم زو المنون و لم يجمعهم بلد
رغوا من المجد أكنافاً إلى أجل حتى إذا بلغت أظهاؤهم وردوا
كانت لهم هممٌ فرقن بينهم إذا القعايد عن أمثالها قعدوا
فعل الجميل وتفريج الجليل وإع طاء الجزيل إذا لم يعطه أحد.١

هذا أولاً.

وثانياً: من أهم وأفضل أولادها هو عبد الله بن عباس، وقد توفي سنة ٦٨ هجرية،
أي بعدها بأكثر من ثلاثين سنة، وهكذا بعدها عبيد الله توفي سنة ٥٨ هجرية. وقُثم
بعدها سنة سبع وخمسين من الهجرة. وكلّ من معبد وعبد الرحمن قُتلا في أفريقيا
سنة ٣٥ هجرية. فكيف رثتهم مع بقية أولادها؟! نعم الفضل بن العباس (ت ١٨
هجرية).

١. انظر زهر الآداب وثمر الأباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني (ت ٤٨٨ هجرية) ٤ : ١٠٤؛ أمالي
القالي (ت ٢٥٦ هجرية) ٢ : ٩٦-٩٥؛ التذكرة الحمدونية لابن حمدون (ت ٥٦٢ هجرية)؛
الأمالي للشيخ الطوسي: ١٢٢ رقم ١٩٠؛ ٣.

ثالثاً: القيرواني يبدو من قوله: (دمعة امرأة على بنيتها، قالت امرأة من العرب، يُقال: إنَّها امرأة العباس) كلمات تدلُّ على أنه لم يصرح بأبائها أمَّ الفضل، أو على الأقل كان متردداً فيما ذكره ممَّا يدلُّ على أنَّ هذه الأبيات ليست لأمَّ الفضل. وإن كان عليه أن يُوضَّح.

وفاتها:

تعددت الأخبار في وقت وفاتها رضوان الله تعالى عليها، فعن العديد من الأخبار أنَّها توفيت قبل زوجها العباس الذي تُوفِّي في خلافة عثمان في ١٤ من رجب سنة ٣٢ هـ بالمدينة المنورة، ودُفن في مقبرة البقيع.

ابن حبان قال: ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العباس رضي الله عنه. وفي قول: بعده.

الحصري القيرواني: وتوفيت أمَّ الفضل بعد زوجها العباس.. والذهبي يقول: أحسبها توفيت في خلافة عثمان. دون أن يُشير إلى أمَّها قبل أو بعد زوجها.

ولكن هناك خبر في شأن الناكثين لبيعة الإمام عليّ، وهم طلحة والزبير وعائشة وآخرون، يذكر لها دور، وذلك حين اجتمع رأيهم بمكة على معارضة الإمام عليّ بإعلان العصيان على خلافته، فإنَّ أمَّ الفضل لما كانت بمكة وعلمت بما اتفق عليه الناكثون استأجرت رجلاً من جهينة اسمه ظفر، وكتبت معه عن نية القوم، وأمرته أن يسرع في إيصال كتابها إلى الإمام أمير المؤمنين عليّ بالمدينة. فإنَّ صبح هذا فإنه يدلُّ على بقائها حيَّة في خلافة الإمام عليّ، فمعركة الجمل وقعت سنة ٣٦ هجرية.^١

صفاته:

تمتع العباس بصفات جلييلة عقلاً وحكمةً وخلقاً وجوداً، فقد عُرف بأنَّه أجود

١. انظر سير أعلام النبلاء، للذهبي؛ زهر الآداب للقيرواني، وغيرهما.

أهل مكة، وخيرهم عملاً، وأحكمهم عقلاً، وأكثرهم فطنةً ونجابةً، وبملايح جماليةً،
وبقدرات جسمية حيث كان ذا بسطة في الجسم وقوة فيه، وأنه جهوريُّ الصوت...
وقد نُسب إلى الإمام عليٍّ عليه السلام أنه قال: «لم أرَ رأياً قط أو ثق فتلاً وأحكم عقداً من رأي
عمي العباس!»!

وعن ابن الأثير أنه قال:.. ذو الرأي هو العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وآله كان
يضرب به المثل في سداد الرأي.

وقال الجاحظ: إنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس. وذكر أيضاً نقلاً عن الكلبي
أنه قال: كانت قريش تعدّ أهل الجزالة في الرأي العباس بن عبد المطلب.

وقد وصفه مؤرخوه بأنه كان جواداً مفرط الجود، وكان وصولاً للرحم والأهل،
كما كان فطناً إلى حدّ الدهاء، وبفطنته هذه التي تعززها مكانته الاجتماعية العالية في
قريش، استطاع أن يدرأ عن الرسول صلى الله عليه وآله الكثير من أذى مشركي قريش وسوء ما
تعدّه للتأمر عليه بعد أن أجهر صلى الله عليه وآله بدعوته... ووصفوه بأنه كان أبيض جميلاً بضاً
طويلاً، له ظفيران، معتدل القامة، حسن الوجه، كاملاً جواداً مطعماً وصولاً للرحم،
ذا رأي حسن ودعوة مرجوة!

فعن ابن عباس أنه قال: كان أبي أبيض بضاً رجل الشعر، حسن اللحية في رقة، تام
القامة، رحب الجبهة، أهدب الأشفار، أو قال: أوطف، ألقى الأنف، عظيم العينين،
سهل الخدين، بادناً جسيماً، وكان قبل أن تكبر سنه ذا ضفيرتين. وكفّ بصره قبل موته
بخمسة سنين، خضب ثم ترك الخضاب.

وعن الكلبي أنه قال: كان العباس شريفاً، مهيباً، عاقلاً، جميلاً، أبيض بضاً، له
ضفيران، معتدل القامة. وفي قول: بل كان من أطول الرجال، وأحسنهم صورةً،
وأبهاهم، وأجهرهم صوتاً، مع الحلم الوافر والسؤدد. حتى إن البطارقة في الشام، وقد
أخذهم بهاؤه وجماله، راحوا يسلمون عليه، يظنون أنه الخليفة، كما جاء في الخبر حين

قدم الشام مع عمر. فعن أسلم مولى عمر: أنَّ عمر لما دنا من الشام تنحى ومعه غلامه، فعمد إلى مركب غلامه فركبه، وعليه فرو ومقلوب، وحول غلامه على رحل نفسه. وأنَّ العباس لبين يديه على فرس عتيق، وكان رجلاً جميلاً، فجعلت البطارقة يسلمون عليه، فيشير: لستُ به، وإنَّه ذاك. ووصفوه بأنَّه ثوب لعاري بني هاشم، وجفنة لجائعهم، ومقطرة لجاهلهم، وفي ذلك يقول إبراهيم بن عليِّ بن هرمة:

وكانت لعباس ثلاث نعدّها إذا ما جناب الحي أصبح أشهباً
فسلسلة تنهي الظلوم وجفنة تباح فيكسوها السنام المزغباً
وحلة عصب ما تزال معدّة لعار ضريكِ ثوبه قد تهبّبا

أمّا عن صوته، فعرف الرجل بصوتِه الجهوريّ، بقوة صوته وشدّته وعلوه، وفي حديثه: أنّه نادى بصوتٍ له جهوريّ؛ أي شديد عال، وهو منسوب إلى جهور بصوته، حتى إنَّ قريشاً كانت تعدّه من صيّي العرب، وذكرت لصوته حكايات، منها: كان ينادي غلمانه من سلع جبل وسط المدينة وهم بالغابة: مكان على ثمانية أميال من المدينة وذلك آخر الليل فيسمعونه، ولقد أتتهم غارة فصاح: يا صباحاه، فأسقطت الحوامل لشدة صوته.

... وكان رجلاً صيئاً، ويروى من شدّة صوته أنّه أغير يوماً على مكة، فنادى: واصباحاه! فأسقطت كلُّ حامل سمعت صوته جينها!

قال الزمخشري وغيره: إنّّه كان أجهر الناس صوتاً، كان يزر السباع عن الغنم، فيفتق مرارة الأسد في جوفه، وفيه يقول النابغة الجعدي:

زر أبو عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم
﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾. وفي كتاب الترجمان في غريب القرآن:

في تفسير الزجرة: الصيحة، ومنه زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها، قال الراجز: زجر أبي عروة السباع... ثم يقول: أبو عروة هذا هو العباس بن عبد المطلب، وكان صيئاً.

قال الأصمعي: كان للعباس رضي الله عنه راع يرعى له على مسيرة ثلاثة أميال،
فإذا أراد منه شيئاً صاح به، فأسمعه حاجته!

إذن فالعباس بن عبد المطلب جهوري الصوت، وكان صوته نعمة عظيمة
للمسلمين؛ حين سجل دوراً حاسماً في إعادة المنهزمين منهم إلى ميدان القتال؛ بعد أن
أمره النبي ﷺ أن يهتف بهم، أو: يا عباس، اصرخ بالناس! يا أصحاب الشجرة! فكان
النصر حليفهم، كما يأتينا في الكلام عن وقعة حنين، ودور العباس فيها.^١

يمنع الجار:

من مناقبه التي ذكرناها أعلاه: كان يمنع الجار، ويحمي الذمار، ويبذل المال،
ويعطي في النوائب. فقد عرف واشتهر بذلك، وبأنه يُعين من يستجير به، وهذه
الصفة تُعدُّ واحدة من الإحسان والخلق الطيب، وغالباً ما ترك آثارها عند الآخر
المُستجير، وهذا يجرنا للكلام
عن جواره لقيس بن نسيبة قبل الإسلام.

ففي سيرة قيس بن نسيبة، جاء عن أحمد بن إبراهيم عن أبي حفص السلمي قال:
كان قيس بن نسيبة دخل مكة، فباع إبلاً له من رجل من قريش، فلواه حقه،
فكان يقوم ويقول:

يالآل فهز كيف هذا في الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم

أظلم لا يمنع مني من ظلم؟!!

وبلغ الخبر العباس بن مرداس، فقال أبياتاً، وبعث بها مع الحاج إلى قيس بن نسيبة
بن أبي عامر:

١. انظر صحيح مسلم، الحديث: ١٧٧٥؛ سير أعلام النبلاء للذهبي ٢: ٩٥؛ صحيح مسلم بشرح
النووي ٦: ٣٦٠؛ وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: الآية ٢٥-٢٦ التوبة؛ كتاب الكامل
للمبرد ٢: ١٢٣.

إن كان جارك لم تنفك ذمته حتى سقيت بكأس الذل أنفاسا
فأت البيوت فكن من أهلها صددا تلقى ابن حرب وتلقى المرأ عباسا
ساقى الحجيج وهذا ياسر فلج والمجد يورث أحماساً وأسداسا
فلما ظهر هذا الشعر، قال أبو سفيان: إنه قد جعل المجد أحماساً وأسداساً، فصير
الأحماس للعباس وصير لي الأسداس، فعليك بالعباس، فذهب إلى العباس فأخذ له
بحقه وقال له: أنا لك جار كلما دخلت مكة، فما ذهب لك فهو عليّ، وقال العباس
ابن عبد المطلب في ذلك:

حفظتُ لقيس حقه و ذمامه وأسعطت فيه الرغم من كان راغم
سأنصره ما كان حياً وإن أمت أحض عليه للتناصر هاشم

وكان بينه وبين بني هاشم تلك الخلّة؛ حتى بعث الله النبي ﷺ قال: فوفد قيس بن
نشبة على النبي ﷺ، وكان قيس قد قرأ الكتب. قال للنبي ﷺ: إنه لم يبعث الله نبياً قط
إلا وسيطاً في قومه مرضياً، وقد علمنا أنك وسيط في قومك مرضي عندهم، ولكن
أتأذن فأسألك عما كانت تسأل عنه الأنبياء؟ قال: نعم. قال أتعرف كحل؟ قال: هي
السماء. قال: أتعرف محل؟ قال: نعم، هي الأرض. قال: لمن هما؟ قال: الله تعالى، والله
الأمر من قبل ومن بعد! قال: فأسلم قيس بن نشبة، وأنشأ يقول:

تابعتُ دينَ محمد ورضيته إن الرضا لأمانتي ولديني
ذاك امرؤ نازعته قول العدى وعقدت منه يمينه بيمينني
قد كنت آمله وأنظر دهره فالله قدر أنه يهديني
أعني ابن أمانة الأمين ومن به أرجو السلامة من عذاب الهون

قال: فكان رسول الله ﷺ يسميه خير بني سليم، وكان إذا فقدته يقول: ما فعل
خيركم يا بني سليم؟! وقد أشار ابن قيس بن نشبة إلى ذلك في أبيات قالها في مدح
عبد الله بن عباس في الإسلام فقال:

أحببكم في الجاهلية والدي وفي الدين كنتم عدتي ورجائيا
فصرت بحبي منكم غير مبعده لديكم وأصبحت الصديق المصافيا
وآليت لا أنفك أحدو قصيدة تدور أو (تمدُّ) بهابذل الجمال الهواديا

وأشبهه بما وقع لابن نشبة هذا هو ما حدث لذلك القادم من زبيد، بلد باليمن، إلى مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، والد عمرو بن العاص، ومنعه حقه، ولما استعدى عليه أشراف قريش، ولم يعينوه؛ لمكانة العاص فيهم، وقف عند الكعبة، واستغاث بآل فهر وأهل المروءة.

يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إنَّ الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب، فقال: ما لهذا مترك، أو مطرق!

فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وبنو تميم في دار عبد الله بن جدعان، وصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهر حرام وهو ذو القعدة، فتعاقدوا على أن (لا يظلم أحد في مكة إلا ردوا ظلامته) وتحالفوا بالله ليكون يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه، تعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً، سواء أكان من أهلها أم من غير أهلها، من دخلها من سائر الناس بغض النظر عن حسبه أو جنسه أو لونه أو دينه، حاجاً أو زائراً أو تاجراً، أو عابر سبيل؛ إلا ونصروه وأعادوا له حقه من مغتصبه أو ظالمه... ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانترعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه.

وقال الزبير بن عبد المطلب:

حلفت لتقعدن حلفاً عليهم و إن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعزُّ به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت إننا أباة الضيم نهجر كل عار

وقال أيضاً :

إنَّ الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتزُّ فيهم سالم

لقد كانت نتيجة ما وقع لهذا الرجل من اليمن أن نبذ وجهاء قريش وأشرفها كلَّ اعتداء أو تجاوز يقع في مكة، فينتفي الظلم منها، وتُرد على المظلوم ظلامته، عبر حلف تاريخي كبير؛ يكفيه خلوداً ومفخرةً وفضيلةً أن شهده النبيُّ محمد ﷺ قبل بعثته، وعمره عشرون عاماً، ولاحقاً قال عنه: لقد شهدتُ مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحبُّ أن لي به حمر النعم، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت! ممَّا يدل على أنَّ ذلك العصر لم يكن أهله شرّاً مطلقاً، وإنما هناك بوارق خير فيه...^١

كان أديباً شاعراً :

عُرف العباس بأنَّه كان خطيباً شاعراً حتى إنَّه كان من معدودي خطباء قريش وبلغائهم وذوي الفضل منهم.

وأنَّه كان شاعراً مفلحاً حسن التهدي. وشعره يكشف عن فضله وأدبه. وقد راح في بعض شعره يُعرض أخاه أبا طالب على الطلب بدم عمرو وبن علقمة بن المطلب بن عبد مناف:

لا ترجونا حاصنٌ عند طهرها لئن نحن لم نثار من القوم علقما
أبا طالب لا تقبل النصف منهم وإن أنصفوا حتى تُعقَّ وتظلما
أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدما
تورثن من آباء صدق تقدموا بهن إلى يوم الوغى متقدما

١. انظر أنساب الأشراف للبلاذري؛ كتاب المنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـجـرية) : ١٤٣-١٤٥ . ١٦٤-١٦٥ ؛ ربيع الأبرار للزخشي ، وغيرها .

إذا خالطت هام الرجال رأيتها
وزعناهم وزع الحوامس غدوة
تركناهم لا يستحلون بعدها
فسائل بني حسل وما الدهر فيهم
أغشماً أبا عثمان أنتم قتلتم
ضربنا بها حتى أفاءت ظباتها
ضربنا أبا عمرو وخداشاً بعامر
كبيض نعام في الوغى قد تقطماً
بكلِّ يمانيّ إذا عَضَّ صمماً
لذي رحم يوماً من الناس محرماً
ببقياً ولكن إن سألت ليعلماً
ستعلم حسل أيّنا كان أغشماً
علينا فلم يبقَ القتل المخدماً
وملنا على ركنيه حتى تهدماً

وروي عن خريم بن أوس بن حارثة قال: هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه
منصرف من تبوك، فسمعت العباس قال للنبي ﷺ: إني أريد أن أمتدحك! فقال له:
قل لا يفضض الله فاك! فقال:

من قبلها طبت في الظلال وفي
ثم هبطت البلاد لا بشرراً
بل نطفة تركب السفين وقد
وخضت نار الخليل مكتما
تنقل من صالب إلى رحم
حتى احتوى بيتك المهيمن من
وأنت لما ولدت أشرقت الأ
فنحن في ذلك الضياء وفي

وفي الليلة الثالثة من زواج النبي ﷺ بخديجة، دخل عليها عمّات النبي ﷺ واجتمع
السادات والأكابر كعادتهم، ونهض العباس كما ذكر العلامة المجلسي وهو يقول:

أبشروا بالمواهب * آل فهر و غالب * أفخروا يا لقومنا * بالثنا والرغائب *
شاع في الناس فضلكم * وعلى في المراتب * قد فخرتم بأحمد * زين كل الأطايب *

فهو كالبدر نوره * مشرق غير غائب * قد ظفرت خديجة * بجليل المواهب * بفتى
هاشم الذي * ماله من مناسب * جمع الله شملكم * فهورب المطالب * أحمد سيد
الورى * خير ماش وراكب * فعليه الصلاة ما * سار عيس براكب.

وفي قصة السفر، كما ذكرها العلامة المجلسي... لما قال بنو هاشم: ونحن أيضاً
نقدّم علينا محمّداً، فقال أبو جهل: لأن قدتم علينا محمّداً؛ لأضعنّ هذا السيف في
بطني، وأخرجه من ظهري... ثمّ راح يُنشد ويقول:

لقد ضلت حلوم بني قصي وقد زعموا بتسييد اليتيم
وراموا للخلافة غير كفو فكيف يكون ذا الامر العظيم؟
سمعه العباس يثلب رسول الله ﷺ فأجابه قائلاً:

ألا أيها الوغد الذي رام ثلبنا أتثلب قرناً في الرجال كريم
أتثلب يا ويك الكريم أخوا التقى حبيب لرب العالمين عظيم.
ومما نُسب إليه أيضاً أنّه قال:

إذا مجلس الأنصار خفّ بأهله وفارقها فيها غفار وأسلم
فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعلم
ليسوا بهديين في الحروب إذا تُعقد فوق الحراقف النطق

وقد نسب الموفق الخوارزمي (ت ٥٦٨ هجرية) في كتابه المناقب حين بويع أبو بكر
بالخلافة؛ الأبيات المشهورة التالية للعباس بن عبد المطلب:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثمّ عنها عن أبي حسن
أليس أول من صلّى لقبلكم وأعلم الناس بالآثار والسنن
وأقرب الناس عهداً بالنبيّ ومن جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما في جميع الناس كلّهم وليس في الناس ما فيه من الحسن
ماذا الذي ردّكم عنه فنعرفه ها إن بيعتكم من أول الفتن

فيما نسبها غيره كابن الأثير في أسد الغابة (ت ٦٣٠ هجرية) تاريخ ابن الوردي المتوفى ٧٤٩ هجرية ١: ١٣٤، والوافي بالوفيات، للصفدي (ت ٧٦٤ هـ) ٢١: ١٨٣ إلى الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي هب.^١

نشأته وسيادته المبكرة :

إذن نشأ العباس مع إخوته في حجر أبيه سيد البطحاء عبد المطلب، ونتيجةً لهذه النشأة الطيبة في هذا البيت المكّي، المعروف بين القبائل العربية بمنزلته الروحية والاجتماعية والأخلاقية... هيأته لمناقب رفيعة ومنازل عالية، منها ما كان قبل البعثة النبوية نُشير إليها، ومنها ما بقي يرافقه حتى بعد البعثة وبعد إسلامه حتى وفاته، فنصّل فيه ولو قليلاً:

المنزلة الأولى :

أن ولته قريش في أيام الفجار حلوان النفر، وبهذا ساد وهو بعد غلام، خاصّةً إذا ما علمنا أن قريشاً لم تملك عليها أحداً من الناس غيره، حتى إنهم إذا كانت الحرب أفرعوا بين أهل الرياسة، فإذا حضرت الحرب، أجلسوا من وقعت عليه القرعة، لا يبالون صغيراً كان أو كبيراً، تيمناً به، وهذا ما حدث للعباس؛ لينال مكانةً أخرى حين كانت أيام الفجار، أفرعوا بين بني هاشم، فخرج سهم العباس بن عبد المطلب وهو

١. انظر في هذا كُله حياة الحيوان للدميري ٣: ٣٢٧؛ أمالي الزجاج: ٤٤؛ تهذيب ابن عساكر ١: ٣٤٩؛ مستدرک الحاكم ٣: ٣٢٧؛ الطبراني في المعجم الكبير ٤: ٢١٣؛ الحاكم في المستدرک علی الصحیحین ٣: ٣٢٦؛ شرح المواهب اللدنیة للزرقانی ٣: ٨٣-٨٥؛ المنق ١٦٤-١٦٥؛ غریب الحدیث لابن قتیبة: ٣٥٩ و٣٦٥؛ ربيع الأبرار، الزمخشري ١: ٥٦٢؛ البدء والتاریخ، المقدسی ٢: ١٣٢؛ وانظر حسن الجلبی فی حواشی المطول؛ کتاب المحکم والمحیط الأعظم، للمرسی (ت ٤٥٨ هجرية) ٣: ٩٣؛ بحار الأنوار ١٦: ٧٢ الباب الخامس، وانظر الصفحة ٣١-٣٢ أو جزناً شيئاً يسيراً.

غلام صغير فأجلسوه على ترس المجنـ، وفيه يقول ضرار:
فتى قريش وفي البيت الرفيع بها واري الزناد إذا ما أصلد الناس^١.

المنزلة الثانية :

منحت له هذه المنزلة في قصة غزال الكعبة الذي استخرجه عبد المطلب من زمزم
لما حفرها، فوجد فيها سيوفاً قديمة، والغزال من ذهب وعيناه من ياقوت، فجعل
ذلك للكعبة، وقد سُرق، فعثر عليه العباس...

وملخصها أن عيراً قد أقبلت من الشام تحمل خمراً، فأناخت بالأبطح، فقال
أبو لهب: ويلكم أما عندكم نفقة؟ قالوا: لا والله! قال: فعليكم بغزال الكعبة! فإنها هو
غزال أبي. فقاموا فانطلقوا وهم يهابون، وقد أصابتهم ليلة باردة ذات ظلمة ومطر حتى
انتهوا إلى الكعبة، وليس حولها أحد، فحمل أبو مسافع وأبو لهب الحارث بن عامر
على ظهرهما حتى ألقياه على الكعبة، فضرب الغزال فوق، فتناوله أبو لهب ثم أقبلوا
به، فكسروه واقتسموه... وذهب القوم فاشتروا كل خمرة كانت بالأبطح، ثم أقبلوا
به إلى أصحابهم، فشربوا وقرطوا الشنف والقرط أو القرطين لقيتين لهم تغنيهما..،
وأما قريش فمكثت أياماً ثم افتقدوا الغزال، فتكلموا فيه وأعظموه، وراحت تطلب
السراق، فلا يدرون من هم؟... وتكلمت قريش..، وغضب الزبير وأبو طالب من
سارقه، وقالوا: وأيم الله لئن ثقفناه لنقطعن يده!

وإذا بالعباس بن عبد المطلب قد مرّ، وهو غلام شاب آخر النهار في حاجة له، بعد
ذلك بشهر بدور بني سهم، وقد لخط القوم وثلّموا وهم يرفعون أصواتهم، فأصغى
لهم، فسمع بقول للقيتين: غنّتا بقول أبي مسافع:

إنّ الغزال الذي كنتم وحيلته تقنونه لخطوب الدهر والغير

١. العقد الفريد، لابن عبد ربّه ٣: ٣١٥؛ طراز المجالس، شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي: ٢٢٣.

طافت به عصابة من شرّ قومهم
 فاستقسموا فيه بالأزلام عليكم
 إني وإن أجنبيّا كنت عن وطني
 ريجانة القوم لا أبغي بحلفهم
 وغنّتا أيضاً:

أبلغ بني النضر أعلاها وأسفلها
 أمست قيان بني سهم تقسمه
 ظللن يجري فتيق المسك بينهم
 وقهوة قرقف يغلي التجار بها
 أن الغزال وبيت الله و الركن
 لم يغل عند نداماهنّ في الثمن
 على مفارقهم فنّا على فنن
 حانية عتقت في الدنّ مذ من!

فلما أتمّ ما سمع من إنشادٍ للشعر المذكور، وفيه ذكر الغزال الذي غنّت القيتان
 به، أقبل العباس فقال: يا أبا طالب! هل لك في سرقة الغزال؟!!

قال: ومن هم؟ قال: هم في بيت مقيس ولم أرهم، فتعالوا فاسمعوا، فأقبل أبو
 طالب والزبير وابن جدعان ومخرمة بن نوفل والعوام بن خويلد حتى دنوا من الباب
 فسمعوهم... فقال أبو طالب: هؤلاء لا شك أصحاب الغزال... ولما وقفوا عليهم،
 وبسبب هذا الذي حصل، وقعت المنافرة بين المطّيين والأحلاف!

المنزلة الثالثة :

نتعرض في هذه الفقرة إلى منزلته هذه؛ إن في العصر الجاهلي، وإن في الإسلام؛
 بمعنى أنّها منزلة وكتبته في حياته، فيحسن الكلام فيها بلا فصل بين مرحلتي الجاهلية
 والإسلام.

١. انظر العقد الفريد ٣: ٣١٥؛ أنساب الأشراف ١: ٨٩؛ ربيع الأبرار للزخشي؛ باب الأنفة
 والحمية؛ تاريخ دمشق؛ ابن عساكر ٧: ٢٣٠؛ والمنمق؛ محمد بن حبيب ٥٤-٦٧، ٤٣٦؛ طراز
 المجالس، الشهاب الخفاجي: ٢٢٣.

مهما تعاضد الشرُّ، وتعاضم الظلام، فهناك ولو في آخر النفق، بصيص من أمل
 أو هداية أو نور يُزيدنا أملاً بمعروف نتظره، أو إنجاز خير نترقبه، ويُبعد عنا القنوط
 واليأس، فما قبل الإسلام من الجاهلية وأعرافها، وما حوته من مظاهر الظلم والشرك
 والوثنية، ومن مظاهر الزيف والانحطاط، وما تحمله من سوء، تجد خلالها ما نتوقّف
 عنده متأملاً بل معجباً إن لم أقل مندهشاً، حتى صار مدعاةً للتفاخر بينهم، مع أنّ هناك
 أفعالاً ومواقف ملأت بعض مفاصل حياتهم، لكنّها لم تكن موضع فخر واعتزاز...
 نجد أنّ ما كان من المظاهر موضع افتخار وتكاثف بينهم هي تلك التي تخصّص
 هذا البيت الحرام المبارك الذي كان بينهم، يحيطونه، ينظرون إليه، يُطيلون المكوث
 عنده، يحترمونّه، يُجلّونه يُقدسونه، ويتسابقون في العناية به، وخدمة رواده من الحجيج
 والمعتمرين والزوار، وإن كانت للإسلام وقفات لتصحيحها وتقويمها بعد تشويه لحق
 بها، وانحراف أصابها، بل وأصابهم في سيرتهم الاعتقادية والعبادية والاجتماعية...
 فقبل البعثة المباركة لرسول الله ﷺ لو نظرنا إلى ذلك البيت المبارك الذي رفع نبيُّ
 الله إبراهيم عليه السلام قواعده ومعهُ ابنه النبيُّ إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
 الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^١ لوجدنا جهوداً أنصبت عليه اهتماماً وتقديراً، وإن رافقتها فترات
 من الإهمال، ومن التلوّث لساحته بالأصنام دامت قروناً، والتشويه والتحريف
 لمقاصده، ولكن على الرغم من ذلك، فقد بقي البيت موضع تقديس وتبريك، فلم
 تتقلص منزلته، ولم يتوقف دوره: ﴿مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ وَأُمَّنًا﴾، ولم تعطل وظيفته أن يُؤدى
 فيه ﴿الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^٢، وإن شابها تشويه، وكثرت من حولها أعراف جاهلية
 وانحرافات عقديّة، وأخرى أخلاقية تتنافى وطهارة البيت ومكانته، وراحت تنخر في
 المجتمع المكّي، إلا أنّ ذلك لم يمنع من تعظيمهم للكعبة والمسجد الحرام، وما يتوفر

١. سورة البقرة: ١٢٧.

٢. سورة البقرة: ١٩٦.

عليه من معالم مباركة، تستميل الأفتدة، تقصدها النفوس، تنشدها الأجيال عبر حجّها وزيارتها، وما يستلزم ذلك من إدامة لتلك المعالم، والمحافظة عليها مما تتعرض له من حوادث، وكذا ما يحتاجه القادمون إلى مكة من أمان ورعاية وغذاء وشراب، فهي جهود تحتاج إلى إدارة وتنظيم، فتولت قريش منذ قصي بن كلاب سقاية الحجيج ورفادتهم الذين كانوا يقدون في المواسم؛ لزيارة الكعبة، البيت العتيق، وكان من يباشر هذه المهام التي يعدونها من الشرف بمكان، من قريش هم بنو هاشم.

ثمّ انتهى هذا الأمر إلى العباس بن عبد المطلب... وهذه المهام من جانب آخر، وبسبب وجود البيت الحرام، تجعل لهم درجة عالية من الواجهة والمنزلة والكرامة بين القبائل، فضلاً عما يتحقق لهم من المصالح الاجتماعية والمالية والتجارية... حتى راحوا يصرحون بأنهم أهل البيت الحرام وأنهم أولياؤه، وصاروا يتفاخرون بذلك..، ولأجل كلّ هذا كان كبار قريش وزعماءها يرون وجوب احترام الضيوف الوافدين إلى هذا البيت المبارك الذي يرون اختصاصهم به، وبما يفيض عليهم من نعم كثيرة، كما أنهم يستشعرون ويدركون ما يترتب عليهم من المسؤولية، فكان لا بدّ من إيجاد وظائف؛ لتأدية تلك المسؤولية، وحتى لا تكون غير منضبطة، وأن تؤدي بشكل صحيح، عيّنوا لهذه الوظائف أشخاصاً، راحوا يقدمون لهم الدعم الاجتماعي والمالي، لييسروا لهم عملهم، فصارت موضع اهتمام واعتزاز وتفاخر بينهم، وتسابق لخدمة حجيج البيت ومعتمريه، والبرّ لهم، إكراماً للبيت الحرام، وللقادمين إليه.

ومن مظاهر البرّ والإكرام ما بلغ خمس عشرة وظيفة، صارت قريش تُقسمها بين بطونها المختلفة؛ لتحفظ التوازن بينها، وتمنع تنافر بطونها أو تنازعها؛ ولتحفظ لقريش وحدتها وتماسكها، ولتوفر لمكة السلم الاجتماعي والأمان والهدوء؛ فتندفع رحلات الحج والاعتماد والتجارة بكلّ رغبة، ودون خوف ووجل إلى مكة. وقبل هذا، كما ذكر الأزرقى،... قسّم قصي الأمور الستة، التي كان فيها الشرف والذكر، وهي (الحجّابة

فصاحبها يحجب الكعبة، ويده مفتاحها، يفتح بابها للناس ويغلقه، والسقاية والرفادة والقيادة واللواء والندوة) بين بنيه...

ونقف عند أشرف هذه الأعمال: (السقاية والعمارة) دون غيرها من المناصب الأخر؛ ولأنّ كلاهما ورد في التنزيل العزيز: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾، ولأنّهم ذكروا للعباس بن عبد المطلب دوراً مهماً فيها.

السقاية :

وردت لفظة: (السقاية) مرتين في التنزيل العزيز: مرّة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، بمعنى (الصاع؛ الصُّوع) إناءً يُسقى به، أو الذي كان يشرب فيه الملك، وكان إناءً من فضّة. وقد يُكال به.

فالسقاية هي الصُّوع الذي كان يشرب فيه الملك، وكان إناءً من فضّة، وكانوا يكيلون الطعام به. صوع الملك؛ فتسميته السقاية تنبيهاً إلى أنّه يسقى به، وتسميته صوعاً لأنّه يكال به.

وقيل: كان يسقى بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به.

وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها.

وفي قول: كان إناء يوسف الذي يشرب فيه. وعن ابن عباس: أنّه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية.

والسقاية من فضة أو ذهب أو فضة مموهة بالذهب، أو نحاس، أو مسك، أو كانت

مرصعة بالجواهر، ولعزة الطعام في تلك الأعوام قصر كيله على ذلك الإناء.^١

١. مفردات الراغب؛ تفسير البحر المحيط؛ أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ) الآيتان ٧٠-٧٢ يوسف، بإيجاز.

وأخرى في قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^١.

بمعنى: موضع السقي، إناء يسقى به إناء يُشرب فيه. ما يُبنى من سدٍّ أو غيره
لجمع الماء، ويقال للبيت الذي يُتخذ مجمَعاً للماء ويُسقى منه الناس: السُّقاية. وسقاية
الحاج: سقْيهم الشراب، سقْيهم الماء، توفير الماء لهم، سقْيهم الماء؛ ينبذ فيه الزبيب.
وكانت السقاية هي الموضع الذي يُسقى فيه الماء في المواسم وغيرها. وتوفير الماء مهمة
متعبة جداً، تكلف مالاً، فهي تتطلب مَنْ يتولاها أن يُنشئ حياضاً من الجلد، يُقرِّقها
في فناء البيت على مقربة من الكعبة، ثمَّ ينقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل
في المزاد والقرب.

وكانت للعباس سقاية؛ موضع في المسجد الحرام؛ يستقي فيه الناس، وهي حجرة
كبيرة في جهة الجنوب من بئر زمزم.

والسقاية والحجابه تعدّان من مآثر قريش بل أفضل مآثرها التي صارت موضعاً
للتفاخر والاعتزاز... وقد أفردها الإسلام بالاهتمام والإشادة كما في الحديث: «كُلُّ
مآثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت».

وكانت السقاية، والرفادة وهي: إطعام الحاج في كلِّ موسم، وكذا القيادة إلى قصي
بن كلاب جدِّ النبي ﷺ، وبعد أول من أنشأ هذه المشاريع وعمل بها، وبالتالي فهو أول
من سقى الحجيج، بعد أن جمع قريش، وانتزع سدانة الكعبة من خزاعة، ثمَّ توارثها
أبناءؤه؛ حتى وصلت بعد عبد مناف بن قصي إلى هاشم بن عبد مناف، وفيه يقول
الشاعر:

عمرو العلي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

ولمَّا توفي هاشم، صارت رفادة الحاج وسقايته أيام الموسم لابنه شيبه الحمد عبد

١. سورة التوبة: ١٩.

المطلب بن هاشم، وفيه يقول مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس يمدح عبد
المطلب:

فأيّ مناقب الخيرات لم تشدد به عضدا
ألم تسق الحجيج وتنحر المدلابة الرفدا
وزمزم من أرومته وتملاً عين من حسدا

لتكون بعده بيد ابنه شيخ الأباطح أبي طالب، ومنه انتقلت لأخيه العباس، وكما
يذكر المؤرخون أن أبا طالب استدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم،
فصر فيها، وجاء الموسم، ولم يكن معه شيء، فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف
درهم إلى الموسم القابل، فشرط عليه إذا جاء الموسم ولم يقضه أن يترك له السقاية،
فقبل ذلك، وجاء الموسم ولم يقضه، فترك له السقاية، فكانت بيد لعباس؛ فبنيه...

فقد روى كلُّ من البلاذري وابن سلام وغيرهما: أن أبا طالب كان يستدين لسقاية
الحاج متى أعوزه الحال، فقال لأخيه العباس وكان امرؤاً تاجراً أيسر بني هاشم
وأكثرهم مالاً: قد رأيت ما دخل عليّ، وقد حضر الموسم ولا بدّ لهذه السقاية من أن
تقام للحاج، فأسلفني عشرة آلاف درهم، فأسلفه العباس إياها، فقام أبو طالب تلکم
السنة بها وبما كان عنده، فلما كانت السنة الثانية ووافى الموسم، قال لأخيه العباس:
يا أخي، إنَّ الموسم قد حضر، ولا بدّ للسقاية من أن تقام، فأسلفني أربعة عشر ألف
درهم، فقال: إني أسلفتك عام أول عشرة آلاف درهم، ورجوت أن لا يأتي عليك
الموسم حتى تؤديها، فعجزت عنها، وأنت تطلب العام أكثر منها، وترجو أن لا يأتي
عليك الموسم حتى تؤديها، فأنت عنها أعجز اليوم، هاهنا أمر لك فيه فرج، أدفع
إليك هذه الأربعة عشر ألف درهم، فإن جاء الموسم من قابل، ولم توفِّ حقِّي الأول
وهذا، فأمر الرفادة والسقاية إليّ دونك فأقوم بها وأكفيك هذه المؤنة إذ عجزت عنها...
فأجابه أبو طالب إلى ذلك.

وروى ابن سلام: أن العباس قال: «ليحضر هذا الأمر بنو فاطمة يعني (ولد الزبير وعبد الله، فإتتهما أشقاء أبي طالب لأمه، وهي فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية)، ولا أريد سائر بني هاشم. ففعل أبو طالب، وأسلفه العباس المال بمحضر منهم ورضي. فلمّا كان الموسم الثالث من قابل، لم يكن بدّ من إقامة الرفادة والسقاية إزداد أبو طالب عجزاً وضعفاً، ولم تمكنه النفقة، وأعدم حتى أخذ كلّ رجل من بني هاشم ولداً من أولاده يحمل عنه مؤنته. فقال العباس لأخيه أبي طالب: قد أفد الحجّ، وليس إلى دفع حقّي من وجه، وأنت لا تقدر أن تقيم.

قال البلاذري: «فصارت الرفادة والسقاية إلى العباس، وأبرأ أبو طالب ممّاله عليه، وكان يأتيه الزبيب من كرم له بالطائف فينبذ في السقاية... فقام بالرفادة والسقاية بعد العباس عبد الله بن عباس».

من هذا يظهر أنّ من يقوم بهذه الوظيفة، تكلفه لا فقط جهداً وضبطاً لها، بل عليه أن يوفرّ ما لا كثيراً، ولهذا نرى ما بذله عمّ النبيّ أبو طالب رضوان الله عليه من التعب والمال حتى وصل به الحال إلى عدم قدرته الماليّة، وبالتالي عجزه عن إعالة بيته وأبنائه... ويبدو أنّه ولكثرة ما عليه من أمور تحتاج إلى الإنفاق، فلا ينفك عنه العوز، نتيجة ذلك، أو تؤثر عليه أيّ أزمة مالية تصيب قريش، وهو ذو مسؤولية اجتماعيّة وعيال... ولهذا كما روى الطبري في تاريخه،... عن مجاهد، قال: كان من نعمة الله عزّ وجلّ على عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وما صنع الله له، وأراد به من الخير، أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إنّ أخاك أبو طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا، فلنخفف عنه من عياله، أخذ من بيته واحداً، وتأخذ واحداً، فنكفيهما عنه.

فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنّنا نريد أن نخفف عنك

من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً، فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفرأ رضي الله عنه، فضمّه إليه، فلم يزل عليُّ بن أبي طالب ﷺ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه عليُّ ﷺ، فأقرّبه وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

وما أجمل وصف العباس للعلاقة بين رسول الله ﷺ وعليِّ ﷺ! فقد روى الفضل بن عباس، قال: سألتُ أبي عن ولد رسول الله ﷺ الذكور، أيهم كان رسول الله ﷺ له أشدَّ حباً؟

فقال: علي بن أبي طالب ﷺ.

فقلت له: سألتك عن بنيه!

فقال: إنّه كان أحبَّ إليه من بنيه جميعاً وأرأف، ما رأيناها زايلاً يوماً من الدهر منذ كان طفلاً، إلا أن يكون في سفر لخديجة، وما رأينا أباً أبرَّ بابن منه لعليِّ، ولا ابناً أطوع لأب من عليِّ له!

هذا، وكانت للعباس سقاية؛ موضع في المسجد الحرام؛ يستقي فيه الناس، وهي حجرة كبيرة في جهة الجنوب من بئر زمزم.

وقد ذكر الأزرقى صفة سقاية العباس وما فيها وذرعها؛ فطولها أربعة وعشرون ذراعاً في تسعة عشر ذراعاً وفيها من الأساطين...^١

لقد وصلت السقاية للعباس بن عبد المطلب؛ لتبقى عنده حتى البعثة النبوية المباركة، ومن بعده إلى ذريته، ونظراً لفضل بئر زمزم، واعتزاز العباس واهتمامه بها، وحرصه عليها. حرّم العباس الاغتسال فيها، فعن زرّ بن حبيش قال: رأيت العباس

ابن عبد المطلب في المسجد الحرام، وهو يطوف حول زمزم يقول:
لأحلها لمغتسل، وهي لتوضيئ وشارب حلّ وبل! (حلّ محلّ).

قال سفيان: يعني لمغتسل فيها؛ وذلك أنه وجد رجلاً من بني مخزوم، وقد نزع ثيابه، وقام يغتسل من حوضها عرياناً.

إنّ سقاية الحجيج من مظاهر البرّ، بتوفير الماء لرواد البيت الحرام، وهكذا كانت رفادة الحجيج بما تحمله من الإطعام حيث كانوا يجمعون مالاً عظيماً، فيشترون به الطعام، ويطعمون الناس أيام موسم الحج حتى ينقضي.

وكلُّ منهما أمر يُعدُّ من الشرف بمكان، وفيها جهد كبير وأموال تصرف؛ خاصةً إذا ما عرفنا أنّ للبيت الحرام مكانةً عظيمةً ومقدسةً في نفوسهم، وكثرة القادمين إلى مكة، وحرص أهلها على عدم عزوف الوافدين عن المجيء، أو انخفاض أعدادهم إذا ما انعدم الماء أو قلّ، وإذا ما عرفنا شحّة المياه في مكة، وأنّ مصدر المياه هو الغيث وما تحويه من مياه جوفية، تحتاج إلى حفر منتظم للآبار.

حتى إنهم وزيادةً في خدمة الحجيج، وفي إكرامهم، كانوا يقدمون للحجيج في الموسم إضافةً إلى الماء؛ نبيذ الزبيب وهو شراب لذيذ غير مسكر، والشراب الطيب، بأن يجعلوه في أماكن خاصة في تناول أيديهم.

هذا، وإنّ سقاية الحاجّ ورفادتهم، وعمارة البيت الحرام، كانت مظاهر يتسابقون إليها، ويتفاخرون بها، حتى جعلها بعضهم بعد البعثة النبوية مكان الجهاد في سبيل الله تعالى، فجاء الإسلام ليقرّها ويوجهها الوجهة الصحيحة، ويشير إلى أنّها ذات منزلة، ولكن ليست كمنزلة الإيمان بالله والجهاد في سبيله، كما بيّنته آيات قرآنية سنذكرها لاحقاً.

أما العمارة فهي :

التشييد والإصلاح والتعمير، وما يحفظ به المكان،... وبالتالي فهي نقيض الخراب

والهدم. وعمارة المسجد الحرام، وهي: السدانة، وتسمى الحجابة، معاهدته والقيام بمصالحه. وتعني بناءه وتأسيسه وترميمه، أو تعني الاجتماع فيه والمساهمة في الحضور عنده. إختار بعض المفسرين أحد هذين المعنيين في تفسير «عمارة المسجد» غير أن الآية ذات مفهوم واسع يشمل هذه الأمور وما شاكلها جميعاً^١.

كانت هي الأخرى موضع عناية خاصة عند قصي بن كلاب، وأورثها لمن بعده، تتقوّم بتقدير هذا البيت وتعظيمه وصيانتته وترميمه حتى وصل الأمر هذا إلى شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله ﷺ ومرييه، ثمّ إلى العباس، وهي بلا ريب مشاريع خير تذكر لهم...

إذن تولّى العباس سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وهما من المآثر اللواتي لم تمنح له ابتداءً بل ورثها عن آبائه، وجعلتاه يحظى بمنزلة رائعة في مجتمعه يومذاك. فقد كانت إليه العمارة أي عمارة المسجد الحرام، حيث كان لا يدع أحداً يسبّ أو يُستبّ (استبّ الخصوم: شتم بعضهم بعضاً، أهان بعضهم بعضاً بكلام جارح) في المسجد الحرام، ولا يقول فيه هُجراً. لا يستطيعون لذلك امتناعاً؛ لأنّ ملاً قريش كانوا قد اجتمعوا وتعاهدوا على ذلك، فكانوا له أعواناً عليه.

أو يحمل الناس على عمارته بالخير، فلا يستطيع أحدٌ مخالفته؛ لأنّ قريشاً تعاهدوا على نصرته في ذلك، فكانوا له أعواناً على وظيفته...^٢

إلا أنّ هذه الأنشطة والخدمات، وإن غدت موضع تفاخر حتى بعد البعثة النبوية، منحوها منزلة تتجاوز الجهاد في سبيل الله تعالى، بل الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر،

١. تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تفسير الأمل للشيخ مكارم الشيرازي: الآية.

٢. انظر أخبار مكة للأزرقي ٢: ٤٧، ٥٨؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة؛ عباس بن عبد المطلب؛ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هجرية)؛ ابن عبد البر: ٨٣ رقم ٣٥٨٨.

وهو ما دفع العباس بن أبي طالب لينطق بذلك، كما عن ابنه عبد الله بن عباس، أن أباه العباس قال حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنّا نعمّر المسجد الحرام ونسقي الحاج، ونفك العاني.

وليس الأمر مختصاً بالعباس، بل هي حالة واضحة، تكررت على ألسن عديدة، منها ما ذكره الطبري بإسناده: أن المشركين سألوا اليهود قائلين: نحن سقاة الحاج، وعمّار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه، فقالت اليهود عناداً لرسول الله ﷺ: أنتم أفضل.

وظلّ أهل مكة يفخرون بأعمالهم التي يؤدونها لخدمة الحجيج، والتي لا تخلو من حفظ لمصالحهم المادية والاجتماعية فيما يجنونه من قدوم الناس لزيارة البيت، بل راحوا يستكبرون أيضاً، ويتعالون على من حولهم بأنهم أهل الحرم وعمّاره، ولما حلّ الإسلام بينهم راحوا يقولون: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد!

هذا، وقد ذكر التنزيل العزيز استكبارهم وإعراضهم، فكان هذا ذمّاً لهم وتوبيخاً، وذلك حين نزلت الآية ٦٧ من سورة المؤمنون: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

في قول: أي متكبرين على سائر الناس بالحرم أو بالبلد يعني مكة، أن لا يظهر عليكم فيه أحد، عن ابن عباس والحسن ومجاهد.

ونزل الردّ على مدعياتهم من أن سقاية الحجيج، ورفادة الزوّار، ورعاية بيت الله الحرام، أهلٌ للمقارنة بأصل المعتقدات: الإيمان بالله واليوم الآخر وبأعمال صالحة، كالجهاد والهجرة في كلّ من الآية ١٩ و٢٠ من سورة التوبة:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

وفي سبب النزول :

قيل: إنها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبه؛ وذلك لأنهم افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت وبيدي مفتاحه ولو أشاء بتُّ فيه.

وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها.

وقال علي عليه السلام: «ما أدري ما تقولان! لقد صلّيتُ إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد»، عن الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي.

وقيل: إنَّ علياً عليه السلام، قال للعباس: يا عم ألا تهاجر وألا تلحق برسول الله؟!!

فقال: أأنت في أفضل من الهجرة، أأمر المسجد الحرام، وأسقي حاج بيت الله؟!!

فنزلت: ﴿أجعلتم سقاية الحاج...﴾، عن ابن سيرين ومرة الهمداني.

وعن الرازي: وقيل: إنَّ علياً عليه السلام قال للعباس رضي الله عنه بعد إسلامه: يا عمي ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وآله? فقال: أأنت في أفضل من الهجرة، أسقي حاج بيت الله وأأمر المسجد الحرام؟!!

فلما نزلت هذه الآية، قال: ما أراني إلا تارك سقائتنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أقيموا على سقياتكم فإنَّ لكم فيها خيراً».

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريده عن أبيه قال: بينا شيبه والعباس يتفاخران، إذ مرَّ بهما علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيتُ من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاج! وقال شيبه: أوتيتُ عمارة المسجد الحرام!

فقال علي عليه السلام: «استحييت لكما، فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا!» فقالا: وما أوتيت يا علي؟ قال: «ضربتُ خراطيمكما بالسيف حتى أمتما بالله ورسوله!»

فقام العباس مغضباً يجرُّ ذيله حتى دخل على رسول الله ﷺ، وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به عليٌّ؟

فقال: «ادعوا لي عليّاً»، فدعي له فقال: «ما حملك على ما استقبلتَ به عمّك»؟!

فقال: «يا رسول الله صدمته بالحق، فمن شاء فليغضب، ومن شاء فليرض»!

فنزل جبرائيل عليه السلام، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول:

أُتِلَ عَلَيْهِمْ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾، الآيات!

فقال العباس: إنا قد رضينا ثلاث مرات!

وفي تفسير أبي حمزة: أن العباس، لما أسري يوم بدر، أقبل عليه أناس من المهاجرين والأنصار، فعيروه بالكفر وقطيعة الرحم.

فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا!

قالوا: وهل لكم من محاسن؟!

قال: نعم والله، لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفكّ

العاني!

فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا﴾، إلى آخر الآيات.

قال الطبري: وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره، لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جلّ ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية...

أجعلتم أيها القوم سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستون هؤلاء وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما؛ لأنّ الله تعالى لا يقبل بغير الإيمان به، وباليوم الآخر عملاً... وهذا قضاء من الله بين فرق المفتخرين الذين افتخر أحدهم بالسقاية، والآخر بالسدانة، والآخر

بالإيمان بالله والجهاد في سبيله. يقول تعالى ذكره: الذين آمنوا بالله: صدقوا بتوحيده من المشركين، وهاجروا دور قومهم، وجاهدوا المشركين في دين الله بأموالهم وأنفسهم، أعظم درجة عند الله وأرفع منزلة عنده من سقاة الحاجّ وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ يقول: وهؤلاء الذين وصفنا؛ صفتهم أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا و: ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، بالجنة، الناجون من النار.^١

وبالتالي فهي على أهميتها وفضلها، ليست أهلاً للمقارنة بهذه العقائد، وليست أفضل منها أو عوضاً عنها...

إسلامه :

وقد اختلفت آراؤهم وأقوالهم في وقت إسلامه، وقبل هذا، أذكر ما يقوله السيد محمد تقي الحكيم عن موقف بني هاشم من بعثة رسول الله ﷺ ودعوته للإسلام: وعقيدتي، أنّ أسرة النبي ﷺ إلا من شدّ منهم لم تجد بداً من انشطارها إلى قسمين، يؤيد أحدهما النبي ﷺ ويعلمن إسلامه، ويقف الآخر في جنب المشركين؛ ليُخذل في صفوفهم من طريق غير مباشر، وكان العباس وأبو طالب من الشطر الثاني، كما كان عليٌّ وجعفر وحزمة من الشطر الأول.

ثمّ يواصل السيد الحكيم فكرته، قائلاً: وليس من الحزم أن تقف هذه الأسرة متكاتفة مجتمعة، فتعرض نفسها ودعوتها لعصبيات قريش. وربما اعتبرت دعوتها قبلية صرفة، وعندها تفقد طابعها الإصلاحية العام، ويكون نجاحها لذلك بطيئاً ومحدوداً جداً.

ولم يهاجر العباس إلا بعد فتح خيبر، وبعد أن أنهى مهمته في مكة ولم يبق لها

١. انظر مجمع البيان للشيخ الطبرسي؛ وجامع البيان في تفسير القرآن للطبري؛ وتفسير الفخر الرازي وغيرهم: الآيات.

موضوع، وشهد مع النبي ﷺ فتح مكة وحُنيماً، وكان أحد القلائل الثابتين بعد هزيمة أصحابه، كما شهد بعد ذلك بقية مشاهدته كلها. وللنبي ﷺ فيه كلمات تدلُّ على منتهى عطفه عليه، وترفعه إلى مكانة قلماً يبلغها أحد من الصحابة...^١

فالرواية الأقدم هي عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أنه قال: كنت غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، أسلم العباس واعتقد البيعة لرسول الله ﷺ على الأنصار ليلة العقبة على قبه وقريش تطلبه، وأسلمت أم الفضل فكانت الثالثة، أو قال: ثانية النساء بعد خديجة، وكان العباس يهاب قومه فيكتم إسلامه.

ما رواه الكليني، وعدها السيد الخوئي في معجم رجال الحديث (١٠: ٢٥٢-٢٥٤) صحيحة السند، عن محمد بن يحيى... فقال أبو جعفر عليه السلام: «... عباس وعقيل، وكانا من الطلقاء...».

وهذا يعني أنّهما من الطلقاء أي من مسلمة الفتح؛ فهما لم يسلموا إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

وعن ابن عساكر عن عمرو بن عثمان: أنه أسلم ليلة الغار.

في الاستيعاب: أنه أسلم قبل فتح خيبر وكان يكتُم إسلامه، أو أن العباس أسلم قبل فتح خيبر وأظهر إسلامه يوم فتح مكة.

وفي حديث الحجاج بن علاط ما يشير بوضوح إلى أنه كان مسلماً، يسرّه ما يفتح الله به على المسلمين، وأظهر إسلامه يوم فتح خيبر.

وهناك قول بإسلامه قبل فتح مكة، وأنه لم يكن من الطلقاء، وأنه قدم على النبي ﷺ قبل الفتح.

ألا تراه أجار أبا سفيان بن حرب؟! حين أخذ أبا سفيان إلى النبي ﷺ، وقال له: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً!

١. عبد الله بن عباس شخصيته وأثاره، السيد محمد تقي الحكيم ١: ٣٥-٣٦.

الذهبي في سير أعلام النبلاء قيل: إنه أسلم قبل الهجرة، وكتّم إسلامه، وخرج مع قومه إلى بدر، فأسر يومئذٍ، فادّعى أنه مسلم، فالله أعلم. وليس هو في عداد الطلقاء؛ فإنه كان قد قدم إلى النبي ﷺ قبل الفتح؛ ألا تراهم أجازوا أسفيان بن حرب؟ وفي قول عن ابن عباس، أن رجلاً من قريش رأى العباس، فقال: هذا عمّ النبي ﷺ، وما أسلم حتى لم يبق كافر، فشكا العباس قوله إلى النبي ﷺ، فخرج مغضباً، فقال: «من آذى العباس عمّي فقد آذاني، إن عمّ الرجل صنو أبيه».

ولكن قبل الدخول في وقت إسلامه الذي فيه أقوال مختلفة، كما ذكرت الأخبار أعلاه، فإن الأجدد بالباحث عن إسلام الرجل ووقته الاطلاع على علاقته التاريخية برسول الله ﷺ منذ ولادتهما المتقاربة، ونشأتهما في بيئة واحدة وحجر واحد هو حجر سيد البطحاء عبد المطلب بن هاشم، فحجر أبي طالب، مما جعله أشدّ حباً لرسول الله ﷺ حتى راح كلُّ منهما مبكراً يميل للآخر ويودّه، ولا بدّ أيضاً من معرفة تلك المنزلة الكبيرة التي يكنّها كلُّ منهما للآخر، وبالذات التي يحتفظ بها رسول الله ﷺ لعمّه العباس وهي الأهم، وقد صرح ﷺ بها في عدّة أقوال ومواقف؛ منها التي في مكة، ومنها في وقعتي بدر الكبرى وحنين، وقبلهما عن دوره في بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة النبوية، فمثل هذه الأخبار التي تحمل صلته برسول الله ﷺ وقربه منه ومحبته لديه، ومن كان محباً لرسول الله ﷺ، بل مائلاً إليه بكلّ وجوده وعواطفه، متفاعلاً معه قبل بعثته ﷺ نبياً ومدافعاً عنه بعدها وعمّن اتبعه، لا يمكن إلا أن يصدق بما يأتي به حبيبه، ويؤمن بدعوته، وبالتالي يكون من الذين يتبعونه وينصرونه إن سرّاً وإن علناً، ويتوخى أنفع الأسباب في حمايته من أعدائه، خاصة وأن التاريخ لم ينقل لنا موقفاً منه معارضاً أو شاكاً أو متردداً أو معاتباً أو لائماً لرسول الله ﷺ فيما يُبلغه، وما لازم هذا من تشنج العلاقة بينه ﷺ وبين قومه، وأثر هذا في بني هاشم، فقد راحت قريش تكيد له ﷺ بل لبني هاشم، وقرّرت التضييق عليهم، وما حصارها لهم في الشعب ثلاث سنين إلا الأخطر والأشد...

ثمَّ من قال: إنَّ الإيمان بالإسلام يشترط الجهر به؟ فقد يكون في إخفائه وكتمانه مصلحة أعظم من الجهر به، مصلحة تعود على الدين وعلى النبي ﷺ وعلى الشخص نفسه وعلى آخرين من المؤمنين بالمنفعة والخير؛ فحاله هذه نظير ما كان عليه أخوه أبو طالب رضوان الله عليه؛ حتى كان أنصر الناس لرسول الله ﷺ بعد أبي طالب. فكان الأفضل أن يبقى من موقعه، ومهدوء وصمت وحكمة يؤدي ما عليه بحرية وأمان، ينصر الرسول ﷺ يراقب أعداء دينه من ساحتهم، فينفع المؤمنين ويدفع الضرر عنهم، ويبلغهم قبل وقوعه، ولهذا بقي العباس في مكة، ولم يهاجر مع النبي ﷺ والآخرين... ممَّا يجعلنا نطمئن إلى أخبار آتة أسلم في مكة قبل الهجرة النبوية المباركة إلى يثرب، بل بعد البعثة كما يظهر من خبر أبي رافع، وأنَّه لم يعلن إسلامه جهرةً، بل ولم يهاجر لمصلحة له أو لما في بقائه في مكة من خير ومنفعة للحركة النبوية المباركة وللإسلام والمسلمين؛ وإلا كيف يُبقي النبي ﷺ أمَّ الفضل زوجةً للعباس، وقد نقلت الأخبار أنَّها قديمة في إسلامها، بل هي بعد أم المؤمنين خديجة، وهي ذات منزلة عنده ﷺ والنبيُّ لم يكن ليبقي مسلمة تحت كافر، علماً بأنَّ العباس نفسه كما حُكي كان يعلم بالحكم المذكور أنَّ المسلمة لا تحلُّ لكافر والكافرة لا تحلُّ لمسلم، كما في حديثه مع زوج الحجاج بن علاط أخت مصعب بن عمير، حيث قال لها: إنَّ زوجك أسلم، وأنت لا يجوز لك البقاء في زوجيته، إلا أن تسلمي معه، وإذا بقيتي على الكفر والشرك، فلا يبقى زوجك، فيجب أن تتابعيه إذا أردتِ زوجك... فلم يكن محبًّا لرسول الله ﷺ فحسب، بل مائلاً إليه، قبل بعثته ﷺ نبياً وبعدها، بل كان أنصر الناس لرسول الله ﷺ بعد أبي طالب. ١

وهذا لا يشك أحدٌ فيه أبداً، ولطالما كان رسول الله ﷺ يأتي منزله فيقتل فيه، مما

١. انظر الاستيعاب لابن عبد البر: رقم ١٣٧٨؛ وعنه في كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر

يعني أنه كان يجد في بيته السكينة والراحة...

بمثل هذا وغيره وردت الأخبار حول منزلته عند رسول الله ﷺ ومنها:

أولاً: ما استدل به ابن البطريق (٥٣٣-٦٠٠ هجرية) من علماء الإمامية من الآيات القرآنية على منزلة العباس في مقدمة كتابه عمدة الأخبار، وهذا نص كلامه: «وسنبداً أيضاً في أول كل فصل من المناقب بما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^١. ونشئ بذكر الفصل في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^٢.

وهذان الفصلان يدلان على أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه من أولي القربى الذين أمر الله عز وجل بمودتهم، ويدل عليه ما ذكره الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. قال بإسناده يرفعه إلى العباس رضى الله عنه وسيرد عليك الحديث بإسناده فيما بعد إن شاء الله تعالى قال: فقال العباس: يا رسول الله! ما بال قريش يلقى بعضها بوجوه تكاد أن تساليل من الود، ويلقوننا بوجوه قاطبة؟!!

فقال رسول الله ﷺ: «أو يفعلون ذلك»؟

قال العباس رضى الله عنه: نعم، والذي بعثك بالحق.

فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي بعثني بالحق، لا يؤمنون حتى يحبوهم لي».

فأدخل العباس في من لا يثبت الإيمان إلا بمحبتهم، وهم أولو القربى الذين أمر الله تعالى بمودتهم.

ومن ذلك ما ذكره الثعلبي أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ

١. سورة الأحزاب: ٣٣.

٢. سورة الشورى: ٢٣.

مِنْ أَهْلِ الْقُرَى. يعني من أموال كفار أهل القرى ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾^١.
 يعني قرابة النبي ﷺ قال: وهم آل علي عليه السلام وآل العباس وآل جعفر وآل عقيل -رضي
 الله عنهم- ولم يشرك بهم غيرهم، وهذا وجه صحيح يطرد على الصحة لأنه موافق
 لمذهب آل محمد صلوات الله عليهم، يدل عليه ما هو مذكور عندهم في تفسير قوله
 تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾^٢.
 لأن مستحق الخمس عندهم آل علي عليه السلام وآل العباس وآل جعفر وآل عقيل -رضي
 الله عنهم ولا يشرك بهم غيرهم.

ويدل على صحة ذلك ما ذكره الشيخ السعيد أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي
 في كتاب الأمالي في رابع كراسة منه، وهو ما أخبرنا به الشيخ الفقيه عماد الدين محمد
 بن أبي القسم الطبري، عن الشيخ أبي علي الحسن ابن أبي جعفر محمد بن الحسن، عن
 والده الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، عن الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد
 بن محمد بن النعمان الحارثي، قال: أخبرنا أبو الطيب عبد الله بن علي بن إبراهيم
 العمري، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن حرب الطائي، قال: حدثنا محمد بن الفضل
 عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث عن العباس بن عبد المطلب رضي الله
 عنه، قال: قلت:

يا رسول الله ﷺ مالنا ولقريش إذا تلاقوا، تلاقوا بوجوه مستبشرة وإذا لقونا، لقونا
 بغير ذلك؟!

قال: فغضب النبي ﷺ، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان
 حتى يحبكم لله ولرسوله»^٣.

١. سورة الحشر: ٧.

٢. سورة الأنفال: ٤١.

٣. الأمالي للشيخ الطوسي: ٣٠ من الطبعة القديمة.

فأدخل العباس في جملة من لا يدخل قلب رجل الإيمان إلا بحبهم.

وهذا أبلغ مما ذكره الثعلبي في المعنى؛ لأنه أدخله بكاف الجمع الشاملة. وأيضاً ما ذكره الشيخ السعيد أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المقدّم ذكره في كتاب أنس الوحيد في عاشر قائمة الجزء الأول من الكتاب المذكور بالإسناد المقدّم عن الغلابي، عن العباس بن بكار، قال: حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن جبرئيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمد، حبيبتك بكرامة أكرمك الله بها، سهم يجعله في قرابتك وابدأ بعمك العباس.

ويزيد ذلك بياناً وإيضاحاً ما ذكره الحسين بن محمد بن الحسين الحلواني في كتابه الذي جمعه من لمع كلام النبي صلى الله عليه وآله وكلام الأئمة عليهم السلام قال: في لمع كلام الإمام الزكي أبي الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام لما سأله المتوكل، فقال له: ما تقول بنو أبيك في العباس؟ قال: ما يقولون في رجل فرض الله طاعته على الخلق وفرض طاعة العباس عليه. يريد بذلك النبي صلى الله عليه وآله وأن العباس والد وطاعته له كطاعة الوالد.

وكذا في البحار عن كشف الغمة، قال الحافظ عبد العزيز: قال علي بن يحيى بن أبي منصور: كنت [يوماً] بين يدي المتوكل، ودخل علي بن محمد بن علي بن موسى عليه السلام، فلما جلس قال له المتوكل: ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب؟ قال: ما يقول ولد أبي يا أمير المؤمنين في رجل فرض الله تعالى طاعة نبيه على جميع خلقه، وفرض طاعته على نبيه صلى الله عليه وآله.

لا أدري، لعلّ هناك من يحمل هذه الرواية على التقية!

نكتفي بهذا، وهناك مزيد^١.

١. انظر مقدمة عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، تأليف الحافظ يحيى بن الحسن الأسدي الحلبي المعروف بابن البطريق (٥٣٣-٦٠٠) الناشر مؤسسة النشر الإسلامي: المقدمة؛ الصفحات: ٦-١١؛ بحار الأنوار للعلامة المجلسي ٥٠: ٢٠٦.

وهناك أقوال نبويّة حملت أنباءً عن مكانته عند رسول الله ﷺ منها:

ما عن العلامة المجلسي: ... قد قال ﷺ في غير موطن وصية منه في عمّه العباس: «إِنَّ عَمِّيَ الْعَبَّاسَ بَقِيَّةَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، فَاحْفَظُونِي فِيهِ، كُلٌّ فِي كَنَفِي، وَأَنَا فِي كَنَفِ عَمِّيَ الْعَبَّاسِ، فَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ عَادَاهُ فَقَدْ عَادَانِي، سَلِمَهُ سَلَمِي، وَحَرْبَهُ حَرْبِي ... معاشر الناس! احفظوني في عمّي العباس وانصروه ولا تخذلوه...».

نزل رسول الله ﷺ منزلاً فقام يغتسل، فأخذ العباس كساءً فستره به، قال: فرأيتُ النبيَّ ﷺ رافعاً رأسه من جانب الكساء وهو يقول: «اللَّهُمَّ اسْتِرْ الْعَبَّاسَ مِنَ النَّارِ»، أو قال: «العباس وولده من النار». دخل رسول الله ﷺ على العباس وبنيه، فقال: «تقاربوا». فزحف بعضهم إلى بعض، ثمّ اشتمل عليهم بملاءته، وقال: «ياربّ هذا عمّي وصنو أبي، هؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي»، فأمنت أسكفة البيت وحوائط البيت. وكان النبيُّ ﷺ إذا رأى العباس عمّه أوسع له وقال: هذا عمّي وبقيّة آبائي!

عن عبد الله بن أبي بكر أنّه بلغه أنّ النبيَّ ﷺ قال: «احفظوني في العباس عمّي، فإنّ عمّ الرجل صنو أبيه».

وعن كريب أبي رشدين مولى ابن عباس أنّه قال: لقد كان رسول الله ﷺ يجلُّ العباس من بين الناس إجلال الولد والده! وقال كريب: ما ينبغي لنبّيٍّ أن يجلّ إلاّ أباً أو عمّاً!

الإقطاع: ولعلّ عظم منزلته عند رسول الله ﷺ أو لأمر أو مصلحة يراه ﷺ أن كتب له كتباً أقطعه فيها مناطق عديدة، كما ذكروا:

فعن العلامة المجلسي: ومنها: أنّ النبيَّ ﷺ كان جالساً في مسجد يوماً، وحوله جماعة من الصحابة، إذ دخل عليه عمّه العباس، وكان رجلاً صبيحاً حسناً حلّو الشمائل، فلما رآه النبيُّ ﷺ، قام إليه واستقبله وقبّل ما بين عينيه، ورحب به وأجلسه إلى جانبه،

فأنشد العباس أبياتاً في مدحه صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «جزاك الله يا عمّ خيراً، ومكافأتك على الله تعالى!»!

ثمّ قال: «معاشر الناس! احفظوني في عمّي العباس وانصروه ولا تخذلوه!»
ثمّ قال: «يا عم! اطلب مني شيئاً، أتخفك به على سبيل الهدية!» فقال: يا بن أخي! أريد من الشام الملعب، ومن العراق الحيرة، ومن هَجَرَ الخط، وكانت هذه المواضع كثيرة العماره.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «حبّاً وكرامةً»، ثمّ دعا عليّاً عليه السلام، فقال: «أكتب لعمّك العباس هذه المواضع»، فكتب له أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً بذلك، وأملى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد الجماعة الحاضرین، وختم النبي صلى الله عليه وسلم بخاتمه، وقال: يا عم! إن يفتح الله تعالى هذه المواضع، فهي لك هبة من الله تعالى ورسوله، وإن فتحت بعد موتي، فلنبيّ أوصي الذي ينظر بعدي في الأمّة بتسليم هذه المواضع إليك.

ثمّ قال: «معاشر المسلمين! إنّ هذه المواضع المذكورة لعمّي العباس، فعلى من يغير عليه أو يبدله أو يمنعه أو يظلمه لعنة الله ولعنة اللاعنين»، ثمّ ناوله الكتاب.

فلما ولي عمر وفتح هذه المواضع المذكورة، أقبل عليه العباس بالكتاب، فلما نظر فيه دعا رجلاً من أهل الشام وسأله عن الملعب، فقال: يزيد ارتفاعه على عشرين ألف درهم، ثمّ سأل عن الآخرين، فذكر له أنّ ارتفاعهما تقوم بهال كثير! فقال: يا أبا الفضل! إنّ هذا المال كثير، لا يجوز لك أخذه من دون المسلمين.

فقال العباس: هذا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهد لي بذلك قليلاً كان أو كثيراً.

فقال عمر: والله إن كنت تساوي المسلمين في ذلك، وإلّا فارجع من حيث أتيت، فجرى بينهما كلام كثير غليظ... وكتب للعباس الحيرة من الكوفة والميدان من الشام والخط من هَجَرَ ومسيرة ثلاثة أيام من أرض اليمن، فلما افتتح ذلك أتى به إلى عمر، فقال: هذا مال كثير!

قال ابن سعد: عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام: إنَّ العباس جاء إلى عمر، فقال له: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله أقطعني البحرين.

قال: من يعلم ذلك؟ قال: المغيرة بن شعبة، فجاء به فشهد له، فلم يمض له عمر ذلك، كأنه لم يقبل شهادته، فأغلظ العباس لعمر!

عن الإرشاد للدليمي: أن النبيَّ صلى الله عليه وآله كان جالساً، فدخل عليه عمُّه، فقام النبيُّ صلى الله عليه وآله واستقبله، وقبّل بين عينيه ورحب به وأجلسه... ثم دعا عليّاً عليه السلام، فقال: «أكتب لعمك هذه (أي: التي طلبها العباس وهي الملعب من الشام، والحيرة من العراق، والخط من هَجَرَ؛ على ما ذكره الراوي في هذا الحديث) المواضع»، وأملى عليه، وأشهد الحاضرين وختمه بخاتمه^١.

العباس في بيعة العقبة الثانية :

وأما العقبة التي ببيع فيها النبيُّ صلى الله عليه وآله فهي عقبة بين منى ومكة؛ وبينها وبين مكة نحو ميلين، وعندها مسجد، ومنها ترمى جمرة العقبة، وهي المكان الذي ببيع فيه النبيُّ صلى الله عليه وآله من قبل الأنصار في بيعتهم الثانية، في ثلاث عشرة من النبوة، حين أتى منهم سبعون رجلاً وامرأتان...^٢

وقد سجّل لنا التاريخ دوراً نافعاً للعباس بن عبد المطلب في هذه البيعة، يتمثل

١. بحار الأنوار للعلامة المجلسي ٣٠: ٣٦٥، ٣٦٩-٣٧٠؛ مكاتيب الرسول، للأحمدي الميانجي ١: ٣١٤-٣١٣، ومصادره في الهامش: البحار ١٨: ١٣٥، ٨: ٢٣٦؛ ورسالات نبوية: ١٩٧؛ والمناقب لابن شهر آشوب ١: ١١٢؛ والطبقات ٤: ١؛ وكنز العمال، طحجيرية ٧: ٦٦؛ والمطالب العالية ٢: ١٨٠؛ وأيضاً البحار ٨: ٢٣٦ والحديث طويل اختصرناه؛ وفي كتاب الروضة الندية شرح الدرر البهية صديق بن حسن البخاري (ت ١٣٠٧ هجرية) ٢: ١٣٧ باب اسمه باب الأحياء والإقطاع، وفيه: أنه أقطع عدداً من الصحابة أرضاً هنا أو هناك، وذهبوا إلى أنه يجوز للإمام أن يقطع من في إقطاعه مصلحة شيئاً من الأرض الميتة أو المعادن أو المياه.

٢. انظر معجم البلدان ٤: ١٥١-١٥٢ بتصرف بسيط.

بكونه قد أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، وفعالاً كما ذكروا جاء مع النبي ﷺ وكان هو المتولي لأخذ البيعة له ﷺ وتوكيدها بالعهد والميثاق، وذلك حين بايع النقباء السبعين من الأنصار بالعقبة لرسول الله ﷺ وأخذ بيده فبايعهم له وتوثق عليهم. كان هذا بعد أن اجتمعوا، وكان العباس بعد أن أنهى النبي ﷺ أمرهم إلى عمِّه العباس، ولعلَّ هذا يدل على ثقته ﷺ برأيه ورجاحة فهمه، حتى كان أول المتحدِّثين بكلمات حازمة صريحة دالة على مدى حرصه عليه؛ فقال:

يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزر جهم وأوسهم إنَّ محمداً منَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممَّن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده، وإنَّه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللعوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، ومانعوه ممَّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنَّه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده!

وهم يقولون: لقد سمعنا ما قلتَ! ...

ولم يكتف العباس بهذا، بل استأنف كلامه معهم بسؤال مثير: صفوا لي الحرب، كيف تقاتلون عدوكم؟

وما أن انتهى العباس، والأنصار أيضاً انتهوا من إصغائهم إليه، حتى شرعوا بإجابتهم، وكان عبد الله بن عمرو بن حرام أولهم جواباً، فقال: نحن والله أهل الحرب؛ غدينا بها، ومرنا عليها، وورثناها عن آبائنا كابرأ فكابر نرمي بالنبل حتى تفنى، ثم نطاعن بالرماح حتى تنكسر، ثم نمشي بالسيوف، فنضارب بها حتى يموت الأعداء منا أو من عدونا!

وأجاب العباس متهللاً: أنتم أصحاب حرب إذن، فهل فيكم دروع؟

قالوا: نعم؛ لدينا دروع شاملة!

وكان الرسول يذكر بالمدينة ليلة العقبة فيقول: أيّدتُ تلك الليلة بعَمِّي العباس،
وكان يأخذ على القوم ويُعطيهم.

لَمْ يهاجر!؟

وبقي في مكة، يراقب حركات المشركين، ويُرسل بأخبارهم إلى النبي ﷺ حتى إنّه
كان يكتب إلى رسول الله ﷺ بخبر المشركين، فكتب إليه بخبرهم وما أعدوا له يوم
أحد، وحثّهم إياهم كيلا يصيبوا غرته.

وعن رغبته بالهجرة إلى يثرب استأذن العباس نبي الله ﷺ في الهجرة كما جاء عن
سهل بن سعد فكتب إليه: «يا عم يا عم! مكانك الذي أنت فيه، فإن الله عزّ وجلّ
يختتم بك الهجرة كما ختم بي النبوة».

وحتى قيل: إن إسلامه كان قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى النبي ﷺ
وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يجب أن يقدم على النبي ﷺ فكتب النبي ﷺ
إليه: «أنّ مقامك بمكة خير».

وعن المزي: «وكان لهم عوناً على إسلامهم، ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي ﷺ،
فكتب إليه رسول الله ﷺ: «إنّ مقامك مجاهدٌ حسنٌ». فأقام بأمر رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس: أسلم العباس بمكة قبل بدر، وأسلمت أمّ الفضل معه حينئذٍ،
وكان مقامه بمكة، وأنّه كان لا يعمى على رسول الله ﷺ بمكة من خبر يكون إلّا كتب
به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به، ويصيرون إليه.

وهناك أسباب أخرى لعدم هجرته كما عليه خبر أبي رافع: ... وكان العباس يهاب
قومه فيكتم إسلامه، وكان ذا مال متفرق على قريش، وكان يحامي على مكرمه ومكرمة
بني عبد المطلب من السقاية والرفادة، ويخاف خروجها من يده ...

وحتى إنّه بعد قصته التالية في بدر الكبرى، ودفعه للعداء، عاد مع عقيل ونوفل

إلى مكة؛ ليواصل أعماله في البيت الحرام، دون أن يغفل عن أن يُخبر رسول الله ﷺ عما يدور في الساحة، وما يُخطط له زعماء المشركين؛ ليهاجروا إلى المدينة قبيل فتح مكة. فهو لم يترك مكة بالمرّة، وكأنّ هناك دوراً مرسوماً يؤدّيه في مكة فيه منفعة للمسلمين، وهذا ما ورد في الأخبار.

وقعة بدر الكبرى :

لذلك بقي العباس في مكة، ولم يهاجر مع من هاجروا، وفي السنة الثانية للهجرة النبويّة عزم زعماء المشركين في مكة كأبي جهل، وأمّية بن خلف على التوجه لقتال المسلمين في المدينة، فأعدّوا عدّتهم وقوّتهم، وراحوا يحثّون أهل مكة للخروج، واتخذوا هذا الإعداد فرصة؛ ليعلموا من لا زال على ما هم عليه من دين آبائهم، ممّن صبأ واتبع دين محمد بن أبي عبد الله ﷺ، ولم يغفلوا عمّن بقي في مكة من بني هاشم كالعباس ونوفل وعقيل... فقد أحدقوا بهم، فأكروههم ودفعوهم على الخروج معهم، فما استطاعوا خلاصاً...

وهذا ابن سعد قد ذكر في الطبقات: أنّ قريشاً لما نفروا إلى بدر، فكانوا بمر الظهران، هبّ أبو جهل من نومه فصاح فقال: يا معشر قريش! ألا تبأ لرأيكم ماذا صنعتم، خلّفتم بني هاشم وراءكم، فإن ظفر بكم محمد كانوا من ذلك بنجوة، وإن ظفرتم بمحمد أخذوا ثارهم منكم من قريب من أولادكم وأهليكم، فلا تذرّوهم في بيضتكم وفنائكم، ولكن أخرجوهم معكم، وإن لم يكن عندهم غناء؟!!

فرجعوا إليهم، فأخرجوا العباس بن عبد المطلب ونوفلاً وطالباً وعقيلاً كرهاً. وذكر أيضاً: أنّ قريشاً في يوم بدر، جمعت بني هاشم وحلفاءهم في قبّة وخافوهم، فوكلّوا بهم من يحفظهم ويشدّد عليهم، ومنهم حكيم بن حزام.

وعن ابن عباس: قد كان من كان ممّا بمكة من بني هاشم؛ قد أسلموا، فكانوا

يكتمون إسلامهم، ويخافون يظهر ذلك فرقاً من أن يثب عليهم أبو لهب وقريش، فيوثقوا كما أوثقت بنو مخزوم سلمة بن هاشم وعباس بن أبي ربيعة وغيرهما؛ فلذلك قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر: «من لقي منكم العباس وطالباً وعقيلاً ونوفلاً وأبا سفيان، فلا تقتلوهم، فإنهم أخرجوا مكرهين».

وعنه أيضاً: أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «إني عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرهاً؛ لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله». من لقي العباس بن عبد المطلب عم النبي، فلا يقتله، فإنما أخرج مستكراً.

ويبدو أن هذا الاستعداد من مشركي قريش، وإكراههم رجال بني هاشم، علم به رسول الله ﷺ. كما أن العباس بن عبد المطلب كتب إلى رسول الله ﷺ عند خروج المسلمين إلى بدر كما في الخبر يعلمه السبب الذي خرج له من مداراة قريش، وأنه غير مقاتل مع المشركين، وإن أمكنه أن ينهزم بهم ويكسرهم فعل. وكان كتابه من مكة مع رجل من بني كنانة...

فلذلك، وحسب ما روي، أنه ﷺ قال لأصحابه قبل أن يلتقي الجمعان يوم بدر: «إني قد عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم في قتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هاشم بن الحارث بن أسد، فلا يقتله».

إني قد عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي العباس بن عبد المطلب، فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكراً.

إني قد عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم، أخرجوا مكرهين منهم عمي العباس، فمن لقيه منكم فلا يعرضن له فإنه خرج مكرهاً.

من لقي أحداً من بني هاشم، فلا يقتله فإنهم أخرجوا كرهاً.

فمن لقي منكم العباس فلا يقتله، فإنما أخرج كارهاً.

فمن لقي منكم العباس فلا يقتله».

وفي خبر، أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا مستكرهين، فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختری فلا يقتله».

وفي خبر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي يوم بدر أن يقتل أحد من بني هاشم وأبو البختری.

زلةُ أبي حذيفة!

سميت وقعة بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾^١.

فكان يوماً عظيماً تهاوت فيه مبادئ الجاهلية وأعرافها، وتجسدت فيه قيمٌ جديدة ملؤها الولاء التام للإيمان والإيمان وحده، والبراء من أعدائه مهما كانت درجاتهم في القربى، وقد التقى الابن بأبيه يُقاتله، والأخ بأخيه يُصارعُه، فكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مسلماً مجاهداً في الجمع المبارك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها وقف كلُّ من أبيه عتبة وأخيه الوليد وعمّه شيبه في الجمع الآخر مع مشركي مكة، فقتلوا جميعاً في المبارزة الأولى من قبل الإمام عليٍّ عليه السلام، وحمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه ...

إلا أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وقعت منه زلة يوم بدر، تركته نادماً، بل وظلَّ يتخوَّف منها، فتراه يقول: منذ سقطت مني تلك الكلمة وأنا أخافها، لا آمن منها أبداً حتى يكفرها الله عني بالشهادة! أو: ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً!

وزلته هذه كانت حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوصي المقاتلين المسلمين بأقواله

التي منها: «فمن لقي منكم العباس فلا يقتله»؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، «ومن

لقي أبا البخخري فلا يقتله». أو «من لقي العباس، فلا يقتله؛ فإنه خرج مستكراً». فقال: والله لا ألقى رجلاً منهم إلا قتلته. أو: أنقتل آباءها وإخواننا وعشائنا، ونترك العباس، والله إن لقيته لألجمنه أو لألجمنه السيف!

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:

«أنت القائل كذا وكذا»؟

قال: نعم يا رسول الله شق علي إذا رأيت أبي وعمي وأخي مقتلين، فقلت الذي قلت!

فقال له رسول الله ﷺ: «إن أباك وعمك وأخاك خرجوا جاديين في قتلنا طائعين غير مكرهين، وإن هؤلاء أخرجوا مكرهين غير طائعين لقتالنا».

ما كان أمر أو نهى رسول الله ﷺ مختصاً بالعباس ومن معه من بني هاشم عن قتلهم، وإنما شمل أبا البخخري وهو جنادة بن مليحة بنت زهير بن الحارث بن أسد، وقال ابن هشام: أبو البخخري، العاص بن هاشم بن الحارث بن أسد...

وذلك لمواقفه الطيبة، والتي ذكرت له، كان يحسن إلى بني هاشم ويعاملهم معاملة طيبة، وأكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، ولا يدعو للتضييق عليهم؛ ولم يؤذهم أيام كانوا في الشعب محاصرين من قبل قريش، التي قاطعتهم.

يقول ابن إسحاق: نهى رسول الله ﷺ عن قتله؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب.

فلقيه المجذّر بن زياد البلوي، حليف الأنصار، ثم من بني سالم بن عوف، فقال المجذّر لأبي البخخري:

إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك.

ومع أبي البختری زمیل له (الزمیل: الذي یركب معه علی بعیر واحد) قد خرج معه من مكة، وهو جنادة بن مُلیحة بنت زهیر بن الحارث بن أسد، وجنادة رجل من بني لیث.. قال: وزمیلی؟ فقال له المجذر:

لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك. فقال: لا والله، إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة!

فقال أبو البختری حين نازله المجذر وأبى إلا القتال، یرتجز:

لن يُسَلِّمَ ابنُ حُرّةِ زميلَه حتى يموتَ أو يرى سبيله
فاقتتلا، فقتله المجذر بن زياد.. ثم إنَّ المجذر أتى رسول الله ﷺ، فقال: والذي بعثك بالحق، لقد جهدتُ عليه أن يستأسر فأتيتك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته.

الإطعام:

وأيضاً نذكر بخبر أبي رافع أعلاه عن سبب خروج العباس مع المشركين، وإطعامه: وكان العباس يهاب قومه فيكتم إسلامه، وكان ذا مال متفرق على قريش، وكان يحامي على مكرمه ومكرمة بني عبد المطلب من السقاية والرفادة، ويخاف خروجهما من يده، فخرج مع المشركين يوم بدر، وأطعم تجلداً مع المطعمين.

وذكر محمد بن حبيب في كتابيه نقلاً عن محمد بن عمر المدني الواقدي: أن العباس نحر في بدر عشراً من الإبل، فلم تطعمها قريش وأكفأت قدوره؛ لعلمها بميله إلى رسول الله ﷺ.

وقال السيد المدني في الدرجات الرفيعة:

وكان العباس أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، قد نحر كل واحد يوم نوبته عشراً من الإبل، وكان حمل معه عشرين أوقية من الذهب؛ ليطعم بها الناس،

وكان يوم بدر في نوبته، فأراد أن يطعم ذلك اليوم، فاقتتلوا وبقيت العشرون أوفية، فأخذت منه حين أخذ وأسر في الحرب.

الأسر:

«لقد أعانك عليه ملك كريم!»

لكن للمعركة أحكامها، فما أن انتهت الواقعة بهزيمة كبرى للمشركين، ونصر عظيم للمسلمين، قتل كبار المشركين، سقط أتباعهم بين قتيل وأسير، فشاء القدر أن من أخرج من بني هاشم مكرهاً كالعباس أن يقع أسيراً بيد المسلمين؛ بيد رجل قصير ليس بالقوي، هو كعب بن عمرو؛ المشهور بكنيته أبي اليسر، وهو من الأنصار، فيما كان العباس ضخماً طويلاً، ويوثق وثاقه كحال جميع الأسرى، وإذا بالعباس بعد ذلك يرى نفسه مشدود اليدين، يقضي ليلة لم يمرّ ليلة حياته بمثلها، وهو ذو المكانة الاجتماعية الرفيعة التي يلذّبه الآخر، ويمنع الجوار... وما يتركه هذا على وضعه النفسي، يشقُّ عليه ذلك، ويُتعبه، خاصةً وأنّه يرى أنّه مسلم وغير مقاتل، وقد أخرج كرهاً، ولم يعتدّ على أحدٍ من المسلمين أو يؤذهم، بل كان نصيراً لهم في مكة وخارجها، ولا يحمل في صدره للإسلام ومن آمن به إلاّ حبّاً، دون أن يعلم بهذا إلاّ الله ورسوله! يقول الخبر: ومهما كان من أمر الإطعام، فلا شكّ في أنّه كان في الأسرى يوم بدر، أسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري، وكان أبو اليسر رجلاً صغير الجثة، وكان العباس رجلاً عظيماً قوياً، فقال النبي ﷺ لأبي اليسر: «كيف أسرته؟»

قال: أعانني رجل ما رأيتُه قبل ذلك ولا بعده.

فقال: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

ويمكن القول بأنّ المكره لا يريد قتالاً، ولا يندفع إليه، وتراه يبحث عن أيّ فرصة للخلاص من قتال لا يرغب فيه، فيسهّل على أسره أسره، وهو ما حدث كما يبدو

للعباس ولعقيل ولنوفل...

أَيْنَ أَرَّقَ الرَّسُولَ ﷺ!

وفي المقابل علم رسول الله ﷺ بما حلَّ بالعباس، عمّه وشقيق أبيه، رفيق نشأته، وصديق صباه وشبابه، وأتاه أسيرٌ، لا يملك من أمره شيئاً، مكبلاً، لا يستطيع حركةً، ولا يقول شيئاً، إلا الحزن يعتصر قلبه...

فطال تفكيره ﷺ بعمّه، وهو يسمع أنينه، فأرّقه ذلك، ولما سئل عمّا به، قال عليه الصلاة والسلام:

«سمعت أنين العباس في وثاقه!» فبادر أحدهم، فأرّخى وثاقه، وعاد ليقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنّي أرخيتُ من وثاق العباس شيئاً! فقال ﷺ له: «اذهب فافعل ذلك بالأسرى جميعاً».

فعن ابن عباس أنّه قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل. فقال له أصحابه: يا رسول الله مالك لا تنام؟

فقال: «سمعت أنين عمّي العباس في وثاقه!» فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ. أو علم ذلك بعض أصحابه، فأرّخى وثاقه. فقال النبي ﷺ: «ما بالي لا أسمع أنين العباس؟» فقال رجل: أرخيتُ من وثاقه شيئاً. قال: «افعل ذلك بالأسارى كلهم».

الفداء المضاعف :

أن ألزمني من الفداء أغلظ ما يؤخذ من أحد! بُعيد أسره يوم بدر، بعث بذلك إلى رسول الله ﷺ وقال رسول الله ﷺ لعمّه العباس: «يا عباس، افتد نفسك، وابن أخيك، عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم، فإنّك ذو مال». قال: يا رسول الله إنّي كنت مسلماً، ولكن القوم استكروهوني، قال: «الله أعلم

بإسلامك، إن يك ما تذكر حقاً، فالله يجزيك به، فأما ظاهر أمرك، فقد كان علينا، فافد نفسك». وكان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب، فقال العباس: يا رسول الله، أحسبها لي من فدائي! قال: «لا ذلك شيء أعطاناه الله منك!»! قال: فإنه ليس لي مال. قال: «فأين المال الذي وضعت بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث، ليس معكما أحد، ثم قلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا؟»! قال: والذي بعثك بالحق، ما علم بهذا أحد غيري وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله! ففدى العباس نفسه وابن أخيه وحليفه...

هذا في الأخبار، وأما في الآيات القرآنية، وأسباب نزولها، فهناك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١.

قال الشيخ الطبرسي: كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم علي بن أبي طالب عليه السلام سبعة وعشرين، وكان الأسرى أيضاً سبعين، ولم يؤسر أحد من أصحاب النبي ﷺ، فجمعوا الأسارى، وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم...

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُرْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^٢.

واستشار رسول الله ﷺ عدداً من الصحابة في أسارى يوم بدر، وروى عبيدة السلماني أنه عليه السلام قال لهم: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم، واستشهد منكم بعدتهم». فراح كلٌّ منهم يذلي برأيه،... واستقروا أخيراً على أخذ الفداء، وكانت الأسارى سبعين، فقالوا: بل نأخذ الفداء، فنستمع به، ونتقوى به على عدونا، وليستشهد منا بعدتهم.

١. سورة الأنفال: ٦٧.

٢. سورة الأنفال: ٧٠.

وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم وأقله ألف درهم، فبعثت قريش بالفداء أولاً فأولاً...

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية، والأوقية أربعون مثقالاً، إلا العباس فإن فداءه كان مائة أوقية، وكان أخذ منه حين أسر عشرون أوقية ذهباً.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: ذلك غنيمة، ففاد نفسك وابني أخيك نوفلاً وعقياً.

فقال: ليس معي شيء.

فقال: أين الذهب الذي سلمته إلى أم الفضل، وقلت: إن حدث بي حدث فهو لك وللفضل وعبد الله وقثم؟

فقال: من أخبرك بهذا؟

قال: الله تعالى.

فقال: أشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحداً إلا الله تعالى.

قال الكلبي: نزلت في العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أسير يوم بدر، ومعه عشرون أوقية من الذهب، كان خرج بها معه إلى بدر؛ ليطعم بها الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، ولم يكن بلغته النوبة حتى أسر، فأخذت معه وأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله منه.

قال: فكلمت رسول الله صلى الله عليه وآله أن يجعل لي العشرين الأوقية الذهب التي أخذها مني من فدائي، فأبى عليّ.

وقال: «أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا».

وكلفني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية من فضة، فقلت له: تركتني والله أسأل قريشاً بكفي والناس ما بقيت.

قال: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أمّ الفضل مخرجك إلى بدر، وقلتَ لها: إن حدث بي حدث في وجهي هذا، فهو لك ولعبد الله والفضل وقثم؟!»

قال: قلتُ: وما يدريك؟!!

قال: «أخبرني الله بذلك».

قال: أشهد إنك لصادق، وإنّي قد دفعتُ إليها ذهباً، ولم يطلع عليها أحدٌ إلا الله، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله!

وعوّضته السماء!

حَقًّا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ». قيل: في الدنيا. وقيل: في الآخرة، روي عنه أنّه قال: نزلت هذه الآية فيّ وفي أصحابي؛ كان معي عشرون أوقية ذهباً فأخذت مني، فأعطاني الله مكانها عشرين عبداً؛ كلُّ منهم يضرب بهال كثير، وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية، وأعطاني زمزم وما أحبُّ أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربّي!

وفي خبر، إن صحَّ: أنّه لما قدم على النبيّ ﷺ مال من البحرين، قال له العباس: إنّي فاديت نفسي وفاديت عقيلاً. فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فبسط ثوبه، وأخذ ما استطاع أن يحمله. فقال له العباس: هذا خير ممّا أخذ منّي، وأنا بعدُ أرجو أن يغفر الله لي. أو قال العباس: فأعطاني الله خيراً ممّا أخذ منّي، كما قال: عشرين عبداً كلّهم يضرب بهال كبير مكان العشرين أوقية، وأنا أرجو المغفرة من ربّي.

وروي أنّه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضأ لصلاة الظهر وما صلّى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير ممّا أخذ منّي، وأنا أرجو المغفرة.

وقد روى محمد بن يعقوب: عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن

معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول في هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾.

قال: نزلت في العباس وعقيل ونوفل.

وأسند الطبري إلى العباس أنه قال: في نزلت حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإسلامي، وسألته أن يجاسني بالعشرين أوقية التي أخذت مني قبل المفاداة، فأبى وقال: «ذلك فيء». فأبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بهالي. عن ابن عباس: ... فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾.

فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مئة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون قد غفر لي! وكان العباس بن عبد المطلب يقول: لقد أعطانا الله خصلتين ما شيء هو أفضل منها: عشرين عبداً. وأما الثانية: فنحن في موعود الصادق، ننتظر المغفرة من الله سبحانه! لقد أعطاني الله خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: أتت أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فأتاني أربعين عبداً وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله!

قال الرازي: ... واختلف المفسرون في أن الآية نازلة في العباس خاصة، أو في جملة الأسارى. قال قوم: إنها في العباس خاصة، وقال آخرون: إنها نزلت في الكل، وهذا أولى؛ لأن ظاهر الآية يقتضي العموم من ستة أوجه: أحدها: قوله: ﴿قُلٌّ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ﴾ وثانيها: قوله: ﴿مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ وثالثها: قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ورابعها: قوله: ﴿يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا﴾ وخامسها: قوله: ﴿مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾. وسادسها: قوله: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾. فلما دلَّت هذه الألفاظ الستة على العموم، فما الموجب للتخصيص؟ أقصى ما في الباب أن يقال: سبب نزول الآية هو العباس، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أقول: نزلت في عموم الأسرى؛ العباس ومن أسر معه، وحتى لو أُنزلت في العباس، فحكمها عام، وجاء التأكيد على العباس في الأخبار؛ لكونه أكثرهم نصيباً وأوفرهم حظاً فيها، فهو عمُّ النبي ﷺ وقد وقع في الأسر؛ وأخذ منه في الفداء ما لم يؤخذ من غيره، أخذ منه أضعاف ما أخذ من غيره من الذين فدتهم قريش، فهو من كبار أشراف قريش وأغناهم، وقد ضمن لهم الإطعام يوم بدر حين أخذ معه عشرين أوقية من ذهب؛ ليطعم بها الناس، كما ذكروا، وإن لم يتم لهم ذلك؛ لانشغالهم بالقتال، وأسرت هذه العشرون معه من قبل المسلمين، فكانت فيئاً، ولأنه رجل موسر ضعّف عليه رسول الله ﷺ الفداء، فأخذ منه ثمانين أوقية بدل أربعين أوقية، هذا إضافة إلى أن رسول الله ﷺ أمره بدفع فداء ابني أخويه، وهما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة بن عمرو.. فدفع العباس ما لا لم يدفعه غيره، وكما طلب، أن ألزمني من الفداء أغلظ ما يؤخذ من أحد! وهو مال كثير ترك أثراً ونفعاً كبيراً بين المسلمين. ولعلّ لكلّ هذه الأسباب، وقد يكون لغيرها، احتلّ العباس هذه المكانة في أسباب نزول هذه الآية وتفسيرها... وهكذا تمّ الفداء، وتمّ التعويض المبارك!

وقفّة:

هذا وأنّ ابن إسحاق لم يذكر العباس بن عبد المطلب في قائمة أسرى وقعة بدر، حين ذكر أسرى قريش يوم بدر من بني هاشم، فقال: وأسر من المشركين يوم بدر من بني هاشم بن عبد مناف: عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم.

قال أبو ذر: ولم يذكر معهما العباس بن عبد المطلب؛ لأنّه كان أسلم، وكان يكتم

١. البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني؛ تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي؛ تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي؛ تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي: الآيتان.

إسلامه خوف قومه.^١

أقول: إنَّ هذا القول لأبي ذر ينسجم مع ما ذكر من أخبار حول إسلام الرجل وهو بعدُ في مكة، وقبل الهجرة النبوية، وبالتالي قبل معركة بدر، ومن تلك الأخبار:

عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: أنَّ النبي ﷺ قال:

«اللَّهُمَّ، إِنَّ عَمِّي العباس حاطني بمكة من أهل الشرك، وأخذني البيعة على الأنصار، ونصرني في الإسلام، اللَّهُمَّ فاحفظه وحطه واحفظ ذريته من كلِّ مكروه». وفي حديث الواقدي: أنَّه أسلم وأسلمت معه زوجته أمُّ الفضل، وعلى هذا يكون إسلامه بمكة قبل الهجرة؛ لأنَّ أمَّ الفضل زوجته كانت أول امرأة أسلمت بعد السيدة خديجة أم المؤمنين، فهي ثانية المسلمات السابقات، وفي حديث أبي رافع مؤثر واضح على ذلك. وإنَّ أبا رافع كان مولئ للعباس، فوهبه للنبي ﷺ قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت أمُّ الفضل وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتنم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، فخرج معهم إلى بدر وهو على ذلك.

وفي خبر آخر عن أبي رافع مولئ رسول الله ﷺ أنَّه قال: كنتُ غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلم العباس، واعتقد البيعة لرسول الله ﷺ على الأنصار ليلة العقبة، على قبه وقريش تطلبه.

أقول: وأنَّه لم يُعلن إسلامه، كما يبدو، إلا بعد أن خرج من مكة إمَّا مكرهاً أو مداراةً لقومه مع من خرج من قريش وزعمائها إلى وقعة بدر الكبرى، وكان في عداد الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين، وأنَّ هذا هو القول الأرجح، في إسلام الرجل، ولعلَّ الذي منع ابن إسحاق أن يذكره مع الأسرى، وهو يُصدر عبارته بقوله: (وأسر من

١. انظر الطبقات لابن سعد ٤: ٦-٧؛ السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣، ذكر أسرى قريش يوم بدر؛

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي ٥: ٣٧.

المشركين...) هو علمه بإسلامه المذكور، وليس الذي منع ابن إسحاق كونه مؤرخاً رسمياً للدولة العباسية، فلم يُجب أن يذكر جدّهم في عداد أسرى بدر.

ثمّ كونه أخذ أسيراً، لا يمنع من كونه مسلماً قبل ذلك، وبالتالي فهو ليس من الأسرى المشركين. نعم عومل معاملتهم، وأخذ منه الفداء؛ لعلّه لظاهر حاله، أي منهم ظاهراً كما في الخبر أعلاه: «فأما ظاهر أمرك، فقد كان علينا، فافد نفسك...». أو لكي لا يتميّز عن غيره من الأسرى. إلا أنّ عنوان الأسر وأخذ الفداء منه، جعل بعضهم يتوقف في إسلامه قبل الأسر المذكور، فبعد أن يذكر ما قاله الواقدي عن ابن أبي سبرة عن حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس: أسلم العباس بمكة قبل بدر، وأسلمت أمّ الفضل معه حينئذٍ، وكان مقامه بمكة، وأنّه كان لا يعمى على رسول الله ﷺ بمكة من خبر يكون، إلاّ كتب به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقون به ويصيرون إليه. وهناك إضافة ذكرها المزي: وكان لهم عوناً على إسلامهم، ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: إنّ مقامك مجاهدٌ حسنٌ، فأقام بأمر رسول الله ﷺ.

فابن حجر يرد ما وقع في رواية الواقدي من أنّه أسلم قبل بدر، ليس بصحيح؛ لأنّه شهد بدرًا مع المشركين، وأسر فيمن أسر، ثمّ فودي. ففي الصحيح أنّه قال للنبي ﷺ: إنّي فاديتُ نفسي وعقبلاً. فلو كان مسلماً، لما أسر ولما فودي. فلعلّ الرواية بعد بدر. وكذا الذهبي قال بعد أن ذكر الحديث: إنّ إسناده ضعيف: ولو جرى هذا؛ لما طلب من العباس فداء يوم بدر...^١

١. انظر التهذيب لابن حجر: رقم ٢١٤ ص ١٢٢-١٢٣؛ وتهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي

رقم ١٣٤١ وسير أعلام النبلاء للذهبي: ترجمة العباس بن عبد المطلب؛ كتاب تهذيب التهذيب

لابن حجر العسقلاني ١٢٢-١٢٣؛ الاستيعاب لابن عبد البر ٢: ٨١٢؛ السيرة النبوية لابن هشام

٢: ٦٢٩-٦٣٠؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ وتفسير البرهان لهاشم البحراني: الآية.

أنشطته في مكة :

عاد العباس إلى مكة بعد وقعة بدر، حين أقطعه النبي ﷺ في هجرته هو ونوفل بن الحارث في موضع واحد، وأخى بينهما فكانا متجاورين، كما كانا في الجاهلية شريكين في المال متحابين متصافيين... عاد ومعه كل من نوفل وعقيل؛ ليواصلوا نشاطهم في مكة، وقد أمروا بذلك؛ ليقيموا ما كانوا يقيمون من أمر السقاية والرفادة والرئاسة، وليس هذا فقط، فإن الخبر يقول: ولما رجع العباس إلى مكة، أقام بها عيناً للنبي ﷺ على قريش، حتى إذا عزمت قريش على المسير إلى المدينة في وقعة أحد، كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من بني غفار، وشرط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ يخبره أن قريشاً قد اجتمعت للمسير إليك، فما كنت صانعاً إذا دخلوا بك فاصنعه، وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مائتي فرس، وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير، وقد أوعبوا من السلاح، فقدم الغفاري، فلم يجد رسول الله ﷺ بالمدينة وجده بقاء، فخرج حتى وجد رسول الله ﷺ على باب مسجد قباء يركب حماره، فدفع إليه الكتاب فقرأه عليه أبي بن كعب...

وفي خبر: ... مع رجل من بني كنانة، ومعه كتابه إلى رسول الله ﷺ باستعداد قريش لغزوه يوم أحد إشفاقاً من أن يصيبوا غرته. والعباس في مكة، بلغه فتح خيبر، فأعتق غلاماً له يكنى أبا زبيبة. وكان فتح خيبر في السنة السابعة هجرية.

هجرته :

وقبل فتح مكة في العشرين من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة، أقبل العباس إلى المدينة مهاجراً، ولعلّه بهذا ختم الهجرة، إن صحَّ ما نُسب إليه ﷺ، فكتب إليه: «يا عم، أقم مكانك؛ فإن الله يختم بك الهجرة، كما ختم بي النبوة»!

إذن رجع العباس ومن معه من المدينة إلى مكة؛ بعد وقعة بدر، وبعد المواخاة،

وبعد أن أدى ما كلف به في مكة المكرمة، هاجر إلى المدينة قبل فتح مكة، كما قال البلاذري وغيره، ولقي النبي ﷺ بالسقيا وقيل بالبحفة. وقيل: بذى الحليفة، وبه انقطعت الهجرة.

هاجر إلى المدينة؛ ليشهد مع النبي ﷺ فتح مكة. وله قال النبي ﷺ عن أبي سفيان بن حرب حين جاء مستسلماً: «أحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود». كما يأتينا في فتح مكة^١.

فتح مكة:

ويسمى الفتح الأعظم، وقع في العشرين من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة، فكان حدثاً كبيراً وعظيماً، وكيف لا يكون كذلك، وقد أعزّ الله تعالى به دينه حين دخل الناس فيه أفواجاً، وصارت مكة المكرمة قلعة للإسلام.. وأذّلّ به أعداءه، حين خسر المشركون معالم شركهم ومعامل كفرهم من أوثان وأصنام راحت تُعبد قروناً من دون الله تعالى، وفقدوا قوتهم وجبروتهم؟! وفي هذا الفتح المبارك، ذكروا للعباس بن عبد المطلب مواقف، كان منها: ... حين اقترب الرسول ﷺ ومعه المؤمنون من مكة المكرمة، ركب العباسُ البغلة البيضاء لرسول الله ﷺ وإذا بأبي سفيان زعيم قريش وكبير شركهم وزعيم جندهم؛ قد خرج يتحسس أو يتجسس أخبار قدام رسول الله ﷺ لقيه العباس ونصحه بأن يأتي معه؛ ليطلب له الأمان من الرسول فجاء معه...

وفي قول؛ لما وصل رسول الله ﷺ إلى منطقة «البحفة» لقيه عمُّه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مهاجراً إلى المدينة، فاصطحبه في طريقه إلى مكة، فلما وصلوا وادي «مرّ الظهران» القريب من مكة، ركب العباس بغلة

١. صحيح البخاري، رقم: ١٩٤٨ و ٤٢٧٩؛ صحيح مسلم رقم: ١١١٣؛ المعجم الكبير للطبراني

٢٦: ١١؛ تاريخ ابن خلدون ٢: ٤٢.

الرسول محمد ﷺ البيضاء، وانطلق يبحث عن أحد يخبره بمقدم جيش المسلمين لفتح مكة؛ ليبلغ قريشاً بذلك؛ يحثهم على طلب الأمان من الرسول قبل أن يدخلها عليهم محارباً بقوة السلاح.

وكان أبو سفيان خارج مكة يتجسس الأخبار، فلقية العباس ونصحه بأن يأتي معه؛ ليطلب له الأمان من الرسول فجاء معه، ولما دخلا عليه، قال الرسول الأمين مخاطباً أبا سفيان: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. فقال الرسول: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

وفي خبر: ... فخشي العباس تلاف قريش إن فاجأهم الجيش قبل أن يستأنموا، فركب بغلة النبي ﷺ، وذهب يتحسس، وقد خرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتحسسون الخبر، وبينما العباس قد أتى الأراك؛ ليلقى من السابلة من ينذر أهل مكة إذ سمع صوت أبي سفيان وبديل، وقد أبصران نيران العساكر، فيقول بديل: نيران بني خزاعة، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ بالناس، والله إن ظفر بك ليقتلنك، وأصباح قريش، فارتد خلفي، ونهض به إلى المعسكر، ومرّ بعمر، فخرج يشتدّ إلى رسول الله ﷺ؛ يقول: الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، فسبقه العباس على البغلة ودخل على إثره، فقال: يا رسول الله، هذا عدو الله أبو سفيان، أمكن الله منه بلا عهد، فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: قد أجرته، فزأره عمر، فقال العباس: لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنّه من عبد مناف، فقال عمر: والله لإسلامك كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب؛ لأنّي أعرف أنّه عند رسول الله ﷺ وسلم كذلك، فأمر رسول الله ﷺ العباس يحمله إلى رحله، ويأتيه به صباحاً. فلما أتى به قال له ﷺ: «ألم

يَأْنُ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟

فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله، لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنّا، فقال: «ويحك ألم يَأْنُ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمّا هذه ففي النفس منها شيء، فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك! فأسلم، فقال العباس: يا رسول الله، إِنَّ أَبَا سَفِيَانَ رَجُلٌ يَجِبُ الْفَخْرُ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئاً، قال: «نعم مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ؛ فَهُوَ آمِنٌ...».

وفي خبر: لما وصل النبي إلى منطقة الأبواء لقي أبا سفيان، وأعرض عنه الرسول ﷺ فنصح علي بن أبي طالب أبا سفيان أن يدخل على الرسول، كما دخل إخوة يوسف على يوسف، فقالوا له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾^١. ففعل أبو سفيان، وردّ عليه النبي ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْرِضُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^٢.

وظل جيش المسلمين يسير إلى أن وصل إلى منطقة فيها عين ماء تُسمّى (الكديد)، أفطر عندها الرسول والصحابة؛ لأنّهم كانوا صياماً، وأكمل الجيش سيره إلى أن نزلوا بوادي فاطمة عشاءً، وأوقدوا النيران، وعيّن الرسول عمر بن الخطّاب على الحرس. خرج العباس على بغلة النبي؛ ليرى أمر قريش، فوجد أبا سفيان خارجاً يتجسّس الأخبار، فأخذه العباس إلى معسكر المسلمين، وحينما رأهم عمر أراد قتل أبا سفيان، إلّا أنّ العباس أجاره، وكان صاحباً لأبي سفيان، وحضر أبو سفيان إلى النبي، وأنكر عليه النبي ﷺ بقاءه على الكفر، فأسلم أبو سفيان، فقال النبي ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ؛ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ؛ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ؛ فَهُوَ آمِنٌ».

١. سورة يوسف: ٩١.

٢. سورة يوسف: ٩٢.

وفي قول: فلما ذهب لينصرف؛ قال رسول الله ﷺ: «يا عباس! احبسّه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمرّ به جنودُ الله فيراها!»
قال العباس: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسّه.

وفي خبر: فلما حبستُ أبا سفيان، قال: غدراً يا بني هاشم!
فقال العباس: إنَّ أهل النبوة لا يغدرون، ولكن لي إليك حاجة.
فقال أبو سفيان: فهلا بدأت بها أولاً! فقلت: إنَّ لي إليك حاجة، فكان أفرغ لروعي!

قال العباس: لم أكن أراك تذهب هذا المذهب.
ثمَّ واصل العباس قائلاً: ومرت القبائل على راياتها، كلِّما مرت قبيلة، قال: يا عباس من هؤلاء؟
فأقول: سليم، فيقول: مالي ولسليم، ثمَّ تمرُّ به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟

فأقول: مزينة، فيقول مالي ولمزينة، حتى نفذت القبائل؛ ما تمرُّ به قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته، قال: مالي ولبني فلان، حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد.

فقال: سبحان الله! يا عباس، من هؤلاء؟
قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار! قال: ما لأحد هؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا!
قال: قلت: يا أبا سفيان إنَّها النبوة! أو فقلت: ويحك إنَّها النبوة! قال: فنعم إذن!

وهنا أدرك العباس ما تنطوي نفس أبي سفيان من حبِّ للزعامة والجاه... فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل يحبُّ الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في

قومه! فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»! قلتُ: النجاء (السرعة) إلى قومك!

وإن تعددت الأخبار في هذا الأمر ودور العباس فيه، إلا أن الثابت هو أن كتائب المسلمين قد مرّت عليه؛ الواحدة تلو الأخرى، متوجهةً إلى مكة، وهو يشاهدها والدهشة تتمالكه، فأثارت الرعب في نفسه، وأيقن بأنّ خسارة قريش محققة إن هي حاولت منع المسلمين من دخول مكة، فما كان منه بعد أن قال له العباس: النجاء إلى قومك! إلا أن أسرع إلى قومه قائلاً أو صارخاً بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن! فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه أو بلحيتته، فقالت: اقتلوا الشيخ الحميت (الضخم) الدسم الأحمس (الذي لا خير عنده) قُبِح من طليعة قوم! فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرّبكم هذه من أنفسكم، فإنّه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرّق الناس، واحتموا بدورهم وبالمسجد الحرام... ولما خطب ﷺ في يوم الفتح، فقال: «إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا يختلّ خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد». فقال العباس: يارسول الله، إلا الأذخر، فإنّه للفقير والبيوت! فقال النبي ﷺ: «إلا الأذخر فإنّه حلال».

وقال ﷺ في خطبته حين فتح مكة: «ألا وإن كلّ مائرة أو دم أو مال يدعى، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج»، أو «ألا إنّي قد وضعت كلّ مائرة ومكرمة كانت في الجاهلية تحت قدمي، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج». وتطلّع العباس إليهما معاً، إلا أن الرسول الكريم ﷺ ردّ عليه السقاية، ولم يعطه السدانة، وردّ مفاتيح الكعبة إلى بني شيبه.

وفي خبر: فأمر السقاية والرفادة في يد العباس، وأقرَّ الحجابة في يد عثمان بن طلحة
بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي...^١

وللبحث صلة

١. انظر فتح مكة أو غزوة الفتح في البداية والنهاية لابن كثير: ٤ : ٣٣٣؛ وكنز العمال للمتقي
الهندي ١٠ : ٤٩٧ - ٥١٠؛ وتاريخ ابن خلدون ٢ : ٤٢ - ٤٣ .

الدور الثقافي للحجّ زمن سلاطين المماليك

٦٤٨هـ / ٩٢٣م

د. سليمان عبد الغني مالكي

ملخص البحث:

الحجُّ قديم بين الأمم، وهو من أقدم العبادات التي عرفتها الإنسانية، والغرض منه على كلّ حال أمر دينيٍّ محض، وإن كان الاجتماع فيه لا يخلو من الفوائد الدنيوية والمنافع الشاملة التي تزيد في رقي الأمة أدبياً ومادياً وثقافياً، وهو ركن الإسلام المجمع عليه منذ أن دعا إليه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأقام له أول بيت وضع للناس على أساس التوحيد لله سبحانه وتعالى، وكانت العرب تؤدي هذه الشعيرة فيما بين زمن إبراهيم وإسماعيل عليه السلام، ورسالة ابنهما من بعدهما خاتم النبيين والمرسلين صلى الله عليه وآله، وقد شكّل الحجُّ بتاريخه وأهميته على مرّ العصور عنصراً عظيماً من عناصر التاريخ الإسلامي. ونحدث في هذه المقالة عن الدور الثقافي للحجّ زمن سلاطين المماليك.

ومحدثنا التاريخ أنّ حجاج بيت الله الكريم في هذه الفترة أي زمن سلاطين المماليك كانوا يعانون ألواناً من المتاعب، ويتجشمون جميع أنواع المصاعب؛ من حيث سفرهم ومجيئهم من أفاصي الدنيا إلى البلاد المقدّسة في كلّ عام لحجّ بيت الله الحرام، وزيارة قبر سيد الأنام ﷺ، وهم تحت ظلال الشراع البدائية الضعيفة في البحر، وعلى ظهور الإبل الهزيلة في البرّ.^١

ويؤكّد تلك المتاعب كثير من المؤرخين، فابن بطوطة حين وصل إلى عيذاب،^٢

١. أفاد البتوني أنّ مصر كانت ملتقى المسلمين إلى حج بيت الله الكريم، فالأندلسي، والمغربي، ومسلمو البربر، فالسنغال، فبلاد التكرور، والسودان الغربي والشرقي إذا قصدوا السفر إلى الحج أخذوا طريقهم إلى مصر برّاً أو بحراً، وكذلك كان يقصدها كثير من أهل الشام، والترك، والقوقاز، وجزر البحر المتوسط، ويجمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسرون منها إلى قوص... ثم... عيذاب... إلى القصير على البحر الأحمر... وكانت هذه القرية على أيدي عرب البجاه أو البجه يسكنون صحراء مصر الشرقية من سواكن الذين كانوا يتولّون نقل الحجاج على إبلهم في صحراء عيذاب، وكانت أخلاقهم على غاية من الفظاظة لاشفقة عندهم ولارحمة، وربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع، وهو أنّ ركبها يموتون عطشاً، فيستولون على ما معهم من متاع... وكان الحجاج يقيمون في عيذاب نحو شهر من الزمان في انتظار الفلايك السفن الصغيرة التي تحملهم إلى جدّة... وهي غير محكمة الصنع، وشرعها في الغالب من الحصر، وكان أصحابها يتعسفون في معاملة الحجاج، فيشحنون المركب بأكثر من حمولته وكثيراً ما كانت تغرق في وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك الأشرار، ومن وصل إلى جدّة وصلها... بين تحكّم الملاح، وتبرّم الرياح، وانزعاج الماء، واضطراب الهواء، ولقد حجّ من هذا الطريق في سنة ٥٧٨هـ ابن جبير الأندلسي، فقطع المسافة بين القاهرة وجدّة في نحو شهرين ونصف قضاها في أسوأ حال بين مشقّات وأحوال ممّا هو مبيّن في رحلته، وفي سنة ٧٢٥هـ سافر ابن بطوطة من مصر إلى القصير، ولكنّه لم يجد فيها مركباً يحمله إلى جدّة مع من قصدها من الحجاج؛ لأنّ السفن أحرقت في واقعة... بين الترك وعرب البجاه... محمد ليبس البتوني: الرحلة الحجازية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: ١٠٥-١٠٧.

٢. عيذاب: مدينة على ساحل البحر الأحمر، بيوتها اختصاص، أهلها البجاة كانوا يستفيدون كثيراً من الحجاج والتجار، فكانوا يكرون للحجاج جلابهم مراكبهم... وكثيراً ما كانت تغرق بالحجاج؛

وهو في طريق حجّه سنة ٧٢٥هـ وحدث الحذر بن سلطان البجاء في معارك حامية مع الأتراك وقد حرق المراكب، لهذا قال ابن بطوطة: «فتعذر سفرنا في البحر، فبعنا ما كنّا أعددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين اكرتنا الجمال منهم إلى صعيد مصر»^١. والمصاعب التي عانى منها الحجاج في طريقهم إلى بيت الله الحرام، أو الأماكن المقدسة في تلك الفترة كثيرة ومتباينة ما بين طبيعة لا ترحم من عطش وحرّ وجذب إلى هجمات الأعراب والتجار عليهم في طرقهم براً وبحراً، فضلاً عن متاعبهم المحدقة بهم من حكام الحجاز وخاصة مكة وغيرها مما لا يتسع ذكره في عجالة هذا البحث، ومع كلّ هذه الأخطار التي أنزلها الزمان والإنسان على الحجاج لم يتوقف الحجّ، ولم يمنعهم عنه مانع مهما عظم شأنه، ولذلك لم يُسمع أنّ الحجاج انقطعوا في سنة من السنين عنه، لأنهم كانوا يفدون من شتى بقاع العالم الإسلامي، غير مبالين في سبيل تحقيق مقصدهم إلى بيت الله الكريم، وما إن تهل الكعبة أمام أبصارهم لأول وهلة حتى ينسى المسلم منهم جوعه، وينسى عريه، وينسى ظمأه، وكلّ أحبابه فيهتف مع عشرات ألوف الحناجر الهاتفة: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...).

فما أصغر الدنيا! وما أسرع ما تطوى بما فيها من متاعب وعقبات! فيبقى هناك أمر واحد، وشخص واحد فقط، إنسان في ثوب أبيض وبقلب أبيض... يطوف حول البيت الذي جعله الله مثابةً للناس وأمناً^٢.

لأنّها كانت غير دقيقة فضلاً عن كونها من خوص شجر الدوم وهي دانية في عمومها، فضلاً عن ذلك كانوا يحملونها أكثر من طاقتها حرصاً على المال غير مبالين بالحجاج، بل يقولون: «رد علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح»؛ ابن بطوطة رحلته المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، شرحه وكتب هوامشه، طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ٢، ١٤١٣هـ: ٧١، إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ٢: ٣٠٧.

١. ابن بطوطة، المصدر السابق: ٧٢٧١.

٢. علي بن حسين السليمان، العلاقات الحجازية المصرية، رسالة ماجستير في الأدب، جامعة القاهرة مطبوعة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م: ٧٦.

وذكر بعض المؤرخين في هذا الصدد قائلاً: ومن الغريب أن كل من يعثر بصره لأول وهلة على الكعبة تراه في دهشة كبيرة، لا لكون بصره وقع على شيء لم يتعود النظر إليه، ولكن لما يعتره من الخشية والرهبة!! فترى هؤلاء المشاهدين تأخذهم هزة كبيرة من هذا المنظر المهيب، ومنهم من يقف لحظة في مكان المتأدب المستكين المتصاغر أمام هذه العظمة الكبرى، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف، ولسانه يلهث بكلمات منفصلة عن بعضها، ومنهم من يجيش بالبكاء، فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته، وتنقطع معه أنفاسه...^١

هذه لمحة خاطفة من معاناة الحجاج في طريق ركبهم، والتي حدثت أكثر في بلاد الحجاز على مدار هذه الفترة سياسياً، وحيث تطلّب موضوع البحث الإيجاز يستطيع القارئ أن يتلمّسها وغيرها من المصادر، لاسيما كتب الحوليات التي تحكي حوادث السنين، لكنني أشرت إليها هنا في عجاله؛ لأنّ الدور الثقافي للحج خلال هذه الفترة لا بدّ أن يتأثر سلباً أو إيجاباً بالعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية هذا من ناحية، ورأيت أيضاً أنّه لا يمكن أن تكون الناحية الثقافية زمن المتاعب والمصاعب والفتن والحروب بمستوى حالتها في الزمن الذي يسود الأمن البلاد والعباد ويعمّ الجميع الطمأنينة وازدهار المعيشة، لكن مع كلّ ما حدث فلم ولن تتوقف عجلة المسيرة العلمية، ولا بدّ أن تسير قدماً إلى الأمام؛ لأنّ العلم دين، والله تعالى قد تكفل بحفظه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٢.

الحج منتدى العبادات وملتقى الثقافات :

الحجّ هو ركن الإسلام الخامس لمن استطاع إليه سبيلاً، وفريضته مؤكّدة من خلال آيات الله وسنة رسول الله ﷺ شريطة الاستطاعة البدنية والمالية، فمن لم يجد زاد

١. البتنوني، الرحلة الحجازية : ١٧٩.

٢. سورة الحجر : ٨.

أهله ونفقة حجّه فلا حجّ عليه؛ وفضلاً عن المشقات البدنية في أداء هذه الشعيرة، فهو أيضاً صوم عن النساء والفسوق والجدال، والصلاة بعد الطواف... وفريضة الحجّ كأبي فريضة لها أثرها البين في إصلاح القلوب، وتركية النفوس وتقوية الصلة بين العباد وربهم الأعلى من جهة، وتقوية الأواصر الأخوية بين المسلمين من جهة أخرى، ولا فرق في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهم أو فقيرهم ولغتهم أو ألوأنهم، ومنافع الحجّ كانت كثيرة حققت ما تقفوا إليه نفس المؤمن في دنياه، وكانت مهوى فؤاده في آخره، وما ذكرت ونكّرت وجمعت منافع في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾. ^١ إلاّ لعمومها التي وسعت كلّ منفعة تخصّ جموع المسلمين، والتي لا تخرج بطبيعة الحال عن كونها منافع سياسية، أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، وثمار هذه المنافع بلا شك كانت من وراء حكمة مشروعية الحجّ الذي كان بأيامه المعدودة، وأمكنته المحدودة بمثابة منتدى عامّ ضمّ المسلمين من شتى بلادهم وعلى اختلافهم، ليتدارسوا أحوالهم على مودة ووفاق، نابذين الفرقة والشقاق وكلّ السلبات التي تحول بينهم وبين متطلبات دينهم، ومدارستهم لأحوالهم كانت مثمرة وبناءة؛ لأنّه قد أظلمهم جميعاً موسم عظيم ذابت فيه الفوارق، وهم على لباس واحد تلبيةً للنداء الخالد في صعيد واحد، في وقت واحد، وجمع واحد، ودعاء وهتاف واحد هو: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك». دعاء لتلبية دعوة التوحيد في مكان هيأه الله لإبراهيم عليه السلام وحدد له معالمه، ونهاه عن الشرك المنافي لتوحيد ألوهيته تعالى، ثمّ أمره تعالى بتطهيره من سائر النجاسات حتى يتخطّى الطائفون به، والعاكفون فيه، والركع السجود شطره بإخلاص الدين كلّه لله وحده لا شريك له، ومع هذا اللقاء الروحاني الذي يشبه لقاء الله تعالى حيث يحشر الناس إلى

١. قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. سورة الحج: ٢٧-٢٨.

رَبِّهِمْ حِفَاةَ عِرَاةٍ لَمْ يَنْسَ رِوَادَ الْحَجِّ مَعَارِفَهُمْ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَجَّ وَيَنْشَطُ إِلَيْهِ رَغْبَةً فِي طَلْبِ الْعِلْمِ عَلَى يَدِ عَالَمٍ مَشْهُورٍ، انْتَشَرَ صَيْتُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَجَرَى ذِكْرُهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، وَسُمِعَ بِقُدُومِهِ الْحَجَّ فِي سَنَةِ مِنَ السَّنِينَ. وَهَذِهِ الرِّغْبَةُ كَانَتْ مَتَوَفَّرَةً مِنَ الْقَدِيمِ وَعَبْرَ السَّنِينَ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ طُلَّابِ الْعِلْمِ النَّجْبَاءِ الَّذِينَ تَعَوَّدُوا الْأَسْفَارَ حُبًّا فِي الْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِمْ، وَتَحْصِيلِ مَعَارِفِهِمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَهَؤُلَاءِ كَانُوا كَثْرَةَ قَدَرُوا الْعِلْمَ فِي أَهْلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ، فَأَحْبَبُوهُ وَأَحْبَبُوا طَلْبَهُ مِنْ مَشَاهِيرِهِ النَّابِغِينَ فِي شَتَّى عُلُومِهِمْ تَدْرِيسًا وَتَحْدِيثًا،^١ وَتَصْنِيفًا.

وَلَيْسَ أَدَلُّ عَلَى حِرْصِ رِوَادِ الْعِلْمِ مِنْ أَنَّ بَعْضَهُمْ إِذَا فَقَدَ كِتَابًا وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْوَصُولَ إِلَيْهِ، أَوْ الْحَصُولَ عَلَيْهِ نَادَى يَوْمَ الْحَجِّ عَلَيْهِ فَيُخْبِرُهُ مِنْ عِلْمٍ بِهِ.^٢

وَمَنَافِعُ الْحَجِّ كَثِيرَةٌ وَمَشْهُورَةٌ، وَحَدِيثِيٌّ عَنْ بَعْضِهَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَتَحَدِّثُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْعِجَالَةِ، وَهِيَ دُورُ الْحَجِّ الثَّقَافِيِّ فِي زَمَنِ الْمَمَالِكِ مِنْ خِلَالِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فِي أَمْكِنَةِ مَشَاعِرِهِ الْمَشْهُورَةِ، وَأَزْمَنَةِ شُهُورِهِ الْمَعْلُومَةِ، وَهَذَا الْإِلْتِقَاءُ كَانَ فُرْصَةً فِي جَمْعِ تَزَامُنٍ فِي مَكَانٍ قَدْ لَا يَتَوَفَّرُ لِبَعْضِهِمُ الْاجْتِمَاعُ بِبَعْضِ فِي غَيْرِهِ،^٣ وَفَضْلًا عَنِ اجْتِمَاعِهِمْ

١. كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدِيمًا سَفِيَانُ بْنُ عَيْنِيَةَ الْإِمَامَ الْحِجَّةَ، قَالَ عَنْهُ الشَّافِعِيُّ: لَوْلَا مَالِكٌ وَسَفِيَانٌ لَذَهَبَ عِلْمُ أَهْلِ الْحِجَازِ. وَمِنْ ألقَابِهِ: مُحَدِّثُ الْحَرَمِ، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ، وَأَحَدُ الْأَثْمَةِ، قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ: كَانَ خَلَقَ يَحْجُونَ وَالبَاعَثُ لَهُمْ لَقِي ابْنَ عَيْنِيَةَ، فَيَزِدُّهُمْ عَلَيْهِ أَيَّامَ الْحَجِّ. الذَّهَبِيُّ، تَذَكْرَةُ الْخِطَابِ: ٢٦٢؛ وَمَا بَعْدَهَا بِرَقْمِ ٢٤٩؛ الْعَقْدُ الثَّمِينِ، ٤: ٥٩١ بِرَقْمِ ١٣١١؛ وَكَانَ مِنْهُمْ أَيْضًا مُحَدِّثُ الْمَدِينَةِ وَعَالِمُهَا نَزِيلُ مَكَّةَ يَعْقُوبُ بْنُ حَمِيدِ بْنِ كَاسِبِ. الذَّهَبِيُّ، تَذَكْرَةُ الْخِطَابِ، ٢: ٤٦٦ بِرَقْمِ ٤٧٧؛ وَمِنْهُمْ أَيْضًا مُحَدِّثُ الْجَزِيرَةِ أَحْمَدُ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ وَاقِدٍ، نَفْسُ الْمَصْدَرِ: ٤٦٣ بِرَقْمِ ٤٧٤؛ وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ قَبْلَ هَذِهِ الْفِتْرَةِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الرُّوحَ هِيَ السَّائِدَةُ فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ حَيْثُ رَغْبَةُ رِوَادِ الْعِلْمِ فِي تَحْصِيلِ مَعَارِفِهِمْ عَلَى مَشَاهِيرِ عُلَمَائِهِمْ أَيَّامَ مَوَاسِمِ الْحَجِّ.

٢. بِلَادِ الْحِجَازِ: ٢١٩.

٣. مَا سَقَنَاهُ مُسْتَفَادٌ مِنْ تَرَاجِمِ عُلَمَاءِ تِلْكَ الْفِتْرَةِ. رَاجِعِ الْفَاسِي، الْعَقْدُ الثَّمِينِ ١: ٣٥٦؛ الْجَزْرِيُّ،

غَايَةُ النِّهَايَةِ فِي طَبَقَاتِ الْقُرَّاءِ ١، عَنَى بِنَشْرِهِ، بِرَاجِسْتِ أُسْرٍ، بِيْرُوتَ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، ط ٢،

على رباط الدين الذي وحدهم وجمع شملهم، وعلمهم نبذ الفرقة، وإحلال المودة والرحمة بين صفوفهم، فقد تبادل كل منهم مع الآخر شتى معارفه من علوم أو فنون، وإخلاصهم في تبادلهم لمعارفهم قد حوّل من أوساطهم المستفيد إلى مفيد، والعلوم المتداولة آنذاك كانت العلوم الدينية والعلوم العربية المساعدة في بيان معناها، أمّا ما عداها من علوم عقلية فقد كانت نادرة في دراستها وقلّ المشتغلون بها في مواسم الحج وغيره، وقليلاً ما يذكر المؤرخون أنّ عالماً درس الشعر، أو المنطق والفلسفة بخلاف ما عداها من علوم اشتهرت، وألّف المؤرخون تكرارها في كلّ ترجمة لعالم^١.

ومّا يجب أن نلفت النظر إليه أنّ مدارس هذه المواد، سواء أكانت بالحرمين، أم أمكنة المشاعر، أم الأربطة، والمدارس المجاورة للحرمين، كانت في حلقات علمية حامية ومناظرات حادة كانت تدور بين علماء أفذاذ يشهد لهم في عصرهم أقرانهم بالعلم والمعرفة، وإثّهم مسجلون في مصنّفات بعضهم، وهؤلاء كانوا يبحثون في هذه الأمور، أو تلك المسائل التي تخصّ العقيدة، وكثيراً ما كان يدور حولها الجدل، وعلى الرغم جدّة النقاش وطوله وشدة احتدامه إلاّ أنّهم كانوا يخرجون منه على وفاق لا شقاق، اعتصاماً بحبل الله المتين وسنة نبيّه الكريم صلوات الله وسلامه عليه^٢.

وكان تفاعل العلماء في حلقاتهم العلمية خلال مواسم الحجّ مستمراً وليس بجديد على هذه الفترة، بل كان قديماً منذ أن كان النبي ﷺ فيها معلّماً. وذكر في هذا الصدد ابن جبير في رحلته قائلاً: وكان لهذا القاضي جمال الدين^٣، وعموماً فقد كانت لهذا

١٤٠٠هـ، ٥٩٧، وقد ذكر فيهما عمر بن محمد بن عليّ السراج الدمنهوري (ت ٥٩٧هـ)،

ونشاطه كان ملحوظاً في قراءته القرآن بالحرمين، وأفاد الطلبة وكثيراً من رواد العلم، وعلماء آخرين في الفترة نفسها، العقد الثمين ٣: ٢٠٩؛ السخاوي، الضوء اللامع ١: ٣٥.

١. ابن خلدون، المقدمة: ٤٨٨ ٤٨٤؛ شذرات الذهب ٥: ٣٤٣؛ العلاقات الحجازية: ٢٢٣ ٢٢٤.

٢. ابن خلدون، المقدمة: ٤٩٧ ٤٩٨.

٣. لم يستدل على معرفته في المصادر المتداولة.

القاضي مواعظه الأكثر شمولاً، فضلاً عن دقته في فتواه، وحكمته في استنباط الأحكام الشرعية ودرء الخلاف الذي قد يقع بين جموع الحجيج، ويضيع عليهم حجّهم، وقد قام هذا القاضي في فتواه بما أَرْضَى الجميع. ونلاحظ هذا الموقف من خلال ما رواه ابن جبير عن هذا القاضي في قوله: يا للعجب! لو أن أحدهم يشهد برؤية الشمس تحت ظلال الغيم الكثيف النسج لما قبلته، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين؟! وقد أفاض ابن جبير أكثر في توضيح عظاته وما نصت عليه الشريعة من خلال ما ذكره أئمة المسلمين، وقد أحاط ذلك بزواجه لمن شهدوا شهادات باطلة في رؤية هلال ذي الحجّة، وأفاد أن هدف من شهدوا هذه الشهادة هو حرصهم على أن تكون وقفة عرفات يوم الجمعة، وبعد أن ردّهم وجرّح شهاداتهم، وفضح ما ذهبوا إليه حسم الخلاف من خلال ما أخبر به ابن جبير حين قال: الصعود إلى عرفة صبيحة يوم الجمعة، فيقفون عشية بها، ثم يقفون صبيحة يوم السبت بعده، ويقفون ليلة الأحد بمزدلفة، فإن كانت الوقفة يوم الجمعة، فما عليهم في تأخير المبيت بمزدلفة بأس، فهو جائز عند أئمة المسلمين، وإن كان يوم السبت فيها ونعمت، أمّا أن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغريّر بالمسلمين، وإفساد لمناسكهم؛ لأنّ الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة، كما أنّها عندهم جائزة يوم النحر، فشكر جميع من حضر للقاضي هذا المترع من التحقيق، ودعوا له... وانصرفوا عن سلام^١.

ومن ذاع صيته شهرة في مواسم الحج: بشير بن حامد التبريزي البغدادي الشافعي، ومن خلال ألقابه العلمية نعلم مدى فاعليته في مواسم الحجّ تعليمياً وتعلّماً، وتدريساً وتحديثاً وتصنيفاً، وإفتاءً. لُقّب بشيخ الحرمين، وشغل منصب الفتوى فيهما. من مصنفاته: الغيان في تفسير القرآن، ومناقبه جمّة، قال عنه الساعي^٢: سافر في طلب

١. ابن جبير، رحلته، طبعة بيروت، ١٣٩٩ هـ: ١٤٧١٤٦.

٢. الساعي هو: تاج الدين علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله البغدادي السلامي، خازن مكتبة المستنصر العباسي، (ت ٦٧٤)، فاق أقرانه حفظاً، تصانيفه كثيرة منها: مشيخة بالسماح والإجازة

العلم، وسماع الحديث، وصدع بالدعوة في موسم الحجّ، فأكرم القصاص، وأنهل الورد،
 وجاد وزاد، وأبدأ وأعاد، وتخرج به الفضلاء، وسمعوا منه.^١
 وهؤلاء وغيرهم قد برعوا في سائر العلوم الدينية والعربية وبرعوا في فنونها، وكثيراً
 ما فضلوا حشوها في مصنف واحد، وسوف نبسط نماذج لبعضهم لنرى كيف تألق
 الحجّ لهم ثقافة وازدهاراً.

الدور الثقافي على طريق ركب الحاج :

لقد ازدهرت الحركة الثقافية على طريق ركب الحاج ومنازله، وازدادت معارفها
 من خلال مشاعل نورها من العلماء والخطباء والوعاظ الذين تفاعلوا بمعارفهم
 وشتمّ فنونهم على طرق الحجّاج ومحطات نزولهم، وأعداد من ساهموا على دروب
 الحجّاج بمعارفهم مفيدتين ومستفيدين كثيرة لا تتسع لضخامة أنشطتهم هذه
 الصفحات الوجيزة، لهذا اخترت من كتب حوادث السنين بعضاً منهم مكتفياً
 بإشارة خاطفة إلى بعض أنشطتهم، ويطالعنا في هذا المقام القاضي بدر الدين محمد
 بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الذي حجّ عن طريق البحر مع والده
 لعدم تيسر الحجّ في البرّ في عام ٦٥٦هـ، وذكر ابن فهد وغيره ذلك بل زاد في ذلك
 قائلاً: وحضر وفاة الشيخ أبي الحسن الشاذلي،^٢ بحميترا من صحراء عيذاب، وصلّى

في عشرة مجلّدات، كان قارئاً بالسبع مؤرخاً، له مصنفاته في التفسير والحديث والفقه، وله تاريخ
 اسمه الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ويقع في ستة وعشرين مجلّداً، ولم يصل
 منه سوى المجلد التاسع الذي أرخ فيه من سنة ٥٩٥هـ إلى سنة ٦٠٦هـ، قام بنشره د. مصطفى
 جواد ١٣٥٣هـ. انظر الفاسي، العقد الثمين ٣ : ٣٧١ ٣٤٣ ٣٤٤ .

١. العقد الثمين ٣ : ٣٧١ ٣٧٥ برقم ٨٥٠ ؛ السخاوي، التحفة اللطيفة ١ : ٢٢١٥ .

٢. هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف الشاذلي (ت ٦٥٦هـ)، المقرئ، السلوك
 ح ١، ق ٢، ٤١٤ ؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة ٩ : ٦٨ ٦٩ ؛ شذرات الذهب ٥ : ٢٧٨ ؛
 إتخاف الوري ٣ : ٨٠ .

عليه البدر بن جماعة.^١

وقد تكرررت حجّات القاضي بدر الدين بن جماعة كثيراً،^٢ ففي سنة ٦٦١ هـ حجّ أيضاً مع والده عن طريق البحر،^٣ وحجته الثالثة كانت، في صحبة الركب من دمشق سنة ٦٨٣ هـ، وبعدها كانت حجّته مع ابنه عزّ الدين،^٤ مع ركب الحجاج من القاهرة سنة ٧١٠ هـ، وفي سنة ٧٣٤ هـ قدم ابن جماعة مكة مع أهله مجاوراً بها، ومصنفاته وضخامة أنشطته العلمية، واشتغاله بعلم الحديث أفادت خلقاً كثيراً من الوافدين وأهالي مكة، والمدينة، ومصر وغيرها، وعلى نسقه كان ابنه عزّ الدين أيضاً في سيرته الحسنة، أثناء قضائه الذي لم يخش فيه سلطاناً، أفاد الفاسي بولايته للقضاء في حياة شيوخه في ٨ من جمادى الآخرة سنة ٧٨٨ هـ، واستمر حتى عُزل بآخر، ثم أعيد، ثم أعرض عن ذلك؛ يقول الفاسي: ثم أنقلوا عليه بالعود، بحيث أن يبلغا،^٥ مدير الدولة بالقاهرة حضر منزلة وبالغ في سؤاله بالعود، فأبى وصمّم على المنع، فسئل في تعيين قاض عوضاً عنه، فقال: لا أتقلد. مسموعاته كثيرة على مشاهير العلماء وحفاظهم من مصر ونبلس ودمشق، ومكة، والمدينة، وشيوخه بالسماح والإجازة يزيدون على ألف وثلاثمائة شيخ أفتى ودرس، وصنّف، وأثرى الحياة الثقافية بين أوساط الحجيج على دروبهم، وأمكنة مشاعرهم، وله وقع في النفوس. معظماً عند الخاصة والعامة بحيث بلغ من أمره أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أغدق الولايات في الممالك

١. ترجمته في ابن كثير، النهاية ١٤: ١٦٣؛ النجوم الزاهرة ٩: ٢٩٨.

٢. هو قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الحموي الشافعي (ت ٧٣٣ هـ)، والصفدي: الوافي بالوفيات ٥: ١٨ برقم ٢٦٨.

٣. من خلال ترجمته ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة ٣: ٣٦١ برقم ٣٢٦٦ أنه حجّ مراراً.

٤. هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة قاضي قضاة الديار المصرية، وفاته بمكة سنة ٧٦٧ هـ ودفن بالمعلاة بجوار الفضيل بن عياض. العقد الثمين ٥: ٤٥٧ ٤٥٨ برقم ١٨٣٢؛ وذكره ابن العماد بأنه كان كثير الحجّ والمجاورة.

٥. ذكر في شذرات الذهب ٦: ٢٠٩.

بمن يُعَيَّنُهُ وهو مع ذلك مُطَّرَح الجانب. ^١ وتشير كتب الحوليات إلى حجّ الخليفة المعتضد بالله أبي بكر سنة ٧٥٤هـ، وقد اصطحب كثيراً من العلماء منهم قاضي القضاة عزّ الدين بن جماعة السابق الذكر، والشيخ شهاب الدين بن عقيل وغيرهما، إضافة إلى جمع كبير من الأمراء، وهؤلاء أيضاً كانت عليهم مدار الفتوى في أوساط الحجيج، وقد وسعت معارفهم الخليفة والمخلوف وعظماً، وتوجيهاً، وإفتاءً، وتحديثاً وتدريساً على طرق سيرهم وأمكنة مشاعرهم. ^٢

وقد رافق الإمام النووي الحجاج على طريقهم سنة ٦٥١هـ، ومعه والده، وقد شارك كغيره في بثّ معارفه وعظماً وتحديثاً وإفتاءً بين جموع الحجيج. وقال عنه ابن كثير: كبير فقهاء زمانه، حجّ .. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم. توفي ليلة أربع وعشرين من رجب سنة ستمائة وسبع وستين. ^٣ وقد حجّ السلطان الملك الظاهر بيبرس واصطحب معه عدداً من العلماء والأمراء، وكان من العلماء قاضي القضاة صدر الدين سليمان، وفخر الدين بن لقمان، وتاج الدين بن الأثير وغيرهم... وهؤلاء كانوا قدوةً للحجاج على طريقهم إرشاداً وتوجيهاً وإفتاءً. يقول ابن فهد: ... والسلطان طول طريقه يستفتي قاضي القضاة صدر الدين وينفعه، ^٤ في أمر دينه. وقد حجّ الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٩هـ

١. الفاسي، المصدر نفسه ٥ : ٤٥٨ .

٢. المقرزي، السلوك ٢ : ٩٠٣، ق ٣؛ ابن فهد، إتحاف الوري ٢ : ٢٩١ .

٣. ابن كثير، البداية والنهاية ١٣ : ٢٧٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٩ : ٢٧٨؛ ابن فهد، إتحاف الوري ٣ : ٧٤، وذكر ابن كثير في مصدره هذا بأنه يحيى بن شرف بن حسن بن حسين بن جمعة بن حزام الحازمي العالم محي الدين أبو زكريا النووي، ثمّ الدمشقي الشافعي العلامة شيخ المذهب وكبير الفقهاء في زمانه. من مصنفاته شرح مسلم، الروضة، المنهاج، الرياض، الأذكار، التبيان، تهذيب الأسماء واللغات، طبقات الفقهاء، وغيرها .

٤. البداية والنهاية ١٣ : ٢٥٤-٢٥٥؛ شفاء الغرام ٢ : ٢٤٠؛ السلوك ١ : ٥٨٠-٥٨٢؛ إتحاف الوري ٣ :

٩٨ ٩٤ حوادث سنة ٦٦٧هـ .

واصطحب معه المؤيد صاحب حماه،^١ وعدداً كبيراً من الأمراء وجماعة من أهله وأعيان دولته، وأشهر العلماء منهم قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين اللذان سبق الحديث عنهما، ولم يمل هؤلاء عن بثّ علومهم وعظاً ونصحاً وإرشاداً وانعكست معارفهم على الحجّ ثقافةً وازدهاراً. وعن هذا السلطان قال ابن فهد: وحسن له بدر الدين بن جماعة أن يطوف ركباً كما فعل النبي ﷺ، فقال له: ومن أنا حتى أتشبه بالنبي ﷺ...^٢

وقد أفاد ابن فهد أنه في عام ٨٢٨ هـ قدم الشيخ نجم الدين الواسطي مفتي العراق صحبة الركب الشامي، وكان كغيره من علماء الركب، كشمس الدين البرماوي،^٣ لا يملون عن التذكير بمناسك الحجّ، وأركانها، وأهمّ واجباتها، ومحظوراتها، وظلّوا على ذلك في مكة، ثمّ بعد الحجّ كان مجاوراً في رحابها.^٤

هذا ولم يخل ركب الحجّاج من العلماء في سنة من السنين في هذه الفترة أو غيرها، قلة كانوا أو كثرة، ولا أدل على ذلك من كثرة الفقهاء الذين خرجوا من غيانه،^٥ وانضمّوا إلى نظرائهم من سائر الحجّاج، واصطحبهم في موسم حجّهم أبو العتيق أبو بكر بن الشيخ يحيى الغياني، وكانوا ثلاثمائة فقيه،^٦ يسايرونه بين أوساط الحجّيج في

١. هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن الأفضل بن المظفر محمود بن المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٧٣٢ هـ في الثامن عشر من المحرم)، وقد وصف بالفضل والبراعة في عدة علوم، وله كتاب المختصر في أخبار البشر، وهو من كتب التاريخ المعتمدة، (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٩: ٢٩٢٢٩٣).

٢. السلوك ١: ١٩٧ ق ١؛ النجوم الزاهرة ٩: ٥٨؛ إتحاف الوري ٣: ١٦٤-١٦٥.

٣. هو محمد بن عبد الدايم بن موسى بن عبد الدايم البرماوي (ت ٨٣١ هـ)؛ الضوء اللامع ٧: ٢٨٠ برقم ٢٧٥.

٤. إتحاف الوري ٣: ٦٢٥.

٥. غيانه: حصن بالأندلس من أعمال شنتريه، وينسب إليها هذا الشيخ، معجم البلدان ٤: ٢٢١.

٦. إتحاف الوري ٢: ٥٥٢.

ذهابهم وإيابهم، وعلى محطات طرقهم وأمكنة مشاعرهم فكانوا مشاعل نور وهداية، وفضلاً عمّن ذكرنا كان هناك العلماء الأدباء كُتّاب الرحلات الذين طوفوا ببلاد المشرق والمغرب رغبة في التعرّف على البلاد والعباد، وأقاموا بمصر فترة طويلة حتى ذهابهم مع ركب الحاجّ وعودة بعضهم معه، كابن جبير في حجّ عام ٥٧٩هـ عن طريق عيذاب، وابن رشيد الذي حجّ عن طريق الركب الشامي بعد زيارته لمصر سنة ٦٨٤هـ، وعاد عن طريق الساحل ماراً بالعقبة في العام الذي يعدّه كما هو مبين في رحلته^١.

وعلى نهج من سبق كان أبو القاسم بن يوسف التجيبي الذي حجّ من مصر عن طريق عيذاب سنة ٦٩٦هـ، وابن بطوطة الذي قصد الحجّ من بلده ومرّ على مصر سنة ٧٢٥هـ، وأراد الحجّ عن طريق البحر، ولم يتيسر له فعاد إلى القاهرة ومنها إلى الركب الشامي^٢.

وهؤلاء تجلّت أنشطتهم أكثر من غيرهم، فسجلوا مرآئهم عن معالم حضارة المدن، أو البلاد التي مرّوا بها، فكتبوا عن العمران، وتقصوا أحوال كلّ بلد، وعاداته، وأحواله، وتناولت أقلامهم الصغير والكبير، والأمير والوزير، واتصلوا بالسلطين والأمرء، ولم يتركوا شاردة أو واردة إلا سجّلوها ضمن مؤلفاتهم المسماة بأسمائهم، وهي التي أصبحت تراثاً إسلامياً مجيداً شاهداً على ضخامة أعمالهم، ولا شك أنّهم مع غيرهم - خلال هذه الفترة - قد أفادوا خلقاً كثيراً واستفادوا أيضاً من ثقافة هذه الدروب، ورغم قسوتها وامتدادها، وغلظة وجفوة الأعراب المحيطين بها، وعلى

١. حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج: ١٩، مجلة العرب، العدد الأول، السنة الرابعة، رجب ١٣٨٩هـ: ٩٠، وفيها ما يتعلق بمكة من رحلته المسماة (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة).

٢. راجع رحلته دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ: ٤٩-٥٠، وفيها سبب رجوعه وتحوّله إلى طريق الركب الشامي.

منازلها، إلا أنّها كانت كجامعة طرق أبوابها العلماء والطلاب والتقوا في رحابها، فساهمت في تعميق ثقافة هؤلاء وأولئك وتراثهم الخالد أمامنا، نستمد منه المادة العلمية التي بنى عليها مختلف دراستنا دينية أو أدبية أو تاريخية، أو جغرافية، خير شاهد على صدق نفعهم، وجيل قدرهم في هذا الصدد، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ازدهار الثقافة أيام الحجّ :

تزهو الثقافة في موسم حجّ كلّ عام من خلال مشاهير روّادها من العلماء الأجلاء وطلاب العلم النجباء الذين قدروا العلم حق قدره، فأحبّوه وأحبّوا سماعه على أئمتهم المشهورين بنبوغهم، وعلوّ قدرهم، وسعة علومهم، وكثرة معارفهم. وهؤلاء كانوا مشهورين، وشهرتهم مدركة من خلال إشارات المؤرخين عنهم كقولهم: تردد حاجّاً إلى مكة مرات،^١ أو: حجّ وجاور بمكة سنين طويلة،^٢ أو ذبوع صيته في كلّ البلاد لكثرة حجّه ونشر معارفه على سامعيه بأسلوب ميسر شامل خال من التعقيد، فيه إثارة لانتباههم، باعث على الرغبة في طلبهم العلم عليه، أو غيره، وكانوا هداة مهتدين في إثراء الثقافة أيام الحجّ، وألسنة ناطقة من فوق منابرها يبثون معارفها، ويذيعون أخبارها لا في مواسم الحجّ فحسب، ولكن على مدار العام وفي كلّ مكان. ومن أبرز ما يميزهم كثرة أنشطتهم العلمية مسموعة، أو مقروءة، أو مكتوبة ولذلك كانت حلقاتهم العلمية مزدحمة أكثر بروّادها أيام الحجّ، أضف إلى ذلك أنّ ذكرهم كان عالقاً بأذهان روّادهم النابهين، وفضلاً عن ذلك كثرة مصنفااتهم التي شملت، أو ضمّت كلّ منها في جنباته أكثر من تخصص، أو فن، وكلّ ذلك مستفاد من خلال تراجمهم التي أظهرت شهرتهم، ونوعيتهم، وتنوع معارفهم، ومستوى

١. العقد الثمين ٣: ٧٨ برقم ٥٨٣ من ترجمة الشيخ شهاب الدين النووي .

٢. الضوء اللامع ٥: ١٨ من ترجمة عبد الله بن خليل بن فرج الشافعي (ت ٨٣٣هـ).

أنشطتهم بالنسبة للدارسين في حلقاتهم، فالطالب آنذاك قد يكون قارئاً، أو سامعاً على شيخ، مقرئاً ومسمعاً لشيخ آخر في منتدى الحج العام، أو في علم آخر فاق شيخه فيه.

وحتى نبرز تألق الثقافة أيام الحج لا بد أن نذكر عدداً قليلاً يتناسب وحجم هذا البحث من روادها الذين شاركوا في إثرائها، ووضعوا لبنة في صرح شموخها، ومن لم نذكرهم لا يقلون شأناً عنهم، بل قد يفوق بعضهم في إثراء هذه الثقافة البعض ممن ذكرنا، وهؤلاء وأولئك كان لهم دورهم في نمو ثقافة الحج أيام مواسمه. يمرّ بالخاطر منهم العالم الجليل مقرئ ومحدث لكم: عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله بن عبد الأحد المخزومي المصري،^١ المكنى بأبي محمد، والملقب بعفيف الدين الدلاصي،^٢ مسموعاته كثيرة، وإسماعاته أكثر، تلا بالروايات بعشرين كتاباً على الكمال، إبراهيم بن أحمد التميمي في سنة ٦٦٤ هـ بدمشق، ومسموعاته على مشاهير علماء مكة التي جاورها جُل عمره والتي تزيد على ستين سنة، فيها بثّ معارفه إقراءً، وتحديثاً بدون أجر، تفقه أولاً بهالك، ثم بالشافعي، ظلّ في سنواته بمكة وهو في نشاط علمي ملحوظ، فلم يُر إلا وهو في مجلس علم، أو طواف، أو عبادة، ولا سيما مواسم الحج، واستفاد من فيض معارفه إقراءً وتحديثاً وتفقيهاً خلق كثير من الوافدين، والمجاورين وكان بينهم ابنه محمد، الذي تصدّر بعد والده الإقراء بالحرم، وانتشرت معارفه بين الوافدين إلى بيت الله الكريم، وامتدت حلقاته العلمية من الحرم الشريف إلى الأربطة في مواسم الحج إلى أمكنة المشاعر، وسمع منه المشاهير، كالحافظ البرزالي الذي ذكره في تاريخه: وذكر أنه اجتمع به في عرفة وسمع بقراءاته... وفاته في مستهل صفر بمكة

١. العقد الثمين ٥: ١٩٦-١٩٩ برقم ١٥٦؛ التحفة اللطيفة ٢: ٤٩-٥٠ برقم ٢٠٢٨، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤١٤ هـ.

٢. الدلاصي منسوب إلى الدلاص: وهي بفتح أوله وثانيه بكورة بصعيد مصر غرب النيل، معجم البلدان ٢: ٤٥٩.

سنة ٧٢٣هـ - ١.

وظهر الدور الثقافي للحجّ متألقاً حين انضم إليه شعلة من مشاعل نوره في موسم عام ٦٥١هـ، يقول فيها ابن فهد: فيها حجّ الشيخ مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني،^٢ وزوجته أمّ البدر: بدرة بنت عمّه الخطيب فخر الدين أبي عبد الله محمد بن الخضر بن محمد بن تيمية، وحدثا في ليلة الأربعاء رابع عشر ذي الحجة بفوائد ابن ماسي،^٤ من آخر جزء الأنصاري،^٥ ورباعيات الغيلانيات،^٦ ورباعيات حمزة الأنصاري، وقرئ على مجد الدين وحده مشيخة أبي البدر الكرخي،^٧ وكان ذلك بحضور الإمام شمس الدين بن سيبويه المحدث.

وكان بمكة هذه السنة جمال الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي محمد بن إلياس بن عبد الرحمن بن علي بن أحمد الأنصاري الدمشقي، وحدث بها في ثاني شوال من السنة

١. العقد الثمين ٥: ٦٤-٦٥ برقم ١٥٦؛ إتحاف الوري ٣: ١٧٧.

٢. الحراني نسبة إلى حرّان: وهي مدينة مشهورة من جزيرة أقور، وتقع على طريق الموصل والشام، وسميت بهاران أخى إبراهيم عليه السلام، لأنّه أول من بناها، فعربت إلى حرّان بتشديد الراء. وقيل: إنّها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان. قال المفسرون: إنّها المرادة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، ياقوت، معجم البلدان ٢: ٣٢٥-٣٢٦.

٣. عن ابن تيمية انظر بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، الذيل على طبقات الحنابلة، بيروت، دار المعرفة، ٢: ٢٤٦ برقم ٣٥٩، الذهبي، العبر في خبر من غبره ٥: ٢١٢، عن زوجته بدره؛ المنذري، التكملة لوفيات النقلة ٣: ١٣٨ برقم ٢٠١٧؛ شذرات الذهب ٥: ١٠٢.

٤. وتسمى فوائد البزار في الحديث، لعبد الله بن إبراهيم بن أيوب بن ماسي؛ كشف الظنون ٢: ١٢٩٦.

٥. لمحمد بن عبد الله الأنصاري، أو لأبي محمد عبد الباقي الأنصاري، كشف الظنون ١: ٥٨٦.

٦. الغيلانيات، فوائد حديثية من رواية أبي طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار (ت ٤٤٠هـ)؛ كشف الظنون ١: ٥٨٨؛ الوافي بالوفيات ١: ١١٩ برقم ٢٧.

٧. هو أبو البدر عباد بن الوليد بن خالد الغبري الكرخي نسبة إلى كرخ سامراء، وفاته سنة ٢٥٨هـ؛ إتحاف الوري ٣: ٧٣.

بالجزء الأول من فوائد الجصاص، والسادس من فوائد أبي زرعة محمد،^١ وأبي بكر أحمد ابني عبد الله بن أبي دجانة، والأول من فوائد أبي مسلم الكاتب انتقاء ابن فورك.^٢ كان من هؤلاء أيضاً محمد بن محمد أبو القاسم النويري القاهري، وقد أثرى المكتبة الإسلامية بمصنفات كثيرة أهمها: الغياث في القراءات الثلاثة الزائدة على السبعة منظومة، وشرح القصيدة وحجّ، وجاور بمكة، وأثرى الحياة العلمية بها، وتوفي سنة ٨٥٧هـ.^٣

وكان لمنصور بن الحسن بن علي القرشي الكازروني دور بارز أيضاً في نشر معارفه من خلال تفسيره للقران الكريم، وضخامة أنشطته العلمية تدلّ على تفاعله، وحسن درايته وجزارة علمه على بثّ معارفه بين رواد العلم في هذه المواسم، وأهمّ مصنفاته: لطائف الألفاظ في تحقيق التفسير ونقد الكشاف، وفاته سنة ٨٦٠هـ.^٤

ولا يفوتنا في هذه العجالة أن نوضّح جهود الفقهاء والأصوليين في هذه الحقبة الزمنية، والذين كان من أشهرهم: المحب أبو السعادات بن ظهيرة (ت ٨٥٤هـ)، ومن أشهر مؤلفاته تنوير الدياتير بمعرفة أحكام المحاجير، والإعلام بما يتعلق بأحكام الختانيين من الأحكام، وكلاهما من تأليفه، أيضاً كان منهم: علي بن محمد بن إسماعيل البيضاوي (ت ٨٨٥هـ).^٥

وقد تألّق في هذه المواسم بمختلف أنشطته العلمية: أبو العباس أحمد بن عبد

١. هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن أبي دجانة عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري، وفاته قبل سنة ٣٦٠هـ؛ تذكرة الحفاظ ٣: ١٠٠١.

٢. ابن فورك، هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك الإصبهاني؛ الوافي بالوفيات ٨: ٢١٠ برقم ٣٦٣٤؛ شذرات الذهب ٣: ١٩.

٣. السخاوي، الضوء اللامع ٩: ٣١.

٤. السخاوي، المصدر نفسه ١٠: ١٧٠؛ شذرات الذهب ٧: ٢٩٧.

٥. السخاوي، المصدر نفسه ١٠: ٤٨.

القادر بن أحمد بن محمد بن عبد المعطي الخزرجي الأنصاري (ت ٨٦٨هـ) وقد جاور بمكة وأقرأ بها: المختصر الفرعي لابن الحاجب، ومكث بمكة ما يقرب من عام، وهو لا يمل من التذكير، ونشر معارفه بين رواد العلم في كل مكان.^١

وساهم أيضاً من الفقهاء عمر بن عبد الله السراج الهندي الفافا (ت ٨١٥هـ) وقد جاور بمكة ما يقرب من أربعين عاماً، أفاد في أثنائها كثيراً من طلاب العلم، وأطلق عليه الفافا؛ لأنه كان كثير النطق بالفاء،^٢

ومنهم أيضاً محمد بن أحمد بن سعيد المقدسي، ثم الحلبي، نزيل مكة وقاضي الحنابلة بها، ألف، ودرّس، وصنّف، ومن جملة تصانيفه: الشافي في الكافي في الفقه، وكشف الغمة لتيسير الخُلع لهذه الأمة ونحو ذلك من سائر مصنفاته (ت ٨٥٥هـ).^٣

ومن رواد هذه الثقافة أيام الحجّ أيضاً الشيخ بهاء الدين السبكي،^٤ الذي قدم صحبة الحاج، وجاور بمكة بعد حجّه عام ٧٧٢هـ، مسموعاته على مشاهير العلماء بالقاهرة، ودمشق فضلاً عن أبيه، درّس، وحدث وأفتى من صغره، وولّى المناصب الرفيعة، من مصنفاته: كتاب عروس الأفرح في شرح تلخيص المفتاح للقاضي جلال الدين القزويني وغيره، وله يد طويلة في العلم لم يكتمه في موسم حجّه هذا وفترة مجاورته، فضلاً عن شعره الرائق الذي كشفت عنه الحركة الثقافية في منى، ورائد حلقتها قاضي القضاة زين الدين أبوبكر بن الحسين المراغي الشافعي، ومن طلبتها آنذاك الشيخ الفاسي قراءةً وسامعاً عليه بمنى، وقد أخبر المراغي هذا بأنه سمع قاضي

١. السخاوي، الضوء اللامع ١: ٣٥١.

٢. المصدر نفسه ٦: ٩٨.

٣. المصدر نفسه ٦: ٣٠٩.

٤. هو تمام بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علي بن سوار بن سليم بن أسلم الخزرجي، كنيته أبو حامد، ويسمى أيضاً أحمد، وفاته الخميس ٧ من رجب سنة ٧٧٣هـ؛ العقد الثمين ٣: ٣٨٣-٣٨٤ برقم ٨٦٠.

القضاة بهاء الدين السبكي ينشد لنفسه بالحضرة النبوية قائماً مكشوف الرأس قصيدة نبوية، أورد الفاسي بعضاً منها في ثلاث صفحات، وأوها:

تَيْقِظُ لِنَفْسِي عَنْ هِدَايَا تَوَلَّتْ وبادر ففي التأخير أعظم خشية
ومنها:

وخير نبيٍّ جاء من خير عنصر بخير كتابٍ قد هدى خير أمة
وأولهم فضلاً ونشراً إذا دعوا وآخرهم بعثاً وأوسط نسبة
لك المعجزات العُرِّ لاحت خوارقاً وباهر آياتٍ عن الحصر جلت
ومنها:

وبالقمرين التيرين هديتنا كتابٌ من الله الكريم وسنة
وصليت نحو القبلتين تفرداً وكلّ نبي ما له غير قبلة
وعندي يمين لا يمين بأن في يمينك وكفأ كيف ما السحب ضنت
لقد نزه الرحمن ظلك أن يرى على الأرض مُلقى فانطوى للمزية.^١

من مشاعل هذه الثقافة أيضاً شمس الدين محمد بن علي سكر، قدم إلى مكة حاجاً عام ٧٤٩هـ

واستوطنها في نفس هذا العام حتى وفاته بمكة في صفر سنة ٨٠١هـ، مسموعاته كثيرة على مشاهير علماء القاهرة والإسكندرية ودمشق، وأجيز من بعض علماء هذه البلاد، كان معنياً بالحديث والقراءات (انتصب للإقراء بالحرم الشريف عند أسطوانة في محاذة باب أجياد، وأخذ خطوط من عاصره من أمراء مكة، وقضاتها بالجلوس عندها)، انتفع الحجاج من فيض علمه بعرفات وعظاً وتحديثاً.^٢

١. العقد الثمين ٢: ٣٨٦٣٨٣ برقم ٨٦٠، ومنه ورد هذا الشعر؛ الدرر الكامنة ١: ٢٢٥؛ إتحاف الوري ٣: ٣١٤.

٢. العقد الثمين ٢: ٢٠٧٢٠١ برقم ٣٢٥ ترجمة طويلة؛ ابن تغرى بردي، المنهل الصافي والمستوفي ٢٤٧

ومن العلماء المحدثين القراء أيضاً عبد الله بن خليل بن فرج الشافعي (ت ٨٣٣هـ) حجّ وجاور بمكة أعواماً طويلةً، وخلالها كان قارئاً محدثاً بالمسجد الحرام، خاصةً أيام المواسم التي غُصّت فيها حلقاته العلمية برواد العلم من الوافدين، وصنّف أثناء مدّة مجاورته: تحفة المتهجّد وغنية المتعبّد، وفي أول ذي الحجة من عام ٨١١هـ كانت حلقاته العلمية بالمسجد الحرام زاخرة برواد المعرفة سماعاً عليه، وحدث بمكة بكتاب: الذكر المطلق وهو من تأليفه.^١

ولا يفوتنا في هذا المقام العالم التقي أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد، الشيخ الإمام العالم البارع، عمدة المؤرخين، وعين المحدثين تقي الدين المقرئ البعلبكي الأصل،^٢ المصري المولد والدار والوفاء. مولده بعد عام ٧٦٠هـ بسنوات،^٣ ووفاته ١٦ من رمضان سنة ٨٤٥هـ، ودفن في مقبرة الصوفية خارج باب النصر من القاهرة، المقرئ إلى جانب كونه من أكابر مؤرخي العصر المملوكي، فهو عالم محدّث فقيه، تفقّه على مذهب الحنفية، ثمّ تحول شافعيّاً، وسمع بمكة الصحيحين سنة ٧٨٣هـ من العفيف النشاوري،^٤ ابن سكر المذكور آنفاً وغيرهما وقد أجازهم مشاهير مكة، ومن سمع عليهم، وتفقه وبرع وصنّف التصانيف المفيدة النافعة الجامعة لكلّ علم، أجمعت إشارات أقرانه على أنّه كان ضابطاً مؤرخاً

بعد الوافي، ١: ٣٩٥، وهامشها، تحقيق، أحمد نجاتي، ط ١، دار الكتب المصرية، ١٣٧٥هـ؛ إتحاف الوري ٣: ٢٣٩.

١. ابن حجر، أنباء الغمر ٣: ٤٤٦؛ السخاوي، الضوء اللامع ٥: ١٨.

٢. الحارة في بعلبك، تعرف بحارة المقارزة، وأصله من بعلبك، وجدّه من كبار المحدثين، تحول ولده إلى القاهرة، وولي بها بعض الوظائف المتعلقة بالقضاء، وكتب التوقيع في ديوان الإنشاء، وولد له ابنه تقي الدين هذا. الضوء اللامع ١١: ٢٢٧.

٣. ذكر السخاوي في كتابه الضوء اللامع ٢: ٢١، (مولده ٧٦٦هـ بالقاهرة).

٤. موفق الدين علي بن عبد الله النشاوري الزبيدي اليمني، (ت ٧٩٨هـ)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي ١: ٣٩٥ وهامشها.

مفتناً معظماً في الدول، جاور بمكة في سنة ٨٣٩هـ وحدث بكتابه: إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الحفدة والمتاع في ستة مجلدات، ومصنفاته لا نستطيع حصرها هنا، وكثرة السامعين عليه، والمتفعين منه خاصة وعمامة في مواسم الحج وغيرها لا تتسع لهم هذه السطور.^١

وقد ساهم في هذا الصدد أيضاً الحافظ بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) من أشهر مؤرخي مصر في وقته بلا منازع، حجّ وجاور سنة ٨٠٦هـ، وسمع بمكة ومنى، ثم حجّ سنة ٨١٥هـ ثم حجّ وجاور سنة ٨٢٤هـ، وقد حدّث بكتابه: نخبة الفكر في حجة سنة ٨١٥هـ، وأفاد كثيراً من المجاورين والوافدين وحدّث بالمسلسل سنة ٨٢٤هـ وكان في حلقة المشاهير، واستفاد منه خلق كثير في منى مثل: ٢ محمد بن عيسى بن محمد السلامي الطائفي الذي سمع عليه بمنى، ومصنفاته كثيرة منها: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة وغيره.^٣

ومن لم يكن له نظير ببلاد الحجاز تحديثاً وتديساً وإفتاءً هو: محمد بن موسى بن علي، الملقب بجمال الدين، والمكنى بأبي البركات المكي الشافعي، وكان واسع الثقافة قراءة، وسماعاً على مشاهير علماء البلاد في شتى المعارف والفنون، فقرأ وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، والمعاني، والبديع، والأدب وتقدم كثيراً في الحديث لجودة معرفته بالعلل وأسماء المتقدمين، والمتأخرين، والمرويات، والعالي، والنازل، مع الحفظ لكثير من المتنون، ولم يكن له في ذلك نظير بالحجاز، حصل معارفه من مشاهير علماء مكة والمدينة ومصر ودمشق وغيرها، وأذن له شيخها مُسند الحجاز أبو بكر بن الحسين

١. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١: ٣٩٤ ٣٩٩ برقم ٢١٧؛ الضوء اللامع ٢: ٢١؛ السيوطي، حسن المحاضرة ١: ٥٥٧؛ شذرات الذهب ٧: ٢٥٤.
٢. الضوء اللامع ٨: ٢٧٦ وفيها ذكر وفاته سنة ٨٤٣هـ.
٣. المصدر نفسه، ٢: ٣٦؛ ابن فهد، معجم الشيخ: ٧٠، تحقيق أحمد الزاهي، مراجعة حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٨١م؛ السيوطي، حسن المحاضرة ١: ٣٦٣.

المراغي في الإفتاء والتدريس، وقد سمع من الشيخ تقي الدين الفاسي سنة ٨١٢ هـ وهما في طريقهما إلى المدينة عند وادي الفرع،^١ وسمع الفاسي منه أيضاً. وفاته في ذي الحجة سنة ٨٢٣ هـ ودفن في المعلاة بمكة. وتأسف الناس والفاسي عليه، وقال: وكنت عظيم الأسف عليه لما بيني وبينه من الصداقة الأكيدة، ولما يفيدني في الحديث وغيره وقل أن اجتمعت به إلا وأفادني شيئاً.^٢

وقد نمت ثقافة الحج، واتسعت معارفه أكثر بمساهمة مؤرخ مكة، وقاضيه ومحبي معالمها، ومجدد مآثرها الشيخ تقي الدين الفاسي المكي المالكي، مترجم أعيان مكة، ولادته بمكة في ليلة الجمعة ٢٠ من ربيع الأول سنة ٧٧٥ هـ، ضخامة أنشطته العلمية من مسموعاته وإسماعاته على مشاهير علماء مكة، والمدينة، والقاهرة، ودمشق وغيرها إلى العديد من الإجازات العلمية التي حصل عليها من علماء هذه البلاد لا تحمّلها هذه العجالة، ويكفيها هنا أن نشير في إيجاز إلى بعض مساهمته في نحو هذه الثقافة أخذاً وعطاءً، بدأ بحفظ القرآن الكريم حتى جوّده، وفي سنة ٧٨٧ هـ قرأ الأربعين للنووي وغيرها وعرضها بالمدينة النبوية سنة ٧٨٨ هـ، وفي هذه السنة انتقل إلى مكة مع أسرته، وقرأ عمدة الأحكام وعرضها في سنة ٧٨٩ هـ، ومسموعاته على هذا النحو كثيرة، وأذن له مشاهير العلماء في التدريس والإفتاء عن طريق منحة الإجازة العلمية التي حظي بها من أشهر العلماء في البلاد التي كان يتردد عليها كثيراً، وأكثر تردده على القاهرة من مكة، ففي ذي القعدة سنة ٧٨٧ هـ كان بالقاهرة لتحصيل معارفه سماعاً على الحافظ نور الدين الهيثمي من كتابه مجمع الزوائد ومنبع الفوائد وغيرها، وفي شوال من السنة نفسها ولي قضاء المالكية

١. الفرع، قرية من نواحي الرثده بينها وبين المدينة ثمانية برد، على طريق مكة. معجم البلدان ٤: ٢٥٢.

٢. العقد الثمين ٢: ٣٧١ ٣٦٤ برقم ٤٦٥؛ ابن حجر، أنباء الغمر ٣: ٢٣٤؛ الضوء اللامع ١٠: ٥٦؛ برقم ٢٠٠؛ شذرات الذهب ٧: ١٦١.

بمكة من قبل الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق، وتوجه مع ركب الحجّاج المصريين إلى مكة، فوصلها في ذي القعدة من السنة نفسها. وفي أوائل ذي الحجة قرئ توقيعه بالولاية في المسجد الحرام خلف مقام الحنفي بعد صلاة العصر بحضرة أمير الحجّ المصري الأمير كزل العجمي، وغيره من أعيان الحجّاج وأهل مكة. وفي سنة ٨١٢هـ زار المدينة النبوية وحضر بها مجلس الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الوانوغلي في الأصول، والفقهاء، وغير ذلك، وأذن له الوانوغلي في الإفتاء والتدريس، وكتب له خطه بذلك في منى في أيامها سنة ٨١٣هـ، هذه صيغة الإجازة العلمية آنذاك، ومما كتبه الوانوغلي في إجازته للمذكور، وبعد أن طلب اجتماعه بعلماء مكة قال: كان ممن اجتمعت به، وذاكرته وباحثته مراراً عديدة في مسائل كثيرة من مسائل الفقه وغوامضه، وما يتعلق بهما، وتكررت أسئلته عن ذلك كلّه ومباحثه فيها، مرة بعد أخرى: السيد الفقيه الفاضل الأعدل الأكمل الجامع للصفات الفاضلة الحسيب الأصيل القاضي تقي الدين محمد بن الشيخ الحسيب الأصيل شهاب الدين أحمد بن علي الفاسي، نفع الله بفوائده وعلومه الجليلة.

وقد ورد علينا بالمدينة الشريفة، وحضر معنا درس الفقه والأصول، وأبدى فيه من فوائده ومباحثه الجليلة بعلمه وفضله على طريقة أهل الفنون والمباحث، فرأيت في ذلك كلّه أهلاً للتدريس، والفتوى، والحكم، وإفادة الطالبين، مع ما جبل عليه من حسن الفهم، وحسن الإيراد، وسعة البال في البحث والمراجعة فيه.

فأوجب ذلك كلّه، الإذن له في التدريس والفتوى، وإفادة الطلبة، وحثّه على الاشتغال بذلك كلّه، والملازمة له، ليتنفع به الناس عموماً، وأهل بلده خصوصاً، فإني لم أر من فقهاء المالكية بالحجاز كلّه من يقاربه في جميع ما ذكرناه نفع الله به ولا في اتصافه في العلم ولا في الفهم عن الأئمة. انتهى بنصّه باختصار من أوله وآخره.

ومن جملة أنشطته أنّه درّس للمالكية في المدرسة السلطانية الغياثية البنجالية التي

تقع بالجانب اليماني من المسجد الحرام، ودرّس قبلها في المسجد الحرام، وأفتى كثيراً بداية من عام ٨٠٨ هـ. شيوخه كثيرون نحو خمسمائة شيخ بالسماح والإجازة، ومن تصانيفه: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، والمناسك الكبرى، والمناسك الوسطى، والمناسك الصغرى، وقد أثنى على الشيخ تقي الدين الفاسي العديد من العلماء، فصاغوا تصانيفه في شعر أورد الفاسي جملة منه في نهاية ترجمته بكتابه العقد الثمين، وفاته في ٣ من شوال سنة ٨٣٢ هـ.^١

هذا، وقد أورد الفاسي صورة إجازته العلمية ضمن ترجمة أستاذه الوانوشي المجيز، والوانوشي هو محمد ابن أحمد بن عثمان بن عمر التونسي، المكنى بأبي عبد الله، والمعروف بالوانوشي. نزيل الحرمين الشريفين، ولد سنة ٧٥٩ هـ بتونس ونشأ بها، وسمع بها من مسندها ومقرئها: أبي الحسن بن أبي العباس البطرني في خاتمة أصحاب الأستاذ أبي جعفر بن الزبير بالإجازة، وله منه إجازة بكل ما يرويه، أخذ العلم من مشاهير علماء تونس، كالتفسير، والفقه، والمنطق، والأصليين وعلوم الحساب، والهندسة والنحو، وكان إذا رأى شيئاً وعاه، وقرره وإن لم يسبق له به عناية، وأعانه على ذلك شدة ذكائه وسرعة فهمه. انتقد أساطين العلم قبله، وله في هذا الصدد تأليف على قواعد شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام الشافعي، وذكر فيه أنّه زاد فيما أصله فوائد كثيرة، وردّ عليه كثيراً مما قاله، ذكر الفاسي ذلك قائلاً: وأوقفني على موضع من ذلك يتعلّق بفضل مكة والمدينة. فرأيت فيه ما ينتقد في مواضع، منه ولا أبعد أن يكون فيه كثير من هذا المعنى، وله سوّالات في فنون العلم تشهد بفضلها، وهي عشرون سوّالاً بعثها من المدينة يتعرف جواب علماء الديار المصرية عنها. ذكر الفاسي: فتصدى للجواب عنها

١. العقد الثمين ١: ٣٣١-٣٦٣ برقم ٣٨؛ ابن حجر، أنباء الغمر ٣: ٤٢٩؛ الضوء اللامع ٧: ١٨؛

شذرات الذهب ٧: ١٩٩؛ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٢٥٣.

شيخنا أي شيخ الفاسي قاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين بن... شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني،^١ الذي ردّ عليه كثيراً مما قاله فيها، ووصل ذلك للمذكور فذكر لي - الفاسي أنه ردّ ما ذكره شيخ الإسلام.^٢

وفتاوى الوانوغى كثيرة متفرقة في مصر والمدينة ومكة وغيرها، فأول قدمه إلى مكة كان سنة ٨٠٠هـ حجّ فيها، ورجع إلى مصر، ثم عاد قبيل رمضان من التي بعدها إلى مكة، فجاور وحجّ فيها، ومنها إلى المدينة، ومنها إلى مصر سنة ٨١٢هـ، وحجّ في هذه السنة، وحضر إلى المدينة واستوطنها، ثم إلى مكة بأهله سنة ٨١٥هـ، وفي هذه الفترة لم يكتف ما أنزل الله عليه من البينات والهدى بل صار يذيع معارفه في أوساط الحجيج والوافدين في مواسم الحج وغيرها حتى وفاته بمكة في ١٩ من ربيع الآخر سنة ٨١٩هـ.^٣ ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر ما أكدت به الحركة الثقافية في مكة والمدينة على يد قاضي مكة وخطيبها، وعالمها الشهير: محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن القاسم الهاشمي، العقيلي، ولادته بمكة سنة ٧٢٢هـ، ومسموعاته لكثير من فنون العلم على مشاهير علماء مكة والمدينة ودمشق، أكدت معرفته، وسعة أفقه في تحصيله من العلم على أوفر نصيب رقى به أعلى الذروة، واشتهر بذلك ذكره، وبُعد صيته، صار المنظور إليه في بلده، بل بالحجاز كلّه، ودرّس، وأفتى، وناظر، وحدث. ولي قضاء مكة سنة ٧٦٣هـ في رمضان هذه السنة، واستمر حتى وفاته، هذا فضلاً عن ولايته خطابة الحرم ونظرة. وأنشطته العلمية وافرة، فقد درّس في مدارس ملوك اليمن الثلاثة بمكة

١. هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني، ولد سنة ٧٢٤هـ وتوفي سنة ٨٠٥هـ. ابن تغرى بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١: ٣٩٥.

٢. العقد الثمين ١: ٣١٠٣٠٨.

٣. للمزيد من التفاصيل راجع ترجمته في العقد الثمين ١: ٣١٧٣٠٨ برقم ٣٢، وانظر فيها المناظرات لشتى مصنفات أساطين العلم قبله، ابن حجر، أنباء الغمر ٣: ١١٤؛ الضوء اللامع ٧: ٣ برقم

٢٥؛ شذرت الذهب ٧: ١٣٨.

وهي: المنصورية،^١ المجاهدية،^٢ الأفضلية،^٣ وهو أول من درّس في الأخيرة، وكان يسكن بها، ولي تدريس درس بشير الجمدار،^٤ مشافهة منه، ومكان هذا الدرس بالمسجد الحرام، وقد أغفلت المصادر نوعية ما يدرس فقهاً، أو حديثاً، أو تفسيراً عموماً من تولوا التدريس فيه كانت أنشطتهم تدور بين مدارس الحديث والفقهاء، وهذا مدرك من خلال من عملوا بدراسته كمحبّ الدين أحمد بن محمد النويري (ت ٧٩٩هـ)،^٥

١. وتسمّى هذه المدرسة أيضاً المظفرية نسبة إلى ولد صاحب اليمن المظفر يوسف بن علي؛ لأنّه أقام فيها درس حديث، انظر ترجمته في الخزرجي، العقود اللؤلؤية ١: ٨٨٤٤؛ العقد الثمين ٧: ٨٨، وفاته سنة ٦٩٤هـ. وتسمّى بالنورية نسبة إلى نور الدين لقب الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، وهو الذي قام بعمارة هذه المدرسة سنة ٦٤١هـ، وهي بالجانب الغربي من المسجد الحرام، وهي موقوفة على فقهاء الشافعية، وقام بهذه العمارة الأمير فخر الدين السلاج؛ العقد الثمين ٨: ١٧٥، وعن ترجمة الملك المنصور، العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية ١: ٨٨٤٤؛ العقد الثمين ٦: ٣٣٩، وفاته ٦٤٩هـ.

٢. المدرسة المجاهدية، عمّرها الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف صاحب اليمن سنة ٧٣٩هـ، وهي بالجانب اليمني من المسجد الحرام، وأوقفها في ذي العقدة من هذه السنة على الشافعية. العقد الثمين ٦: ١٥٨ و ١: ١١٨؛ شفاء الغرام ١: ٣٢٨.

٣. المدرسة الأفضلية وهي نسبة إلى الملك الأفضل العباسي بن الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر داود بن الملك المنصور يوسف، وبنها جوهر بن عبد الله، المعروف بالرضوان، (ت ٧٥٥هـ) وبعد مجاورته لمكة بنى هذه المدرسة ولم يفدنا الفاسي بتاريخ بنائها غير ما أورده في عشر الخمسين وسبعمئة. عن المدرسة انظر شفاء الغرام ١: ٣٢٨؛ العقد الثمين ١: ١١٨؛ وعن ترجمة هذا الملك، الخزرجي، العقود اللؤلؤية ٢: ١٢٧١٦٣؛ وعن جوهر هذا، العقد الثمين ٢: ٤٤٨.

٤. العقد الثمين ١: ٣٠٧-٣٠٠ برقم ٢٩، ٣: ٥٢ برقم ٥٦٢؛ المقرئ، السلوك ٣: ٥٢٧-٥٢٢ ق ٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة ١: ١٥٣ برقم ٤٠٥؛ إتخاف الوري ٢: ٣٤٥.

٥. نجم الدين محمد بن محمد بن محمد بن محب الدين أحمد الطبري، قاضي مكة ومفتيها، كان أديباً ناظماً ناثراً، (ت ٧٣٠هـ)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي ١: ٣٢٥ وهامشها، ضمن ترجمة جدّه المحب الطبري رقم ١٨٤.

وعزّ الدين محمد بن أحمد النويري (ت ٨٢٠هـ)^١ وهما وغيرهما كانوا من أتباع المذهب الشافعي، وأنشطتهم كانت ملحوظة في عملهم بنشر الحديث وفضلاً عن ولاية كمال الدين أبي الفضل النويري بدرس بشير، فقد درس الفقه للملك الأشرف شعبان صاحب مصر، وبذلك جمع هذه الوظائف ولم تكن لأحد من قبله من قضاة مكة، وبعضها لم يكن إلا في زمنه، ذكره المؤرخون كثيراً بسعة يده الطولى في فنون من العلوم مع الذكاء المفرط، والفصاحة والإجادة في التدريس، والإفتاء والخطبة، ورجاحة عقله عند عامة الناس وخاصتهم، أضف إلى ذلك كثرة تواضعه، ومروءته مع الفقراء والأعيان الواردين إلى مكة، وتوفي أبو الفضل النويري الثلاثاء ١٣ من رجب سنة ٧٨٦هـ)^٢.

وأشرفت ثقافة الحجّ بنور ربّها حيث انضم إلى لوائها رائد من رواد نهضتها زاد من رصيدها واسترشدت بشتى معارفه وتباين علومه تصنيفاً، وإقراءً، وإسماعاً، يعرفه أهل الحجاز لمجاورته للحرمين الشريفين، أشار إليه من أثنى عليه من أقرانه بأنّه الإمام أبو السيادة عفيف الدين، عبد الله بن أسعد بن علي ابن سليمان اليافعي اليمني، نزيل مكة، ولادته سنة ٦٩٨هـ وحجّ سنة ٧١٢هـ، وكان عارفاً بالفقه، والأصول، والعربية، والفرائض، والحساب، وغير ذلك من فنون العلم، سمع على مشاهير علماء مكة، فقرأ الكتب الستة على الشيخ رضي الدين الطبري خلاشين سنن ابن ماجه وغيرها، وسمع على القاضي نجم الدين الطبري،^٣ مسند الشافعي، وفضائل القران لأبي عبيد،

١. هو لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، الفقيه الشافعي المشهور، فرغ من تأليفه سنة ٤٥٣هـ، وتوفي سنة ٤٧٦هـ، ابن تغرى بردي، نفس المصدر والجزء والصفحة هامش ١٠.

٢. ذكر محقق الفاسي فؤاد سيد في العقد الثمين ٥: ١٠٥، أن عنوانه: مرهم العلل المعضلة في دفع الشبه والردّ على المعتزلة بالبراهين والأدلة المفصلة، مختوم بعقيدة أهل السنة المفصلة، طبع الكتاب بالهند سنة ١٩١٠م.

٣. هو كتاب مشهور عنوانه: مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، مطبوع في أربعة مجلدات.

وغيره، وبحث عليه الحاوي الصغير في الفقه، والتنبيه.^١ وقال الفاسي: وكان يقول أي نجم الدين الطبري في حال قراءتي للحاوي: استفدت معك أكثر مما استفدت معي، قال: ويقول لي: قد أقرأت، أو قرأت هذا الكتاب مراراً ما فهمته مثل هذه المرة، ولما فرغت من قراءته، قال في جماعة حاضرين: اشهدوا عليّ أنه شيخني فيه...

مصنفاته كثيرة في فنون العلم: دينية، وعربية، وعقلية، ذكر الفاسي وغيره أنّها: تشتمل على قريب عشرين علماً، منها: المرهم،^٢ وكتاب في التاريخ، وكتاب في أخيار الصالحين يسمّى روض الرياحين، وغير ذلك، وتفاعل الياضي بمعارفه ومصنفاته مع جهابذة العلماء أيام الحجّ في مكة وأمكنة المشاعر. ومناظراته مشهورة مع أساطين العلم والمعرفة، حكى الفاسي كثيراً منها، ما أورده عن: القاضي شهاب الدين أحمد بن ظهيرة يحضر مجلسه لسماع الحديث، فانجرّ الكلام إلى مسألة من مسائل التمتع في الحجّ، فاختلف فيها رأيه ورأى الشيخ الياضي... وغيرها أثنى عليه غير واحد من مشاهير العلماء، وأفادوا أنّه: إمام عالم مُتَفَنُّنٌ يُسْتَرشَدُ بعلمه ويُقْتَدَى، وعَلَمًا يُسْتَضَاءُ بنوره ويُهْتَدَى، وأنّه إمام علمه يُقْتَبَسُ، وبركته تُلْتَمَسُ، كان فريداً في العلم والعمل، مصر وفاضلاً إليه وجه الأمل، فضيل مكة وفاضلها، وعالم الأباطح وعاملها، تردد عشر سنوات بين الحرمين الشريفين متألّقاً في سماء هذه الثقافة، ومع هذه الأسفار وغيرها في سائر الأقطار لم تفتته حجّة في هذه السنين. وفاته ليلة الأحد ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٧٦٨ هـ بمكة، ودفن بالمعلاة.

ساهم أيضاً شيخ الياضي السابق محمد بن محمد بن أحمد الطبري بسائر أنشطته العلمية سماعاً وتحديثاً وتصنيفاً، ومناظرته من خلال حلقاته العلمية في مواسم الحجّ حامية حادة بين مشاهير علماء العالم الإسلامي، وترجمته مشحونة بهذه المناظرات

١. العقد الثمين ٥: ١٠٤-١١٥ و ٢: ٢٧١-٢٧٦ برقم ١٤٨٦ و ٣٨٥؛ الدرر الكامنة ٢: ٣٥٢ برقم ٢١٢٠؛ ابن تغرى بردي، المنهل الصافي ١: ٣٢٥؛ إتحاف الوري ٣: ١٩٣.

ذكرها يطول، ولكنّها بشكل عام أثرت الدور الثقافي في مكة، وأمكنة الحجّ. وفاته في ٢ من جمادى الآخرة سنة ٧٣٠هـ بمكة.

ومّا سبق يتأكد لنا أنّ مواسم الحجّ في بلاد الحجاز قد وسعت علماءها من مختلف البلاد الإسلامية، فمكة كانت تمثّل المتدى العام لجموعهم، والمدينة بها قبر سيد المرسلين ﷺ، وكلّ منهما بلا شكّ كانت كجذب لمختلف العلماء، وزاد رصيدها سنوياً من العلماء الذين حجّوا، وفضلوا المجاورة للحرمين لذلك قصدهما مئات العلماء، وقلّمًا خلا عام من عالم شهير بالحرمين يأخذ عنه شباب الأمة وشيوخها من راغبي العلم في هذه البلاد، أو القادمين إليها وهؤلاء بعد مناسكهم كان يعود أكثرهم إلى بلاده هائناً بما حصله من معارف وخبرات قلّمًا توقّرت في بلادهم، أو ضمّتها جوانب حضارتهم وكثيراً ما كانت تعایشهم هذه الذكرى في بلادهم، فيعاود أغلبهم الكرّة مرة، بل ومرات ومرات لمضاعفة ثوابهم في أرض أنعم الله عليها بمضاعفة أجر من أحسن عملاً، بينما يطيب لبعضهم بعد حجّه البقاء مجاوراً بالحرمين هائناً بأنعم الله، بل فضل بعضهم عدم العودة، واستمر في مجاورته بمكة، أو المدينة، أو هما معاً، وشكل على مرّ العصور نسيجهما، وقد ساعد هؤلاء وأولئك بشكل أو بآخر في إثراء ثقافة الحجّ وزادوها ازدهاراً.

مناجاة الراجين

ياربي الغفار أنت الساتر
يامن عميمٌ عفوه فيمن عصى
هورازق الطفل الصغير بجوده
هو منعم الشيخ الكبير بلطفه
يا من جميع الكائنات لنفسه
أنت الذي من كافرين ستنتقم
أرجوك يا غفار مولاي سيدي
يا حاكم يوم المعاد بقدرته
«مقداد» عبدك قد عصى في جهله
ذو المنّ والغفران أنت القادر
معطي ومعطي مسلم أو كافر
قد كان في بسط الموائد ناصر
قد كان في الإعطاء حقاً ماهر
هو رازق هو جابر هو كاسر
يا قامع الكفار أنت القاهر
أنت الذي يوم القيامة غافر
يا محيي الأموات أنت الحاضر
فهو الذي يرجوك أنت الساتر

Abstracts

Culture of Hajj...

By: Dr. Soleyman Abdolqani Maleki.

Abstract:

Hajj is a primordial phenomenon among different nations and it is one of the oldest religious rituals that humanity may know about. The very purpose of Hajj is purely religious; however, the society would enjoy literary, financial and cultural benefits that consequently would lead to the promotion of the values' uplift. It is as well a fundamental tenet in Islam since the coincidence of general call of Abraham and constructing what is named as House of God (*Ka'ba*) which is basically a symbol of Divine Unity. Up until the prophecy of last messenger, Prophet Muhammad, Arabs profoundly exercised Hajj. Indeed, Hajj having a great history and significance through times, founded a magnificent element of Islamic history. Today, the pilgrims (*Hajjis*) would endure many hardships and undergo numerous difficulties.

Personalities of Harramein Al-Sharifein

Abbas Ibn Abd Al-Motallib

By: Mohammad Soleyman

Abstract:

Abbas son of Abd Al-Motallib left a great influence in the history of Islam in a number of occasions including those of which related exclusively to the house of God and servitude of its pilgrims. He was of great honor and high rank among people of his tribe from a social and financial perspective. Accordingly, his reputation as a courage, experienced and well-intended person labelled him as a successful businessman in Mecca. From a literary point of view he was wise enough to read poetry and give lectures.

History belongs to him and his responsibilities about holy Ka'ba (house of God). One is able to read his history with all who surrounded him and with prophetic message during his lifetime in Mecca and Medina. There are few people like him with such an extension of multitude phases and stages of their life.

It all refers to his nurture in a dignified Meccan Hashemi house. He is known for good temperance, dignity and understanding. Everyone would know him of a great social rank among Quraish tribes. It also refers to his power, deep sight and all-pervasive ideas that were originated in his long-term experience during 90 years of living.

spiritual, moral and social bounties as well as deep understanding of (the value) of holy house and its secrets. We would obtain a good track of all these benefits through recitation of Quranic verses and prophetic narrations and the sermons of Ali ibn Abi Talib and other Imams.

Monotheists, worshipers, seekers

The mother of all settlements (Umm Al-Qura)

By: *Mohsen Al-Assadi*

Abstract:

There are many principles and rulings in Mecca that Allah (S.T) is fully aware of them and their meanings. It is mentioned in Holy Quran that “He will not be questioned as to that which He does, but they will be questioned”. There are as well numerous purposes; many great bounties in both this world and resurrection that pilgrims and delegates of this holy house would enjoy. They are altogether relevant to the very existence of the Ka’ba and other sanctuaries nearby. Holy Ka’ba is equipped with many effective outcomes that one embraces while visiting it including spiritual, moral and social renovations; therefore, he would be able to contribute to the formation of a divine project (structure) that once prophet Ibrahim his family i.e. prophet Ishmael and Hagar were ordered by divine command to build His eminent house. These honorable three persons initiated the construction of the house so that other right-doers would follow them. This is the house constructed and purified for these people that is marked for God Himself as a sign of honor, dignity and prominence: “...and We imposed a duty upon Abraham and Ishmael (saying): purify my house for those who go around and those who mediate therein and those who bow down and prostrate” (2.125) and also “...and purify My house for those who make the round (thereof) and those who stand and those who bow and make prostration” (22.26). As monotheists and worshipers in all times who seek the mother of all settlements (Mecca) they are praised and included in the supplication of the Prophet Ibrahim to his Lord “...So incline some hearts of men that they may yearn toward them...”. This is why they find out security, tranquility and countless favor.

Let us live together under the umbrella of such a mercy to seek therein

Muhammad Prophet's -Ethics

By : Al Hosseini Aalmojadded Ashirazi

Abstract:

The following remarks are about Prophet Muhammad's noble virtues and contain his prominent moralities about eating: There are several narrations about prophet's way and place of sitting. There are several narrations regarding the way he would eat; several narrations related to the bread he would use; a chapter about his main food, a chapter concerning his habit as making ritual ablution while eating; a chapter about the prophetic custom when finishing the food and putting it aside; a chapter about his plate, mug and pan of food; and finally a chapter narrating fruits and drinks he would consume.

Zibh in the Eid Al- Azha

By : *Mohammad.Hossein.W. Raad*

Abstract:

Slaughter (*Zibh or Nahr*) is one of the rituals in Hajj and there are special preconditions for it some of which all Muslims agree upon. For instance, the due animal should be one of common following ones: camel, cow and sheep or goat. The very slaughter should take place in *Mina* in a religious holiday namely *Eid Al-Azha* till three days afterwards. It is also a must that the animal be healthy and verified. These are some of regulations that all scholars have consensus over, but the very substance of the defect (in animal) and that to what level of defect is forgivable and whether it is possible to slaughter (the animal) up until the last days of the month (*Zihaj*) in a place other than *Mina* and lastly if it's possible to cosume the meat or not. There are numerous ideas and debates among Islamic denominations. The cause to the emergence of such confusions are varying quotations and divergent deductions based on Quran, traditions, jurisdictions and parables.

whether the prohibition of swear or oath to God¹ is specified to the case of debate and quarrel or if it is a general rule. Secondly, the question is that whether the subject and instance for prohibition is each individual part or the whole combination of the words. The answer to the first question is that one is not permitted to swear to God only in the case of debate or any sort of challenge. The second question is also replied by saying that it is enough to form swear by indicating every single part while quarreling.

1. (لا والله) و(بلى والله).

Two Issues concerning Hajj

By: Ali Fazil Al-sadadi

Abstract:

There are two issues regarding the prohibited acts in wearing “*Ihram*”¹. Firstly, it is forbidden to breathe and smell any kind of fragrant flowers, plants or perfumes. Secondly, it is also unlawful to debate or quarrel.

The present research investigates variant opinions in regards to these two unlawful acts with all their reasoning and rebuttal. In fact, the conclusion about the first issue, namely *smelling*, is the explicit prohibition of breathing and using any perfumes or fragrant plants. It is relevant to a fully comprehensible reason that is an authenticated quotations of *Abdollah Sanan* and trustworthy traditions of *Hariz*. Both narrations are explicit in signifying prohibition (*Hurmah*) while, on the contrary, there are semantically incomplete controversies to unlawfulness of smelling; so that one would not be able to imply reprehension (*Makruhiah*).

It is actually based on two general principles first of which is the authenticity of *Hariz* when quoting from Imam Sadiq (A.S) even if the very quotation is ambiguous between *Irsal*² and *Isnad*³. Second principle is the popularity of implication of reprehension in the context that is implicitly signifying prohibition; only if those reasons for permissibility, on the other side, are clear and explicit. It mainly refers to priority of explicit reasons (*Nas*) over implicit ones (*Zahir*).

Second Issue contains two different aspects: firstly, it should be discussed

Abstract:



1. Wearing the prescribed attire.
2. Discontinuity of chain of narrators.
3. Successive chain of narrators.

In His name
Miqat¹ Al-Hajj
Month of Rajab, 1441
Year 27, No 53
Type: semi-annual

Scientific journal of cultural, historical,
political, and social affairs in Hajj

ISSN: 2538-1733

1. A sacred boundary near Mecca which is almost the beginning of rituals.